العرفان الإسلامي

سماحة آية الله

الشيخ حسين أنصاريان

ترجمة

كمال السيد

دار أحياء التراث العربي

مكتبة مؤمن قريش

العرفان الإسلامي

العرفان الإسلامي

تاليف

سماحة آية الله الشيخ حسين انصاريان

ترجمة

محمد الحزب (الحجازي)

الجزء الثاني

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing &Distributing

العنوان الجديد

دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ طريق المطار ـ خلف أوتيل الغولدن بلازا ص٠ب: ١١/٧٩٥٧
الرمز البريدي: ١١/٠٧٢٢٥٠ ـ هاتف : ٠٠٩٦١١٤٥٥٥٥٩/ ٠٠٩٦١١٤٥٢٤٦٩ / فاكس: ٠٠٩٦١١٨٥٠٧١٧
Beyrouth –Lebanon—Airport Road –Behind Golden Plaza—P.O:11/7957—Postal Code:-11/072250 Tel:009611455559 – 009611452469 -- Fax : 009611/850717
Email:darturath2012@hotmail.com www.dartourath.com

الباب

(٢)

في بيان حالات القلب

قال الإمام الصادق عليه السلام:«إعرابُ القُلوبِ أربَعَةُ أنواعٍ: رَفْعٌ وَفَتْحٌ وَخَفْضٌ ووَقْفٌ. فَرَفْعُ القَلْبِ في ذِكْرِ اللّهِ، وَفَتْحُ الْقَلبِ في الرِّضا عن اللّهِ، وَخَفْضُ الْقَلبِ في الاشْتِغَالِ بغَيْرِ اللّهِ، ووَقْفُ القَلْبِ في الغَفْلَةِ عَن اللّهِ.

ألا تَرَى أنَّ العَبْدَ إذا ذَكَرَ اللّهَ تعالى بالتَّعْظِيم خالِصاً ارْتَفعَ كُلُّ حِجَابٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللّهِ مِنْ قَبلِ ذَلِك. وَإذا انْقادَ القَلْبُ لِمَوْرِدِ قضَاء اللّه بشَرْطِ الرِّضَا عَنْهُ كَيْفَ لا يَنْفَتِحُ القَلْبُ بالسُّرورِ وَالرَّوحِ وَالراحَةِ. وَإذَا اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بشيءٍ مِن أسْبَاب الدُّنْيا كَيْفَ تَجِدُه إذَا ذَكَرَ اللّهَ بَعْدَ ذلِك مُنْخَفِضاً مُظْلِمَاً كَبَيْتِ خرابٍ خَاوٍ لَيْسَ فيهِ عِمَارَةٌ وَلا مؤنس. وَإذا غَفَل عَنْ ذِكْرِ اللّه كَيْفَ تَرَاهُ بَعْد ذَلِك مَوْقوفاً مَحْجُوباً قَد قَسا وَأظْلَمَ مُنْذُ فَارَقَ نُوْرَ التَّعْظِيم.

فَعلامَةُ الرَّفعِ ثَلاثَة أشياء: وُجودُ المُوافقَةِ، وفقْدُ المُخَالفةِ، وَدوَامُ الشَّوْقِ. وَعلامَةُ الفَتْحِ ثَلاثَةُ أشياء: التَّوكلُ والصِّدْقُ واليقينُ. وَعلامةُ الخَفْضِ ثَلاثَةُ أشياء: العُجْبُ، والرِّياءُ، والحِرْصُ. وَعلامَةَ الوَقْفِ ثلاثَةُ أشياء: زَوالُ حَلاوةِ الطَّاعَةِ، وعَدَم مرَارَة المَعْصِيةِ، والتِباسُ علْمِ الحَلالِ بالحَرَامِ»[1].

١ـ مصباح الشريعة: ١٢١.

«قال الإمام الصادق عليه السلام: إعرابُ القُلوبِ أربَعَةُ أنواعٍ: رَفْعٌ وَفَتْحٌ وَخَفْضٌ وَوَقْفٌ».

يشبه الإمام الصادق عليه السلام قلب الإنسان بحالات الكلمة الإعرابية، فكما أن لإعراب الكلمة أربع حالات، يستطيع القارىء من خلالها تحديد موضع الكلمة، كذلك قلب الإنسان له أربع حالات من الاعراب، وبتعبير حقيقي للقلب أربع حالات أيضاً، ومن خلالها يتضح موضع استقرار القلب وفي أي حالة من حالاته.

توضيح حول لفظ «الكلمة»:

ورد لفظ "الكلمة" في القرآن الكريم بمعاني مختلفة، نشير إليها بنحو الإختصار:

يجب القول وفقاً للآيات القرآنية والموروث الإسلامي: أنَّ الوجود وجميع شؤونه وأجزائه حقٌّ، والكلمة والكلمات حقٌّ.

وقد أطلق القرآن المجيد على الوجود وجميع شؤوناته التكوينية والتشريعية أنها "كلمات الله" في آيات متعددة. كما جاء في سورة الكهف المباركة:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1].

ونقرأ كذلك في سورة لقمان:

١ـ الكهف ١٨: ١٠٩.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

لقد عبر الحق تعالى في هاتين الآيتين بـ "كلمات الله" عن جميع الموجودات في عالم الوجود، وجاء التعبير بـ "كلمة" في آيات أخرى للإشارة إلى كل جزء من أجزاء الخلقة كمصداق لها.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[2].

مصاديق لفظ «الكلمة» في القرآن:

١- القول الحق:

حيث عبر الله سبحانه وتعالى عن خطابه لآدم عندما جعله في الارض خليفة بـ "الكلمة"، وفي الحقيقة إن القول الحق هو مصداق "الكلمة" كما جاء في سورة يونس:

﴿فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[3].

فهي إشارة إلى خطاب الحق تعالى عند هبوط آدم إلى الأرض حيث يقول تعالى:

﴿وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[4].

و إلى خطابه لإبليس حيث يقول:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

١ـ لقمان ٣١: ٢٧.

٢ـ الاعراف ٧: ١٣٧.

٣ـ يونس ١٠: ١٩.

٤ـ البقرة ٢: ٣٦.

فالقول الحق والاستقرار في الأرض من الأمور الحتمية التي هي مصداق للفظ "الكلمة"، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

ويقول: ﴿وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣].

وكذلك عبر عن الوعد الإلهي الحتمي لنجاة بني اسرائيل من ظلم فرعون بـ "الكلمة" حيث قال تعالى: .

﴿وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٤].

وكذلك جاء في قوله تعالى:

﴿وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٥].

وفي مواضع أخرى عبر عن مجموعة القوانين والأحكام الاسلامية لرسالة النبي الأعظم ﷺ بـ "الكلمة":

﴿وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً﴾[٦].

٢- التوبة:

وجاء التعبير عن التوبة بـ "الكلمة" حيث يقول سبحانه وتعالى:

١ـ ص ٣٨: ٨٥.

٢ـ يونس ١٠: ٩٦.

٣ـ الزمر ٣٩: ٧١.

٤ـ القصص ٢٨: ٥.

٥ـ الاعراف ٧: ١٣٧.

٦ـ الانعام ٦: ١١٥.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١] .

٣- الامتحان:

وجاء التعبير بلفظ "كلمات" عند امتحان الله سبحانه وتعالى لأوليائه وعباده في مواضع منها قوله تعالى:

﴿وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[٢].

٤- روح المعنى:

كذلك عبر بلفظ «الكلمة» عن الروح والنفس المهذبة والمزينة بالحسنات، والمستضيئة بنور الحق تعالى يقول سبحانه تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٣].

٥- الإنسان:

وعبر أيضا بلفظ " الكلمة الطيبة" عن الانسان المتخلق بالآداب والفضائل، والمنزه عن الرذائل، كما جاء في قوله تعالى:

﴿أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٤].

١ـ البقرة٢: ٣٧.

٢ـ البقرة ٢: ١٢٤.

٣ـ فاطر٣٥: ١٠.

٤ـ ابراهيم ١٤: ٢٤-٢٥.

وعبر عن الإنسان أيضاً بقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[١].

إن ظهور كلمات الله يتحقق من خلال " كن الوجودية "، ونور " كن الوجودية " ثابت في كتاب الخلقة لكل كلمة، وفي مقابل كل كلمة هناك معنى يتناسب مع وجودها، فالكلمات التكوينية لها معان تكوينية، وكلمة وجود الانسان ـ الذي يمثل أفضل الموجودات وأشرف الكلمات ـ واقعة في طريق المعنى التكويني والتشريعي، ولكن كمال كرامة الانسان وفضيلته مرهونة بتطبيقه الأحكام التشريعية، وبعبارة أخرى: إن الطريق إلى تحقق إنسانية الإنسان، والجانب الملكوتي والإلهي لهذا الموجود منحصر بالإرتباط بالدين فقط، ويستحيل تحقق ذلك ـ بالمعنى الواقعي للإنسان- بإتباع برناج آخر.

والقرآن الكريم يصرح في آخر سورة يس:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢].

إلى موضوع وجود الكلمات وظهورها، أي الوجود وجميع شؤونه بواسطة كلمة «كن» التكوينية أو الوجودية، لأن وجود أي شيء يحتاج إلى إرادة، ومن خلال كلمة «كن» الوجودية يخرج ذلك الشيء إلى حيز الوجود.

فالشمس والقمر والنجوم هي كلمات تكوينية حقيقة، والحركة والإضاءة وانعكاس النور وتزويد الموجودات بالطاقة هي معاني تلك الكلمات.

١ـ آل عمران ٣: ٤٥.

٢ـ يس ٣٦: ٨٢.

وجميع البحار كلمات الله، وكل المنافع التي تهيئها للموجودات الحية هي معانيها وتفسيرها.

إن كل عمل ودور تقوم به حيوانات العالم جميعاً ـ التي يمثل كل واحد منها في موقعه ضرورة لازمة ـ في عالم الوجود الفسيح هو معناها، نعم هناك تناسب ما بين الصورة والمعنى،أو هناك علاقة بين الكلمة وترجمتها، فسبحان الله إن هذا لمثير للإعجاب!!

وإذا دققنا في النظام الدقيق الحاكم على أي كائن، وفي الآثار القيمة لكل كلمة، وأمعنا النظر بها، وبعبارة أخرى: لو تأملنا صورة كل موجود ومعناه من الناحية العقلية لوجدنا أن الكلمات هي مصدر هذا النبع الفياض، فالحكمة والعدالة والعلم اللامحدود في عالم لامحدود، حيث تشير كلمات كتاب الوجود ومعانيها إلى أن مؤلفها عالم، عادل، حكيم، وأن هذا المؤلف ـ بناءً لتعليمات الأنبياء والكتب السماوية ـ ليس هو إلا الله، يعني الذات المستجمعة لجميع صفات الكمال، وفي الحقيقة إن الصور والمعاني الموجودة في هذا العالم هي تجلي لصفات الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن تحقق جميع كلمات صفحة الوجود ومعانيها متوقف على إرادته المباشرة، ولا يملك أي مخلوق ذو شعور ترجمة نفسه، وفي الحقيقة إن الكلمات التكوينية وتحقق المعنى وظهور الآثار إجباري، وإن آثار تلك الكلمات ـ التي تتجلى بإرادة الحق ـ هي معناها.

وأما كلمة وجود الإنسان فقد اقتضت الإرادة الأزلية للحق أن تكون ترجمتها بيد الانسان نفسه ـ مع توفر عنصر الإختيار ـ وبالإستعانة بالدين وقوانين الوحي، وفي الحقيقة إن آثار انسانية الإنسان هي آثار صفات الله سبحانه وتعالى وصفاته الربوبية، وإن هذه الآثار قابلة للظهور والتجلي في ظل ارتباط الإنسان بقوانين

الوحي، وهي أعم من القرآن الكريم أو كلمات النبي ﷺ أو ثقافة الأئمة المعصومين عليهم السلام.

نعم إن كتاب وجود الإنسان هو أعلى كتاب في عالم الوجود، حيث دونت فيه أسمى معاني كلمات الله، والطريق الوحيد لإظهار معاني هذه الكلمات هو الدين.

ولا معنى للإنسان من دون الدين والانفصال عن تعاليم القرآن لا يعني إلا الحيوانية والسبعية والشر.

ولايوجد معنى لائق للإنسان من دون الوحي، ومن دون الإستعانة بالدين لا يكون قابلاً للترجمة ولا لائقاً لظهور الآثار الإلهية.

فما هي علة انتشار جميع هذا الظلم والفساد والجور والجريمة والرذيلة والخيانة في أنحاء الإرض؟

إنّ العلة في ذلك تكمن في أنّ الإنسان لم يلتزم ببرنامج الحق تعالى في ترجمة نفسه، والسبب في عدم ترجمة وجوده بالشكل الصحيح، هو جهله بحقيقة الإنسان وانسانيته، فهل لديه قابلية ترجمتها من دون معرفته "للكلمة"، مع العلم أن معرفة النفس هي مفتاح جميع الحقائق والواقعيات، كما جاء في التراث الإسلامي.

إن كتاب وجود الإنسان يتضمن كلمات من قبيل: لسان، عين، إذن، قلب، روح، يد، قدم، شهوة، ويجب على الإنسان أن يسعى ـ على ضوء الوحي ـ إلى الترجمة الحقيقية لهذه الكلمات. حيث يجب أن يعلم الجميع أن الله هو المترجم الوحيد لكتاب وجود الإنسان، ولا يوجد أحد قادر على ترجمة هذه الكلمات سواه، وبعبارة أخرى إن المنهج الإلهي هو الطريق الوحيد لتحقيق السعادة وحسن الحظ.

لقد عجزت الحضارة الغربية والشرقية ـ في جميع مراحلها ـ في تأمين أسباب

السعادة والراحة والرفاه للشعوب، بل إن كلا الحضارتين تتجهان نحو الفناء والزوال.

يقول أحد الخبراء العارفين بأوضاع العالم المعاصر:

«بحسب وجهة نظري فإنه ليس لدى أي من الحضارتين في الوضع الراهن أي استعداد أو قدرة لتأمين التربية الصحيحة، والسعادة الكاملة لإفراد البشر، لإنهما سلكا طريقي الإفراط والتفريط من عدة جهات، ولا سبيل للكمال من خلال الإفراط والتفريط، وبالتالي لا يمكنهما توجيه الناس نحو الكمال، ومع أن الحضارتين قد قدمتا خدمات عظيمة وجليلة إلا إنهما غير قادرتين ـ في الوقت الراهن ـ على أداء وظائفهما على النحو المطلوب؛ لفسادهما وخواء أسسهما إلى حد ما، ولأجل هذا فإنهما يأخذان بالبشرية إلى الهاوية والسقوط بدل إيصالها إلى واحة السعادة !!.

واليوم أصبحت الحضارة الشرقية كحوض ماء آسن كريه المنظر، وكذلك الحضارة الغربية فهي كحوض ماء ملوث عفن، مليئ بالجراثيم والسموم، فأصبح ساماً ومميتاً، وعليه يستحيل أن تكون لها اللياقة القدرة لتروي نبتة السعادة والكمال المعنوي للبشرية»[1].

فبيان الإمام الصادق عليه السلام لحالات القلب في الرواية، وأنها كحالات الكلمة الإعرابية مبني على الحقيقة والواقع، وليس تشبيهاً فقط، بل إن جميع أعضاء الإنسان من الجوارح والأجزاء الظاهرية منه والباطنية هي كلمة، وهذه الكلمات تصبح ذات معنى صحيح إذا سلكت التوجه الديني وقبلته، أما إذا اختارت طريقاً غير طريق الثقافة الإلهية في إعراب هذه الكلمات فإن مصيرها سيكون الإنحراف، ولن يصبح لها معنى آخر غير معاني الشر والضرر والفساد والخسارة

١ـ الأصول الأساسية لفنون التربية: ٢٠٦.

والدناءة والظلم العدوان والخيانة.

والقرآن الكريم يؤكد إن الثقافة غير الإلهية التي تريد جذب وجود الإنسان لإعراب كلمات كتابه من الأعضاء والجوارح ستصنع منه كلمة خبيثة، لأن الثقافة غير الإلهية لا أساس لها، والإنسان المعرب بتلك الثقافة لن يرى السعادة.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

﴿وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[١].

قرأنا في السطور السابقة إن الله سبحانه وتعالى عرّف النبي عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله، وأنّ ترجمة هذه الكلمة ـ بسبب الاتصال بالثقافة الإلهية بناءً على نقل القرآن الكريم ـ لبني اسرائيل على هذا النحو:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيّاً * وَ جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَ بَرّاً بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[٢].

وفي الحقيقة العبودية الخالصة هي في الإتصال بالوحي، والوجود المبارك لأهل هذا العالم هو بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإحسان إلى الوالدين، وهذا المعنى لعيسى المسيح عليه السلام، وترجمة هذه الكلمة الطاهرة لايتحقق إلا

١ـ ابراهيم ١٤: ٢٦.

٢ـ مريم ١٩: ٣٠ ـ٣٤.

ضمن الحدود والضوابط الإلهية.

الترجمة الصحيحة لكلمات وجود الإنسان:

ينقل المرحوم الشيخ الكليني رحمه الله في كتابه الشريف «الكافي» حديثاً مفصلاً وذا قيمة عالية عن الإمام الصادق عليه السلام يتحدث فيه عن جميع الأعضاء والجوارح، ويذكر وظائف كل واحد منها من القرآن الكريم[١]، وفي الحقيقة يمكن القول أن الإمام عليه السلام وهو الحق الناطق، قد بين للإنسان الطريق للترجمة الصحيحة لجميع الأعضاء والجوارح. وبهذه الأعضاء والجوارح يهتدي الإنسان إلى ميدان المعاني السماوية، وبالتالي ظهور آثار خليفة الله، الذي ابدعه في أحسن تقويم. ويكون موضعاً لتجلي المعاني العرشية والأنوار الملكوتية.

فالبشر الذين ترجموا وفسّروا كلمات وجودهم من خلال الإتصال بالأوامر الإلهية هم أهل المعنى، وغيرهم لا معنى لهم، أو أن معانيهم لا تخرج عن دائرة الحيوانية والانحطاط.

وإلا فما هو المقصود من قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٢].

أو قوله تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٣]؟

غير توجيه الخطاب لأولئك الذين قيدوا أنفسهم وأسروها في الدائرة

١ـ الكافي ٢: ٣٣، ح ١.

٢ـ الأعراف ٧: ١٧٩.

٣ـ الأنفال ٨: ٢٢.

الحيوانية، ولا يستحق أن ينادوا إلا بـ حيوان، كافر، فاسق، شرير، ظالم، باغي، خائن، بخيل، متكبر، أناني، ولا نصيب لهؤلاء في الإنسانية غير هذه المعاني.

مراتب الإيمان:

أما متن الحديث: يقول أبو عمر الزبيري: قلتُ لأبي عبدالله الصادقعليه السلام : أيها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: «ما لا يقبلُ اللهُ شيئاً إلا بِه»، قلتُ: وما هو؟

قَالَعليه السلام: «الإيْمَانُ بالله الّذِي لا إلَهَ إلا هُوَ، أعلَى الأعْمَالِ دَرَجَةً، وَأشْرَفَهَا مَنْزِلَةً، وَأسْنَاهَا حَظّاً».

قُلتُ ألاَ تُخْبرْني عَن الإيْمَانِ، أقَوْلٌ هُوَ وَعَمَلٌ، أمْ قَوْلٌ بِلا عَمَلٍ؟

فَقَالَعليه السلام:«الإيْمَانُ عَمَلٌ كُلُّهُ وَالقَوْلُ بَعْضُ ذَلِكَ العَمَل بِفَرْضٍ مِنَ الله، بيِّنٌ فِي كِتَابهِ، وَاضِحٌ نُوْرُهُ، ثَابتَةٌ حُجَّتُهُ، يَشْهَدُ لَهُ بِهِ الكِتَابُ، وَيَدْعُو إلَيْهِ».

قلت: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه، قَالَ عليه السلام:

«الإيْمَانُ حَالاتٌ وَدَرَجَاتٌ وَطَبَقَاتٌ وَمَنازِلٌ، فَمِنْهُ التَّامُ المُنْتَهِي تَمَامُهُ، وَمِنْهُ النَّاقِصُ البَيِّنُ نُقْصَانُه، وَمِنْهُ الرَّاجِحُ الزَّائِدُ رجْحَانُه».

قلت: إن الايمان لَيَتِمُ وَيَنْقُصُ وَيَزِيْدُ؟ قالعليه السلام:«نعم».

قلت: كيف ذلك؟ قَالَعليه السلام: «لإنَّ الله تَبارَكَ وَتَعَالى فَرَضَ الإيمَانَ عَلى جَوَارِحِ ابن آدم وَقَسَّمَهُ عَلَيها وَفَرَّقَه فِيها، فَلَيْس مِنْ جَوَارِحِهِ جَارِحَةٌ إلا وَقَدْ وُكّلَتْ مِنَ الإيمَانِ بغَير مَا

وُكِلتْ بهِ أختَها، فَمِنها قَلْبُه الَذِي به يَعْقِلُ ويَفْقَهُ ويَفْهَمُ، وَهْوَ أَمِيرُ بَدَنهِ الَذِي لا تَرِدُّ الجَوَارِحُ ولا تَصدِرُ إلا عَنْ رَأيهِ وَأمْره، وَمِنْها عَيْنَاهُ اللّتَانِ يُبْصِرُ بهِمَا. وأُذُنَاهُ اللّتَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَيَدَاهُ اللّتَانِ يَبْطِشُ بِهِمَا، وَرِجْلاهُ اللّتَانِ يَمْشِي بِهِمَا، وفَرْجُه الَذي الباه مِنْ قَبْلِه، وَلِسَانه الَذي يَنْطِقُ بهِ، وَرَأسُهُ الَذِي فِيهِ وَجْهُهُ، فَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ جَارِحَةٌ إلا وَقَدْ وُكّلَتْ مِنَ الإيمَانِ بغَيْر مَا وُكّلَتْ بهِ أخْتَها بفَرْضٍ مِنَ الله تَبَارَكَ اسْمُهُ، يَنْطِقُ به الكتَابُ لَهَا وَيَشْهَدُ بهِ عَلَيْهَا».

«ففَرَضَ عَلَى القَلْبِ غيرَ مَا فَرَضَ عَلَى السَّمْعِ، وفَرَضَ عَلَى السَّمْعِ غَيْرَ مَا فَرَضَ عَلَى العَيْنَيْنِ، وفَرَضَ عَلَى العَيْنَين غَيْرَ مَا فَرَضَ عَلَى اللّسَانِ، وفَرَضَ عَلَى اللّسَانِ غيرَ مَا فَرَضَ عَلَى اليَدَيْن و فرض على اليدين غَيْرَ مَا فَرَضَ عَلَى الرِّجْلَيْنِ، وفَرَضَ عَلَى الرِّجْلَيْن غيرَ مَا فَرَضَ عَلَى الفَرْجِ وفَرَضَ عَلَى الفَرْجِ غَيْرَ مَا فَرَضَ عَلَى الوَجْه».

ايمان القلب:

فَأمَّا مَا فَرَضَ عَلَى القَلْبِ مِنَ الإيمَانِ: فَالإقْرَار وَالْمَعْرِفَة وَالعَقْد وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيم بَأنّ لا إلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، إلهاً وَاحِداً، لَمْ يَتّخِذْ صَاحِبَةً ولا وَلَداً، وَأنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه ﷺ وَالإقْرَار بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْد الله مِنْ نَبيّ أوْ كِتَاب،

فَذَلِك مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى القَلْبِ مِن الإقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ وَهْوَ عَمَلُهُ، وَهْوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَل:

﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾[1].

وَقَال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا بِأفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُم﴾[3].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[4].

فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْقَلْبِ مِن الإقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ وَهْوَ عَمَلُهُ، وَهْوَ رَأسُ الإيمَانِ.

إيمان اللسان:

وَفَرَضَ اللهُ عَلَى اللِّسَانِ الْقَوْلَ وَالتَّعْبِيرَ عَنْ الْقَلْبِ بِمَا عَقَدَ عَلَيهِ وَأَقَرَّ بِهِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

١ـ النحل ١٦: ١٠٦.

٢ـ الرعد ١٣: ٢٨.

٣ـ المائدة ٥: ٤١.

٤ـ البقرة ٢: ٢٨٤.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاس حُسْناً﴾[١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بالله وَمَا أنزلَ إلَيْنَا وَمَا أنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإلَهُنَا وَإلَهُكُمْ وَاحَدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢].

«فَهَذَا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى اللّسَانِ وَهْوَ عَمَلُهُ».

إيمان الأذن:

وَفَرَضَ عَلَى السَّمْعِ أنْ يَتَنَزْهَ عَن الإسْتِمَاعِ إلَى مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأنْ يُعْرِضَ عَمَّا لا يَحِلُّ لَهُ مِمَّا نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ وَالإصْغَاء إلَى مَا أسْخَطَ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ تعَالَى فِي ذَلِكَ:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزأ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضَوا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِهِ﴾[٣].

ثُمَّ اسْتَثْنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَوْضِعَ النِّسْيَانِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

١ـ البقرة ٢: ٨٣

٢ـ العنكبوت٢٩: ٤٦.

٣ـ النساء ٤: ١٤٠.

٤ـ الأنعام ٦: ٦٨.

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِيْنَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولَئِكَ الَّذِيْنَ هَدَاهُمْ اللهُ وَ أولَئِكَ هُمْ أولُوْا الأَلْبَابِ﴾[١].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ * وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ * وَالَّذِيْنَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُوْنَ﴾[٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوْا اللَّغْوِ أَعْرَضُوْا عَنْهُ وَقَالُوْا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوْا بِاللَّغْوِ مَرُّوْا كِرَامًا﴾[٤].

فَهَذَا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى السَّمْعِ مِنْ الإِيمَانِ أَنْ لا يَصْغِي إِلَى مَا لا يَحِلُّ لَهُ وَهْوَ عَمَلُهُ، وَهْوَ مِن الإِيمَانِ.

إيمان العين:

وَفَرَضَ عَلَى الْبَصَرِ أَنْ لا يَنْظُرْ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُعْرِضَ

١ـ الزمر ٣٩: ١٨.

٢ـ المؤمنون ٢٣: ١-٤.

٣ـ القصص ٢٨: ٥٥.

٤ـ الفرقان ٢٥: ٧٢.

عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِمَّا لا يَحِلُّ لَهُ وَهْوَ عَمَلُهُ، وَهْوَ مِنْ الإِيمَانِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوْا فُرُوجَهُمْ﴾[١].

فَنَهَاهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى عَوْرَاتِهِمْ، وَأَنْ يَنْظُرَ الْمَرْءُ إِلَى فَرْجِ أَخِيْهِ، وَيَحْفَظ فَرْجَهُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيهِ، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوْجَهُنَّ﴾[٢].

مِنْ أَنْ تَنْظُرَ إِحْدَاهُنَّ إِلَى فَرْجِ أُخْتِهَا، وَتَحْفَظَ فَرْجَهَا مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهَا، وقال ﷺ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ فَهْوَ مِن الْزِّنَا إلا هَذِهِ الآيَة، فَإِنَّهَا مِن النَّظَرِ.

ثُمَّ نَظَمَ مَا فَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالسَّمْعِ والْبَصرِ فِي آيَةٍ أُخْرَى فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُوْدُكُمْ﴾[٣].

يَعْنِي بِالْجُلُودِ: الْفُرُوْج والأَفْخَاذ، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

١ـ النور ٢٤: ٣٠.

٢ـ النور ٢٤: ٣١.

٣ـ فصلت ٤١: ٢٢.

كُلُّ أولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُوْلا﴾[١].

فَهَذَا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى العَيْنَيْنِ مِنْ غَضِّ البَصَرَ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهْوَ عَمَلُهِمَا، وَهْوَ مِنْ الإيمَانِ.

إيمان اليدين والقدمين:

وَفَرَضَ اللهُ عَلَى اليَدَيْنِ أنْ لا يَبْطِشَ بهِمَا إلَى مَا حَرَّمَ اللهُ، وأنْ يَبْطِشَ بهِمَا إلَى مَا أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمَا مِنْ الصَّدَقَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيْلِ الله، وَالطَّهُورِ لِلصَّلاةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿يَا أيُّهَا الذِّيْنَ آمِنُوْا إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَأيْدِيكُمْ إلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوْا بِرُؤُوسِكُمْ وَأرْجِلِكُمْ إلَى الكَعْبَيْنِ﴾[٢].

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَإذَا لَقِيْتُمْ الّذِيْنَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرّقَابِ حَتَّى إذَا أثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإمَّا مِنَّا بَعْدُ وَإمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أوْزَارَهَا﴾[٣].

١ـ الإسراء ١٧: ٣٦.

٢ـ المائدة ٥: ٦.

٣ـ محمد ٤٧: ٤.

فَهَذَا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى الْيَدَيْنِ لإنَّ الضَّرْبَ مِنْ عِلاجِهِمَا.

وَفَرَضَ عَلَى الرِّجْلَيْن أنْ لا يَمْشِي بِهِمَا إِلَى شَئٍ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمِا الْمَشْيَ إِلَى مَا يُرْضَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فقال سبحانه:

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولا﴾[1].

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتُكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ﴾[2].

وَقَالَ فِيْمَا شَهِدَتْ الأيْدِي وَالأرْجُلُ عَلَى أَنْفُسِهِمَا وَعَلَى أَرْبَابِهِمَا مِنْ تَضْيِيعِهِمَا لِمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيْهِمَا:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُونَ﴾[3].

فَهَذَا أَيْضاً مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَى الْيَدَيْنِ وَعَلَى الرِّجْلَيْنِ وَهُوَ عَمَلُهُمَا وَهُوَ مِنْ الإيمَانِ.

١ـ الإسراء ١٧: ٣٧.

٢ـ لقمان ٣١: ١٩.

٣ـ يس ٣٦: ٦٥.

إيمان الوجه:

وَفَرَضَ عَلَى الْوَجْهِ السُّجُودِ لَهُ بِاللّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي مَوَاقِيتِ الصَّلاةِ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

فَهَذِهِ فَرِيْضَةٌ جَامِعَةٌ عَلَى الوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرجْلَيْنِ، وَقَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:

﴿وأنَّ المَسَاجِدَ لله فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أحَداً﴾[2].

وَقَالَ فِيْمَا فَرَضَ عَلَى الجَوَارِحِ مِنْ الطَّهُور وَالصَّلاةِ بِهَا، وَذَلِكَ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا صَرَفَ نَبِيَّهُ ﷺ إلَى الكَعْبَةِ عَنْ الْبَيْتِ المَقْدِسِ فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيْعَ إيمَانُكُمْ إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3].

فَسَمَّى الصَّلاةَ إيمَاناً.

فَمَنْ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَافِظَاً لِجَوَارِحِهِ، مُوفِيَاً كُلَّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ مَا فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُسْتَكْمِلاً لإيمَانهِ، وَهْوَ مِنْ أهْلِ الجَنْةِ. وَمَنْ خَانَ فِي شَئٍ مِنْهَا أوْ تَعَدَّى مَا

١ـ الحج ٢٢: ٧٧.

٢ـ الجن ٧٢: ١٨.

٣ـ البقرة ٢: ١٤٣.

أمَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِيْهَا لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ نَاقِص الإيْمَانِ.

ما معنى زيادة الإيمان؟:

قلت: قد فهمتُ نُقصَان الإيمان وتَمَامِه، فمن أين جاءت زيادته؟
فقال عليه السلام: «قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُوْرَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِم﴾[1].

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[2].

وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ وَاحِداً لا زِيَادَةَ فِيهِ وَلا نُقْصَانَ لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ عَلَى الآخَرِ، وَلَسْتَوَتْ النِّعَمُ فِيهِ، وَلَسْتَوَى النَّاسُ وَبَطَلَ التَّفْضِيلُ، وَلَكِنْ بِتَمَامِ الإِيمَانِ دَخَلَ الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّةَ، وَبالزِّيَادَةِ فِي الإِيمَانِ تَفَاضَلَ الْمُؤْمِنُونَ بِالدَّرَجَاتِ عِنْدَ الله، وَبِالنُّقْصَانِ دَخَلَ الْمُفْرِطُونَ النَّارَ»[3].

١ـ التوبة ٩: ١٢٤-١٢٥.

٢ـ الكهف ١٨: ١٣.

٣ـ الكافي ٢: ٣٣، ح١.

نعم إن كلمة وجود الإنسان تكون ذات معنى صحيح إذا آمنت بالله وطبقت الأحكام الإلهية، وعملت الأعضاء والجوارح بوظائفها، وبها يصبح الإنسان منبعاً للخير والبركة.

التأديب الإلهي:

يستعرض الحق تعالى لأبناء آدم عليه السلام من خلال الأنبياء الإلهيين مجموعة من المسائل المتعلقة بتربية الإنسان، والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله هو أفضل المترجمين للأدب الإلهي، حيث ينقل الإمام الباقر عليه السلام قول النبي صلى الله عليه وآله:

«أدَّبَنِي رَبِّي»[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«رسول الله صلى الله عليه وآله أدبني»[2].

فالإنسان هو كلمة الله كما جاء في القرآن الكريم، والأدب فقط هو الذي يحفظ العلاقة المعنوية بين هذه الكلمة والله. وإذا لم يرع الإنسان الأدب الإلهي في جميع شؤون حياته فإنه سيتحول تدريجياً إلى كلمة الشيطان، وسيصبح موجوداً شريراً.

التأدب مع الله:

يجب على الإنسان عقلاً وشرعاً التأدب مع الله سبحانه وتعالى، والتأدب مع

١ـ مستدرك الوسائل ٨: ٣٩٧، ح ٩٧٨٥.

٢ـ تحفة العقول: ١٧.

أوامره ونواهيه، وتأدب الإنسان مع ربه يتحقق بعدم خروج الأعضاء والجوارح في عملها عن دائرة رضا الحق تعالى.

فأدب اللسان بالإنشغال بذكر الله سبحانه وتعالى دائماً، وأن لا يتكلم إلا بما فيه الخير والصلاح والموعظة والفلاح لإخوانه المؤمنين. وتجنب الحديث بما يؤذي أهل الإيمان.

فاللسان هو الكاشف عن القلب، وهومفتاح الخير والشر، فعلى الإنسان الذي يسعى لإصلاح القلب أن يحفظ لسانه، ويصونه عن اللغو في الحديث، لإن اللسان يستر عيوب الجهال، ويزين أهل العلم والحكماء.

وأدب الأذن في التجنب عن الإستماع للغيبة والنميمة، والكلام المنكر. واستعمالها في الإستماع إلى ذكر الله والقول الحسن والموعظة والفضيلة، والكلام المفيد.

وأدب العين بغض البصر عن محارم الناس وعيوبهم، وعن كل منكر وقبيح، فمن لا يحفظ نظراته فستكون عليه حسرة دائماً. ويجب أن تكون نظرات العين نظرات عبرة واستدلال، لإكتشاف عظمة صنع الخالق وجلاله، ونيل محبته.

وأدب القلب في الإجتناب عن الوسوسة، وخطور المسائل التافهة، وملازمة الحقائق والفضائل المحمودة والمجالس المفيدة، والتفكر في نعم الحق تعالى وعجائب خلقته، وحسن الظن بالخالق المحبوب، وبجميع المسلمين، واجتناب الغلّ والغش والحسد والخيانة وسوء الإعتقاد.

وأدب اليدين بفعل الخير والإحسان لأهل الإيمان، وتقديم العون لهم، واجتناب إلحاق الأذى بهم أو إنزال الضرر عليهم.

وأدب القدمين بسلوك طريق إصلاح النفس، وإصلاح أهل الإيمان، وتجنب

سلوك طريق التكبر والتباهي والإفتخار على الآخرين، وأن لا يكون في طريق الإعانة على المعصية.

«فَرَقْعُ القَلْبِ في ذِكْرِ اللّهِ»

معنى الذكر:

إن المعنى الواقعي للذكر هو معرفة النفس ومعرفة الله ومعرفة الكون، إضافة إلى المعرفة الحقيقية للعلاقة التي تربط الإنسان بالله وبالكون.

والذكر بهذا المعنى أمر باطني، وهو سر الإنسان، وفي الحقيقة إن هذا النوع من الذكر هو اشراق لنور الحق على قلب الإنسان. ويجب على العاشق اعداد المقدمات اللازمة، وتهيئة الظروف المناسبة لتجلي هذا النور الجامع لكلّ الحقائق والواقعيات.

حقيقية الذكر:

ويجب لإدراك حقيقة الذكر السير والحركة من الظاهر إلى الباطن، وهذه الحركة هي عبارة: عن الذكر اللساني مع التوجه القلبي، حتى يستقر معنى الذكر في عرش القلب، ويصل الإنسان الى مرحلة لا يرى فيها سوى الله، ولا يقوم إلا لله، وليس له وجهة سوى الحق تعالى.

إن تكرار الكلمة الطيبة - التي هي من أهم الأذكار اللسانية - لاقيمة لها من دون التوجه القلبي، لأن الذكر بدون التوجه القلبي يصبح لقلقة لسان كالببغاء

التي تكرر ما سمعته، فتكرار الكلمة الطيبة ـ المشتملة على النفي والإثبات ـ على اللسان مع التوجه القلبي تزيل جميع الحجب والموانع، وتوصل الإنسان إلى إدراك حقيقة التوحيد، لينال مقام الفناء في الله، والبقاء بالله.

يقول أحد العرفاء العظام:

أنت المولّه لي لا الذكر ولّهني حاشا لقلبي أن يعلّق به ذكري

الذكر واسطة يحجبك عن نظري إذا توشّحه من خاطري فكري

وخلاصة قول الائمة الأطهار عليهم السلام في باب الذكر: أنه يجب على العبد مع تكرار الذكر اللساني أن يستضيئ القلب بنور حقيقة الذكر، ويبذل جهده لإدراك مفهوم الذكر، حتى ينتقل من القول والذكر اللفظي إلى حقيقة الذكر وهو الله سبحانه وتعالى، وما لم يحصل هذا التوجه القلبي للسالك لن يكون من الذاكرين.

الذكر غاية العبادات:

يقول صاحب كتاب «كيمياء السعادة» في الركن الأول:

إعلم إن غاية جميع العبادات هو ذكر الحق تعالى، لأن عماد الإنسان المسلم الصّلاة والغاية من الصلاة ذكر الحق سبحانه وتعالى، حيث يقول في محكم كتابه الكريم:

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أكْبَرُ﴾[١].

وقراءة القرآن الكريم أفضل العبادات ذلك أنّ كلام الحق تعالى مُذكّر، وجميع الأسباب تعود إلى ذكر الحق سبحانه وتعالى.

١ـ العنكبوت ٢٩: ٤٥.

والغاية من الصوم كسر الشهوات حتى يخلص القلب منها ويصفو من حبائلها، ويصبح محلاً وقراراً للذكر، لأن القلب مرعى للشهوات، وبدون هذا الخلوص لا يصبح للذكر معنى، ولا يترك فيه أثراً.

والمقصود من الحج ـ وهو زيارة بيت الله الحرام ـ ذكر الله وتهييج الشوق للقائه.

إذن فالذكر هو سر العبادات ولبابها، بل إن أصل الإسلام هو كلمة "لا إله إلا الله" وهي عين الذكر، وجميع العبادات الأخرى هي تأكيد لهذا الذكر. وإن ثمرة ذكرك لله هو ذكر الله لك، وما أعظمها من ثمرة !! ولأجل هذا قال الله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١].

ويتحقق هذا بكثرة الذكر والدوام عليه، وإلا لن يتحقق الفلاح، قال تعالى:

﴿واذْكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

شروط الذكر:

يوالي أهل السلوك أهمية خاصة للذكر، حيث وضعوا له شروطاً عدة تكشف عن أهميته، وهو من أفضل الطرق للتأثير على القوى الفكرية والعقلية، وتلقين النفس، واعداد الذهن، وايجاد ملكة التوجه الكامل، وجمع القوى النفسية لتحقيق الغاية من السير في المقامات والأحول.

فالذكر يعطي الإطمئنان للسالك، ويورثه اليقين، ويهيئه ويعده لمشاهدة الحق تعالى لأنها الغاية المطلوبة والمقصود النهائي.

١ـ البقرة ٢: ١٥٢.

٢ـ الجمعة ٦٢: ١٠.

ومن جملة الشروط: توجه الذاكر لما يتلفظ به من ذكر، بحيث يركز جميع قواه الروحية والنفسية لفهم تلك الكلمة أو العبارة وادراكها، وينشغل عما سواها، فلا يسمع ولا يبصر ولايشعر بشيء غيرها.

وهذا النوع من الذكر هو المقصود في القرآن الكريم.

مراتب الذكر:

ذكروا للذكر مراتب وأحوال، وبينوا ما تتميز به كل مرتبة من تلك المراتب:

الأولى: الذكر العام، وفائدته ابعاد الغفلة، فالسالك الذي يبعد الغفلة عن نفسه يصبح ذاكراً ولو كان الذكر بلا تلفظ صامتاً.

الثانية: الذكر الخاص، والذكر في هذا المقام يُزيل حجاب العقل والتميز، ويتوجه بكلّ قلبه للحق تعالى.

الثالثة: الذكر الأخص وهي مرحلة فناء الذاكر، فالذاكر يُفني نفسه ويبقى بالحق تعالى. وفي هذه المرحلة ينشغل الذاكر بتمام وجوده في تحقيق مراد المحبوب، ولا شك أن الذكر الذي تحث عليه الآيات القرآنية والروايات الإسلامية هو هذا الذكر.

فَعَنْ أَبِي عَبْدَالله الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «مِنْ أَشَدّ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ ذِكْرُ اللهِ كَثِيراً، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: لا أَعْنِي سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ، وإِنْ كَانَ مِئَةَ مَرّةٍ، وَلَكِنْ ذِكْرُ اللهِ عِنْدَ مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا»[1].

١ـ الكافي ٢: ٨٠، باب اجتناب المحارم ح ٤.

معاني الذكر في كتاب الله:

١- القرآن المجيد:

جا ءفي بعض المواضع كلمة "الذكر" بمعنى القرآن المجيد، والقرآن هو المذكر لحلال الله وحرامه، وأوامره تبعث على السعادة، ويصنع من البشر أناساً ربانيين. فالقرآن أفضل وسيلة لهداية الإنسان، والضامن لخيرات الدنيا والآخرة. والقرآن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الذلة إلى العزة، ومن المرض إلى السلامة، ومن الإنحراف إلى الإستقامة والفلاح. والقرآن شفاء لجميع الأمراض الروحية والفكرية، وهو نور ـ لا ينطفئ أبداً ـ يضيئ للإنسان درب الحياة :

﴿أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾[١].

أي جاء لينجيكم من عذاب الدنيا وأهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَاأيُّهَا الّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٢].

﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣].

﴿وَأنْزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤].

١ـ الأعراف ٧: ٦٣.

٢ـ الحجر ١٥: ٦.

٣ـ الحجر ١٥: ٩.

٤ـ النحل ١٦: ٤٤.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُوْنَ﴾[١].

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٢].

﴿ءأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾[٣].

﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِالْذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[٤].

﴿إِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوْا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوْا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[٥].

فيجب القول عند ملاحظة هذه المجموعة من آيات القرآن الكريم: القلب المشغول بكتاب الله، والقلب المستظيئ بنور القرآن الكريم، والقلب الذي ورد ميدان الذكر واستعان بالقرآن في معالجة أمراضه، والقلب الذي استقر في المكان الرفيع ـ وهل هناك مكان أرفع من مكانة القرآن المجيد المعنوية؟ـ وملاحظة العبارة الموجودة في الحديث الشريف:«فَرَفَعَ الْقَلْبَ فِي ذِكْرِ الله» نجد أن المكان الرفيع مرتبة للقلب، وهي من نتائج الإستفادة من القرآن.

فالقرآن المجيد مصدر لتسامي القلب ورفعته، وموعظة للنفس، وقيمة للإنسان، وهناك رواية مهمة عن الإمام الباقرعليه السلام تشير إلى هذا المضمون تقول:

١ـ الأنبياء ٢١: ٥٠.

٢ـ يس ٣٦: ١١.

٣ـ ص ٣٨: ٨.

٤ـ فصلت ٤١: ٤١.

٥ـ القلم ٦٨: ٥١.

«قُرّاء القُرْآنِ ثلاثَةٌ: رَجُلٌ قرَأَ القُرْآنَ فاتَّخذَهُ بضَاعَةً واسْتَدَرَّ بهِ المُلُوكَ، واسْتَطَال بهِ عَلَى النّاسِ.

ورَجُلٌ قرَأ القُرْآنَ وحفَظ حُرُوفَهُ، وضَيَّعَ حُدُودَهُ، وأقَامَهُ إقَامَةَ القدحِ، فَلا كَثَّرَ اللهُ هَؤُلاءِ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ.

ورَجُلٌ قَرَأ القُرْآنَ فوَضَعَ دَوَاءَ القُرْآنِ عَلَى دَاء قَلْبِهِ، فَأَسْهَرَ بهِ لَيْلَهُ، وأظْمَأَ بهِ نَهارَهُ، وقَامَ بهِ في مَسَاجِدِهِ، وتَجَافَى بهِ عَنْ فِرَاشِهِ، فَبأولئكَ يَدْفَعُ اللهُ العَزِيزُالجَبَّارُ البَلاءَ، وبأولئكَ يديل[1] اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ الأعْدَاءِ، وبأولَئكَ يُنَزِّلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْغَيْثَ مِنَ السَّماءِ، فَوَاللهِ لِهَؤُلاءِ فِي الْقُرْآنِ أعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الأحْمَرِ»[2].

٢- التوجه القلبي والروحي:

وقد جاءت كلمة "الذكر" في مواضع أخرى من القرآن المجيد بمعنى الوعي القلبي والروحي للإنسان في مقابل الحق تعالى. وهذا الوعي هو أساس التربية والكمال، وعلة قبول الأوامر والنواهي الإلهية.

إنّ هذا الوعي يعنى أن يكون العبد في محضر الله سبحانه وتعالى في جميع الأوقات واللحظات، ولا يخلو مكان من الحق تعالى.

والانتباه إلى أن حياة الإنسان وجميع الموجودات مرهونة بإرادته، ، وأن وجود النعم المعنوية والمادية كلها لأجل أن يسعى الإنسان للتقرب نحو الحق تعالى.

١ـ أدال الله بني فلان من عدوهم أي جعل الكرة لهم عليهم.

٢ـ الكافي ٢: ٦٢٧ باب النوادر، ح ١.

وادراك أن معصية المحبوب ومخالفته مهما صغرت فهي كبيرة وعظيمة.

والانتباه إلى أن العبد وجميع ما في يده ملك للمولى ولإجل المولى ومن المولى «العبد وما في يده كان لمولاه»[١].

والانتباه إلى أن الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار حساب وعقاب، وعاقبة المطيع دخول الجنة، ومصير العاصي ورود النار.

وهذا النوع من الوعي وظيفة القلب وجهاده، ورفعة القلب وسموه وعظمته مرهونة لهذا الادراك، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«فَرَفْعُ الْقَلْبِ فِي ذِكْرِ الله».

ذكر الله يعني أن يسير الإنسان في طريق العبادة والسعادة، ولا يلوث حياته بآثام المعصية.

ذكر الله يدفع الإنسان لتقدير النعمة، ويبعده عن الهوى والهوس، ويطرد الشيطان والشيطنة عن حياته.

وقد جاء هذا المعنى للذكر في موارد عديدة نشير إلى بعضها:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُوْلِ الله أسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيْراً﴾[٢].

﴿وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوْا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرْ الذُّنُوبَ إلا الله وَلَمْ يَصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوْا وَهَمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

١ـ وسائل الشيعة ٢٣: ٤٧ـ ٤٩.

٢ـ الأحزاب ٣٣: ٢١.

٣ـ آل عمران ٣: ١٣٥.

﴿إلا الّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوْا الله كَثِيْراً﴾[١].

﴿فَاذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوْا لِي وَلا تَكْفُرُوْنِ﴾[٢].

﴿الّذِين يَذْكُرُوْنَ الله قِياماً وقُعُوداً وَعَلَى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣].

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِفْيَةً وَدُوْنَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٤].

﴿الّذِيْنَ آمَنُوْا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٥].

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإقَامِ الصَّلاةِ وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُوْنَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيْهِ الْقُلُوْبُ وَالأَبْصَارُ﴾[٦].

﴿أَلَمْ يَأنِ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله﴾[٧].

١ـ الشعراء ٢٦: ٢٢٧.

٢ـ البقرة ٢: ١٥٢.

٣ـ آل عمران ٣: ١٩١.

٤ـ الأعراف ٧: ٢٠٥.

٥ـ الرعد ١٣: ٢٨.

٦ـ النور ٢٤: ٣٧.

٧ـ الحديد ٥٧: ١٦.

نعم إن هذا الذكر وهذا الوعي في أنّ الله هو الذي يحفظ الإنسان في جادة العبادة الحقيقية، ويصونه عن الرجس والدنس، ويأخذه إلى طريق الرشد والكمال، ليصنع من هذا الكائن الترابي وجوداً عرشياً وإلهياً، وهذا الذكر والهذا الوعي هو الملاك في تقييم القلب، «فَرَفَعَ الْقَلْبَ فِي ذِكْرِ الله».

«وَفَتْحُ الْقَلبِ في الرِّضا عن اللّهِ»

أي أن فتح القلب يكون بالرضا عن الله في جميع الحالات، في الفقر والغنى، في الصحة والمرض، والصبر في الرخاء والشدة، وشكر الله فتح للقلب.

ووجه تسمية مرتبة الرضا بفتح القلب واضح، لأن الفتح عبارة عن تسهيل الأمور وعدم تعقيدها، فالعبد في مرتبة الرضا يهوّن الأمور ويراها سهلةً يسيرةً، بل إن كل أمر يأتي من المحبوب ـ السعة والشدة، الغنى والفقر، الصحة والمرض.... – هو حسن في نظره.

فإذا عرف العبد خالقه سبحانه وتعالى من خلال الأنبياءعليهم السلام والكتب السماوية والأئمة الأطهارعليهم السلام؛ وعلم أن الله عادل حكيم، لا يريد لعباده سوى الخير والسعادة في جميع الشؤون والتدبيرات؛ فإنه يرضى بجميع ما قسمه الله له، وبهذا الرضا يكسب رضا الحق تعالى عنه. وقد جاء في المعارف الإلهية: "إنّ رضا الله سبحانه وتعالى عن العبد مرهون برضا العبد عن الله عزّ وجلّ".

معنى الرضا:

يجب الإشارة هنا إلى معنى الرضا في الثقافة الإسلامية حتى تتضح حقيقة عبارة «**فتح القلب**» في كلام الإمام الصادقعليه السلام.

الرضا من أعلى المراتب في السير والسلوك، أي لا مرتبة أخرى وراء الرضا، بل إنها المرحلة النهائية في التربية الأخلاقية والتهذيب النفسي.

فالسالك عندما يخرج من حبائل الشرك الخفي ببركة الكشف والشهود، ويصبح موحداً قلباً وروحاً، ويرى الحق تعالى هو منبع الخير والبركة، ويعتقد بأنه قادر وقاهر على كل الأشياء، وعالِمٌ بحاجات جميع الموجودات، وأنه لا يجب الخوف إلا منه، ولا يرتجى شيء من سواه، عندها يصل إلى مرتبة الرضا.

مع العلم أن مقتضى هذا الإعتقاد هو التوكل والإرتباط الحقيقي بالله سبحانه وتعالى، وكل ما تعمق توحيد العالم عنده استحكم التوكل فيه، لإنه إذا تحقق التوحيد والتوكل فلا شك في تحقق مرتبة الرضا، وليس له إلا الرضا بعطاء الله، والتسليم بما أتاه، والإعتقاد بأن كل ما واجهه السالك في الطريق هو خير له.

الرضا هو ثمرة الحب الحقيقي:

الرضا بقضاء الله هو ثمرة الحب الكامل لله سبحانه وتعالى، وهو عبارة عن تسليم العبد قلبه لله، والإذعان بتقدير الحق تعالى، والإعتقاد بأن المولى جلَّ شأنه لم يخطىء فيما قسمه لعبيده من الرزق وغيره، وأن قلم صنع الخالق لم يتجاوز حكمته، فلا يكون حسوداً

ولا يعترض على عطاء الله، وأن الخير كل الخير فيما وقع من تقديره سبحانه وتعالى، والرضا بكل ما يرد منه، حتى يرضى الله الخالق الحكيم عنه.

فحسن الظن، وانبساط الخاطر، وانشراح النفس وخلوها من الحرص والحسد، والهمة العالية للعارف، والمناعة الطبيعية، والتحرر من القيود، كلها ناشئة من صفة الرضا، وهذا ما نجده في الكلمات العرفانية لأهل المعرفة و العرفاء.

الرضا بقضاء الله يهب الروح زخماً من الطاقة والإستعداد لإدراك واكتشاف حقيقة ما يجري في الوجود، ولكن ليس بالمعنى التفصيلي كما هو الحال في علم الفيزياء أو الكيمياء أو علم التشريح، حيث البحث الدقيق حول الجزئيات وخصوصياتها وعلاقتها الحقيقية بما يحيط بها وبغيرها، بل حاله كحال الشخص الذي لا يعرف شيئاً عن تكنيك الموسيقى، فلا يعلم بأن الأدوات الموسيقية هي من الخشب أو من المعدن؟ ولكن ما يعلمه هو كون هذا العزف صادر من هذه الآلات. وهذا المعنى قابل للإدرك و ممتزج في أعماق روحه.

فالشخص الذي يدرك بأن هذه الآلة أداة موسيقية، ويرى يقيناً تناسب أجزائها وحسن تنظيمها، وكأنه هو من صنع تلك الآلة، وأنها غايته المطلوبة، بل إن روحه تعرف جميع مستوياتها، وأن تلك المستويات تعزف أنغاماً، فتصبح جميع إجزاء تلك الآلة المفترضة وتركيبها جزءً من روحه.

ولا يمكن إنكار هذه الحالة النفسية المدهشة بأي صورة كانت، ولكن في نهاية الأمر يحتاج هذا النوع من المعرفة لعالم الوجود إلى توضيح وبيان.

يعتقد بعضهم أن هذه الحالة ماهي إلا إزاحة الستار عن حقيقة الروح، لأن روح الإنسان تتضمن نموذجاً مجرداً عن عالم الوجود العيني، حيث تلقي تموجات الطبيعة والهوى والهوس الحيواني برداء سميك في وجه هذه الروح، وعندما يصل الرشد في الروح الإنسانية إلى حده الأعلى يزول هذا الرداء أو الحجاب، ويتجلى الوجود بتمامه في الروح.

ويقول فريق آخر: أن الموضوع ليس كما يقولون، بل إن الروح ومن خلال النشاط العقلي والوجداني تسعى لتحصيل الإرتباط بالله سبحانه وتعالى، كما هي الحال في المرآة عندما تصقل حيث تتجلى حقيقة الوجود بتمامه في هذه الروح.

معنى الرضا في كلام مولوي:

يقول مولوي في توضيح مسألة «الرضا»:

كان بهلول في محضر أحد الربانيين فسأله: ما حالك؟ عرفنا عن حالك؟

فأجاب الرجل الرباني: إنك تسأل عن حال شخص، يؤول العالم وما فيه لإرادته، وتتحرك جميع السيول والأنهار والنجوم المضيئة وفق مشيئته وإرادته، والحياة والموت مظهران للوجود مأموران كقادة رفيعي المستوى بالتحرك خطوة خطوة ونقطة نقطة، تسأل عن حال شخص محبوب في كل مكان، يرسل التهاني والتبريكات إلى أي مكان يشاء.

حيث يسير سالكو طريق الحق والحقيقة وفق أوامره، والمرضى في طريق تكاملهم محبوسون في قبضته، ولا يتحرك أي ضرس في فم شخص بدون رضاه وأوامره، ولا تسقط ورقة من شجرة على الأرض بدون رغبته، ولا يسلك أحد طريق الموت بدون إرادته.

يقول بهلول: أيها الرجل الرباني، إن ما تقوله صحيح، فهذا واضح من خلال عظمتك ومجدك، فأنت نفس الشخص الذي تتحدث عنه، بل أعلى منه بمئة مرة، ولكن بيِّن لي علة هذه الحالة الروحية المدهشة وكيف؟ حتى يعي الناس فضل المقربين وفضولهم، ويعوا وصفك لروح هذا الوضع وقلبه.

فلو فتح المتحدث الكامل مائدة الحقائق لوجد فيها جميع أنواع الغذاء، ولن يبقى ضيف بلا طعام، وكل شخص يأكل من الطعام بما يناسبه، كما هي الحال في القرآن الكريم فإن له سبعة بطون، وبإمكان الخواص والعوام أن ترتوي أرواحهم من هذه البطون السبعة بمقدار ما تستطيع.

وقال الرجل الإلهي: فكون الوجود تابع للأوامر الإلهية هي من الأمور اليقينية لدى عوام الناس، فلا تسقط ورقة شجر على الأرض بدون قضاء الله وحكمه، ولا تصل لقمة الطعام إلى الحلقوم مالم يأذن الله سبحانه وتعالى لها بذلك، وجميع التحركات والنشاطات والميول والرغبات التي تتحكم بالإنسان خاضعة لأوامر ذلك الإله غير المحتاج، ومن دون الأوامر الإلهية الأزلية النافذة لا يمكن لأي ذرة في الأرض أو في السماوات أن تتحرك أو تدور حول فلك.

من يستطيع أن يعد أغصان الأشجار؟ لا أحد؛ لأنه لا يمكن أن تحد الألفاظ باللامحدود أبداً. و خلاصة القول لا يمكن أن يتحقق شيء من دون أمر الله سبحانه وتعالى، وعندما يرضى العبد على قضاء مولاه تصبح جميع أوامر الحق تعالى تحت إرادته مسخرة ومقهورة كالعبد الذليل.

إن هذه العبودية لا تتحقق للإنسان عن طريق التكلّف ولا عن طريق الدوافع الضعيفة ولا بالمكافأة، بل تتحقق من خلال استبدال طبيعته الحيوانية الموجودة بطبيعة جديدة حاصلة على مقام العبودية، فهو لا يريد الحياة لنفسه بل خاضع لحكم الله سبحانه وتعالى الذي لا نظير له ولا شبيه. فهو يقبل بالمشيئة التي عينتها الإرادة الإلهية سواء كانت الحياة أو الموت. فحياته لله سبحانه وتعالى وليس للحصول على الكنز، وموته شوقاً لله جلّ وعلا وليس بسبب الخوف والعذاب أونتيجة المرض.

وايمانه وعباداته لله سبحانه وتعالى لأنه أهل للعبادة والإيمان لا لشيء آخر. فسعيه في عمله لا لأجل الوصول إلى الجنة والحصول على ملذاتها ونعيمها من أشجار وأنهار، وكذلك لا غرض له من وراء ترك الكفر والمعاصي إلا وجه الله

الأعظم، فسعادته في الرضا والتسليم في مقابل قضاء الله سبحانه وتعالى، فالرضا والتسليم عنده كالاستمتاع بتذوق الحلوى الطيبة.

فعبد تتزين روحه بهذه العظمة كيف لا يكون العالم تحت إمرته وسيطرته؟

فمذاق الموت عنده وموت أبنائه في سبيل الله وطبق مشيئته كمذاق الحلوى، وانتزاع أرواح فلذات أكباده في نظره هو من الوفاء، وأجساد ابنائه المسجاة أمامه كطبق من الفواكه قُطِفت من الشجرة، فإذا كان شخص بهذه الحالة فلا حاجة له إلى الدعاء"[1].

نعم إن لذة رضا سالك الطريق عن مولاه في أوامره وتقديراته وقضائه أطيب وألذّ من الفواكه بأنواعها. فالرضا عن الحق سبحانه وتعالى من أفضل حالات القلب الإنساني وأسماها، وفتح القلب وانبساطه يتحقق في حال الرضا « **وفتح القلب في الرضا عن الله**».

الرضا في كلام الفيض الكاشاني:

يقول الفيض الكاشاني هذه الشخصية العلمية والأخلاقية العظيمة حول تحصيل الرضا في كتابه «الحقائق»:[2]

كلام عاشق في باب الرضا:

الرضا سعادة، وهي ثمرة المحبة ومقتضى عدم الإنكار، سواء في الظاهر أو الباطن، وسواء في القلب أو في القول أو في الفعل.

١ـ تفسير ونقد وتحليل مثنوي: ١٧\ ٤١٩.

٢ـ الحقائق: ٣١٨.

وأهل الظاهر غايتهم كسب رضا الله حتى يأمنوا غضبه وسخطه وعذابه.

وأهل الحقيقة غايتهم كسب رضا الله، فيكون الموت والحياة والبقاء والفناء والعذاب والراحة والسعادة والشقاء عندهم سواء، فهم راضون به وإن كان مخالفاً لطبعهم، ولا يرجحون حالة على أخرى؛ لعلمهم بصدورها من الباري سبحانه وتعالى، ورسوخ محبة الحق تعالى في قلوبهم وطبيعتهم، فلا يطلبون عدا إرادته أو مراده أمراً آخر، فهم راضون بكل ما يقدره الله لهم.

ومن أصبح تساوي الحالات المذكورة عنده راسخاً في طبيعته، يكون ما وقع خارجاً عن مراده حقيقة، لهذا قالوا: أن كل ما وقع وجب، وكل ما وجب وقع.

و من يعترض على وقوع أمر من الأمور مهما كان، أو يخطر على باله اعتراض فلن يكون له نصيب من مرتبة الرضا.

و صاحب مرتبة الرضا في راحة وسرور دائم، إذ لا يوجد عنده أريد أو لا أريد، بل كلاهما لديه سواء ﴿وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

وقالوا: " الرضا بالقضاء باب الله الأعظم "[2].

وكل من يصل إلى مرتبة الرضا يصل إلى الجنة، وعندما ينظر إلى الأشياء فإنه بنور الرحمة الإلهية ينظر «المؤمن ينظر بنور الله»[3].

لأن الباري سبحانه وتعالى موجد جميع الموجودات، ويستحيل وجود أمر ينكر هذا المعنى، وكل موجود لا ينكر ذلك فهو عاشق له وراض عنه تماماً،

١ـ التوبة ٩: ٧٢.

٢ـ شرح الأسماء الحسنى ١: ٥١.

٣ـ الكافي ١: ٢١٨، باب المتوسمين الذين ذكرهم الله، حديث٣.

فلا يأسف على ما فاته ولا يفرح بما أتاه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[١].

بل إن كيان العاشق يحكي بأسره عن الرضا بمعشوقه لا غير.

والرضا يكون في قلب لا تشوبه ذرة نفاق، والسعادة بنزول البلاء، وترك الإختيار قبل القضاء، وعدم السخط بعد القضاء، فرضا المحبوب في عين الإبتلاء.

فالرضا هو سلب الإختيار، وعد البلاء من النعم، فيجب أن يوصلك الرضا إلى الحد الذي لو وضعت عينك اليمنى في الطبقة السابعة من جهنم أن لا يخطر على بالك: لماذا لم توضع عينك اليسرى.

فالرضا هو التسليم لمجريات الأحكام الإلهية:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري إلى خالقي

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

فيجب على الراضي أن يتحرر من المستقبل والماضي، ويرضى بما عليه من الحال، ومحب لكل ما ورد عليه، فكل ما يفعله المحبوب محبوب لديه.

والرضا هو الخروج والتحرر من رضا النفس والدخول في رضا الحق تعالى وذلك بالتسليم للأحكام الأزلية، وتفويض جميع الأمور ـ الكلية والجزئية ـ للمولى المقدر التقديرات والتدبيرات الأبدية من دون إعراض أو اعتراض.

واعلم أن الرضا ترك الإعتراض على أفعال وأقوال المحبوب بصفاء النفس وتسليمها للقضاء والقدر[٢].

الرضا في الروايات:

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «رَأسُ طَاعَةِ اللهِ الصَّبْرُ وَالرِّضَا عَنْ

١ـ لقمان: ١٧.

٢ـ آثار الدرويش محمد الطبسي: ٧٦.

الله فِيْمَا أَحَبَّ الْعَبْدُ أَوْ كَرِهَ، وَلا يَرْضَى عَبْدٌ عَنْ الله فِيْمَا أَحَبَّ إلا كَانَ خَيْراً لَهُ فِيْمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ»[١].

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ أَعْلَمَ النَّاس بالله أَرْضَاهُمْ بقَضَاء الله»[٢].

عَنْ أبي الْحَسَن الأوّل عليه السلام قَالَ: «ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه»[٣].

قَالَ أَبُو عَبْدِالله عليه السلام: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي الْمُؤْمِن لا أصْرِفُهُ فِي شَيء إلا جَعَلْتُهُ خَيْراً لَهُ، فَلْيَرْضَ بِقَضَائِي، وَلْيَصْبِرْ عَلَى بَلائِي، وَلْيَشْكُرْ نَعْمَائِي، أكْتُبهُ يَامُحَمَّدُ مِنَ الصّدّيقِيْنَ عِنْدِي»[٤].

يَقُوْلُ الإمَامُ الصَّادِق عليه السلام: «أَنَّ فِيمَا أَوْحَى الله عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى بنْ عِمْرَان عليه السلام: يَامُوسَى بنْ عِمْرَان: مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَحَبُّ إليَّ مِنْ عَبْدِي المُؤْمِن، فَإنّي إنّمَا ابْتَلِيهِ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأعَافِيهُ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَزْوِي عَنْهُ مَاهُوَ شَرٌّ لَهُ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنَا أعْلَمُ بِمَا يَصْلح عَلَيْهِ عَبْدِي، فَلْيَصْبرْ عَلَى بَلائِي، وَلَيَشْكُرْ نِعْمَائِي، وَلِيَرْضَ بِقَضَائِي، أَكْتُبُهُ فِي الصدّيقِين عِنْدِي،

١ـ الكافي ٢: ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح١. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٣، باب ١١٩ح٨.

٢ـ الكافي ٢: ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح٢. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٣، باب ١١٩ح١٩.

٣ـ الكافي ٢: ٦١، باب الرضا بالقضاء، ح٥. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٣، باب ١١٩ح٢١.

٤ـ الكافي ٢: ٦١، باب الرضا بالقضاء، ح٦. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٠، باب ١١٩ح١٣.

إذَا عَمِلَ بِرِضَائِي وَأَطَاعَ أَمْرِي»[١].

عن أبي عبدالله عليه السلام: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له، وإن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»[٢].

عَنْ أبي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «أحَقُّ خَلْقِ الله أنْ يُسَلِّمَ لِمَا قَضَى الله عَزّ وَجَلّ: مَنْ عَرفَ الله عَزّ وَجَلّ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْقَضَاء أتَى عَلَيْهِ القَضَاءُ وَعَظَّمَ اللهُ أجْرَهُ، وَمَنْ سَخِطَ الْقَضَاءَ مَضَى عَلَيْه القَضَى وَأحْبَطَ اللهُ أجْرَهُ»[٣].

قَالَ عَلِيُّ بنْ الْحُسَينِ عليه السلام: «الزُّهْدُ عَشْرَةُ أجْزَاء، أعْلَى دَرَجَةِ الزُّهْدِ أدْنَى دَرَجَةِ الْوَرَع، وَأعَلَى دَرَجَةِ الْوَرَع أدْنَى دَرَجَةِ الْيَقِين، وَأدْنَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ أدْنَى دَرَجَةِ الرّضَا»[٤].

لَقِيَ الْحَسَنُ بن عَلِي عليه السلام عَبْدَالله بنْ جَعْفَر فَقَالَ: «يَا عَبْدِ الله: كَيْفَ يَكُوْنُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِناً وَهْوَ يَسْخَطُ قِسْمَهُ وَيُحَقِّرُ مَنْزِلَتَهُ، وَالْحَاكِمُ عَلَيْهِ الله، وَأنَا الْضَامِنُ لِمَنْ لَمْ يَهْجُسْ فِي قَلْبِهِ إلا الرّضَا أنْ يَدْعُو الله فَيُسْتَجَابُ لَهُ»[٥].

---

١. الكافي ٢: ٦١، باب الرضا بالقضاء، ح٧. الأمالي للشيخ الطوسي: ٢٣٧، المجلس التاسع، ح١٣.

٢. الكافي ٢: ٦٢، باب الرضا بالقضاء، ح٨ بحار الأنوار ٦٩: ٣٣١، باب ١١٩ح١٥.

٣. الكافي ٢: ٦١، باب الرضا بالقضاء، ح٩. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٢، باب ١١٩ح١٦.

٤. الكافي ٢: ٦٢، باب الرضا بالقضاء، ح٦. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٤، باب ١١٩ح٢٢.

٥. الكافي ٢: ٦٢، باب الرضا بالقضاء، ح١١. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٥، باب ١١٩ح٢٣.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قُلْتُ لَهُ: «بِأَيِّ شَيْءٍ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ»؟ قَالَ عليه السلام: «بِالتَّسْلِيمِ للهِ، وَالرِّضَا فِيمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ سُرُورٍ أَوْ سَخَطٍ»[١].

عَنْ الْبِزَنْطِي قَالَ: سَمِعْتُ الرِّضَا عليه السلام يَقُوْلُ: «الإِيْمَانُ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِ اللهِ، وَالتَّفْوِيْضُ إِلَى اللهِ، قَالَ عَبْدٌ صَالِحٌ: وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ، فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا»[٢].

عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «ثِقْ بِاللهِ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ لَكَ تَكُنْ غَنِيّاً»[٣].

عَنْ الرِّضَا عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صلى الله عليه وآله: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي وَلَمْ يُؤمِنْ بِقَدَرِي فَلْيَلْتَمِسْ إِلهاً غَيْرِي»[٤].

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «الْعَبْدُ بَيْنَ ثَلاثَةٍ: بَلاءٌ وَقَضَاءٌ وَنِعْمَةٌ، فَعَلَيْهِ فِي الْبَلاءِ مِنَ اللهِ الصَّبْرُ فَرِيْضَةٌ، وَعَلَيْه فِي الْقَضَاءِ مِنَ اللهِ التَّسْلِيمُ فَرِيْضَةٌ، وَعَلَيْهِ فِي النِّعْمَةِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الشُّكْرُ فَرِيْضَةٌ»[٥].

١ـ الكافي ٢: ٦٢، باب الرضا بالقضاء، ح١٢. بحار الأنوار ٦٩: ٣٣٦، باب ١١٩ح٢٤.

٢ـ تحف العقول: ٤٤٥، بحار الأنوار ٦٨: ١٣٥، باب ٦٣ح١٣.

٣ـ الخصال ١: ١٦٩،ح٢٢٢. بحار الأنوار ٦٨: ١٣٥، باب ٣٦ح١٥.

٤ـ مستدرك الوسائل ٢: ٤١٠، باب وجوب الرضا بالقضاء، ح٢٣٢٦، بحار الأنوار ٦٨: ١٣٨، باب٣٦ح٢٥.

٥ـ الخصال ١: ٨٦ح١٧. بحار الأنوار٦٨: ٤٣،باب ٦١ح٤١.

قَالَ النَّبيُّ عليه السلام: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ جَمَعَ اللهُ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ: الرِّضَا بِالقَضَاءِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ البَلاءِ، وَالدُّعَاءُ عِنْدَ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ»[١].

وَرُوِيَ: أنَّ جَابِر بنْ عَبْدِ الله الأنْصَارِي رحمه الله ابْتُلِيَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ بِضَعْفِ الهَرَمِ وَالعجزِ، فَزَارَهُ الإمَامُ البَاقِرُ عليه السلام «فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: أنَا فِي حَالَةٍ أحِبُّ فِيْهَا الشَّيْخُوخَةَ عَلَى الشَّبَاب، وَالْمَرَضَ عَلَى الصِّحَةَ، وَالْمَوْتَ عَلَى الحَيَاةِ».

فَقَالَ البَاقِرُ عليه السلام: «أمَّا أنَا يَا جَابِرُ، فَإنْ جَعَلَنِي اللهُ شَيْخاً أحِبُّ الشَّيْخُوخَةَ، وَإنْ جَعَلَنِي شَاباً أحِبُّ الشَّبُوبَةَ، وَإنْ أمْرَضَنِي أحِبُّ المَرَضَ، وَإنْ شَفَانِي أحِبُّ الشِّفَاءَ وَالصِّحَةَ، وَإنْ أمَاتَنِي أحِبُّ المَوْتَ، وَإنْ أبْقَانِي أحِبُّ البَقَاء »[٢].

١ـ بحار الأنوار ٦٨: ١٥٦، باب ٦٣ ح ٧١.

٢ـ مسكن الفؤاد: ٨٢

«وَخَفْضُ الْقَلبِ في الإشْتِغَالِ بغَيْر اللّه »

الإشتغال بغير الله:

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الجملة: أن الإشتغال بغير الله هو السبب في خفض القلب وخسته، والإبتعاد عن التوجه إلى الله، وانقطاع القلب عن العبادة والطاعة، وصرف العمر كله في طلب الدنيا ومتاعها، وتحصيل الملذات الفانية.

فكل ما سوى الله فانٍ، وعندما نقارن هذه الأمور بالله سبحانه وتعالى من خلال العقل والوجدان نجد أن لا قيمة لها ولا اعتبار كلياً. وتنحصر قيمتها واعتبارها بكونها وسيلة للتقرب والوصول إلى مقام المحبوب سبحانه وتعالى.

وأن المقصود من ذم الدنيا وفنائها وخوائها المذكور في الكتب السماوية والمعارف الإلهية، وما قيل فيها على لسان العاشقين والسالكين وطلاب الحق والحقيقة هي دنيا الإنسان الغافل عن الله، ومن اصبحت الدنيا غايته في الحياة.

فإذا كان ارتباط الإنسان بالدنيا وملذاتها وزينتها بعيداً عن التخطيط الإلهي فهو ليس أكثر من حيوان، لأن وظيفة الحيوان هو الجمع والتفريق، جمع المواد المادية واضافتها إلى البدن، ثم استخدامها للحصول على القدرة والسلطة، اضافة إلى أن هناك قسم من المواد التي يجمعها في بدنه يقوم بتفريقها بشكل فضلات، إن هذا النوع من الغفلة عن الحق تعالى والإشتغال بغيره طول العمر دليل على

فساد القلب وخسته وخفضه.

وليعلم هؤلاء إن عاقبة المواد التي جمعوها من الدنيا الرجوع إليها في القبر، وأن قسماً من المواد التي جمعت على صورة الدينار والدرهم المتبقية من الإنسان تخرج عن دائرة ملكه بموته.

المنشغلين بغير الله في التعبير القرآني:

١- الأخسرين أعمالاً:

إذا أصبح ارتباط القلب ومحبته بالدنيا ومتاعها فقط فلن تكون للإنسان عاقبة حميدة وسعيدة، وسيكون وفق التعبير القرآني من الأخسرين أعمالاً:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1].

إن الإنسان الذي لا هم له سوى الجمع والتفريق هوعمل الحيوانات، لأن الجمع والأكل والإستفادة المادية منها أو بتعبير آخر جني المواد وإضافتها إلى البدن ثم تحويل ما جمعه بشكل عمل ونشاط أو بشكل فضلات سماد، ومصير هذا المنفصل عن ما جمع وما نقص من البدن هو القبر، فهل هناك عنوان آخر يطلق على هذا المجهود غير العمل الحيواني؟!.

٢- أصحاب الأعمال الباطلة:

تعرّض القرآن الكريم في آيات مهمة لهذه الطائفة من الناس وأعمالهم الحيوانية غير المفيدة، وأعمالهم المخالفة، حيث وصفت هذه الآيات عمل

١ـ الكهف ١٨: ١٠٣ـ ١٠٤.

هؤلاء بأنه فاقد للقيمة، وسعيهم الذي لا يتعدى العمل المادي في ضلال:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١].

﴿وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢].

﴿وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[٣].

٣- أصحاب القلوب المريضة:

يصف الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد هؤلاء الناس الذين لا هم لهم إلا الدنيا وملء البطون، وجمع المواد وتفريقها، أو بعبارة أخرى لا غاية لهم سوى انتاج السماد بأنهم مرضى، حيث يقول سبحانه:

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾[٤].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[٥].

وأصحاب القلوب المريضة لا يضيفون إلى فجورهم وفسقهم إلا فجوراً وفسقاً يقول القرآن الكريم عنهم:

١ـ محمد ٤٧: ١.

٢ـ محمد ٤٧: ٨.

٣ـ محمد ٤٧: ١٢.

٤ـ محمد ٤٧: ٢٠.

٥ـ محمد ٤٧: ٢٩.

﴿وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1].

وقد عد القرآن الكريم المنافقين والمفسدين من أصحاب القلوب المريضة، القلب الذي تمرد على الله ورغب في غير الحق تعالى من أعماق قلبه، ومال إليه ميلاً كثيراً فقال تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[2].

هؤلاء الناس يفرون من عمل الخير ويلوثون أنفسهم بأعمال الشيطان.

٤- كاتمو الشهادة:

الشهادة بالحق لأجل إنقاذ أهل البلاء والإفراج عنهم، وكاتمو الشهادة غير مستعدين لتقديم المساعدة للمحتاجين إليها حيث يقول القرآن الكريم:

﴿ وَ لاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[3].

٥- أهل النار:

يصف الله سبحانه وتعالى أصحاب القلوب المريضة بأهل النار حيث يقول تعالى:

﴿وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ

١ـ التوبة ٩: ١٢٥.

٢ـ البقرة ٢: ١٠.

٣ـ البقرة ٢: ٢٨٣.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

فهؤلاء ارتبطت قلوبهم بالدنيا واخلدوا إليها، وعشقوا غير الله، وأنسوا بالدنيا ومسائلها المادية، فاستوحشت قلوبهم ذكر الحق واشمأزت:

﴿وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2].

٦- أصحاب القلوب القاسية:

إن الذين ينشغلون بغير الله طوال فترة حياتهم يصفهم القرآن الكريم بأصحاب القلوب القاسية حيث يقول تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[3].

٧- أصحاب القلوب المقفلة:

القرآن الكريم يعبر عن قلوب الذين عصوا الله وتعلقوا بالدنيا بشكل خاطئ بالقلوب المختومة والمقفلة حيث يقول تعالى:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾[4].

١ـ الأعراف ٧: ١٧٩.

٢ـ الزمر ٣٩: ٤٥.

٣ـ البقرة ٢: ٧٤.

٤ـ البقرة ٢: ٧.

﴿أَ فَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

٨- أصحاب القلوب المرتابة:

إن الذين لاهم لهم إلا الأنس بالدنيا، تكون قلوبهم مبنية على الكفر والنفاق وملوثة بالريبة والشك، حيث يصفهم الله تعالى في كتابه:

﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

إن مشكلة هؤلاء المساكين إن قلوبهم تعلقت بالدنيا وزينتها، وغفلوا عن ذكر المحبوب، وعندما يرون الموت لا يجدون سوى صحيفة مليئة بالمعاصي والذنوب التي اقترفوها طوال عمرهم، وأنهم قد خسروا كل مالديهم.

إن عبدة الدنيا عندما يصلون إلى الموت لا يشعرون إلا بالحسرة والندامة، وفوات الفرصة لجبران ما مضى من عمرهم الفاني.

نعم إن انشغال القلب وبالتبع الأعضاء والجوارح بغير الله سبحانه وتعالى لا يحصد صاحبه منها إلا الحسرة والندامة والخسران لا غير، وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«وَخَفْضُ الْقَلبِ في الإشْتِغَالِ بغَيْرِ اللّهِ».

١ـ محمد ٤٧: ٢٤.

٢ـ التوبة ٩: ١١٠.

«وَوَقْفُ القَلبِ في الغَفْلَةِ عَن اللّهِ »

لقد عرفت مما مضى في روايات القسم الأول أن ذكر الله سبحانه وتعالى أعلى مراتب القلب، ويجب أن تعلم في هذا القسم أن الوقوف والتخلف وعدم التحرك هي في الغفلة عن ذكر الله جلّ وعلا.

وجه المناسبة بين الوقف والغفلة:

يقول الملا عبد الرازق اللاهيجي في شرح مختصره: أن وجه المناسبة بين الوقف والغفلة: هو أن الوقف بمعنى القطع، والغفلة عن الباري جل وعلا موجبة لقطع المنافع الدنيوية والأخروية أيضاً، ولأجل هذا فإن أكثر المنافع الدنيوية منوطة بذكر الله ـ بالمعنى الذي ذكرناه في القسم الأول ـ مثل طول العمر، وسعة الرزق، وغيرها كما هو مذكور في كتب الأدعية والأحاديث الشريفة.

كلام العلامة المجلسي حول حالات القلب:

لدى العلامة المجلسي رحمه الله بحث حول سلامة القلب ومرضه، أو بعبارة أخرى حول أن حياة القلب مرهونة بذكر الله، وموته بالغفلة عن ذكر الله، نورده بشكل مختصر:

وهو الذي إذا عَرفَه الانسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه. وهو الذي إذا جهله الانسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه. ومن جهل بقلبه فهو بغيره أجهل، وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فان الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن لا يوفقه لمشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين، وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين.

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيه:

﴿وَ لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1][2].

و بالتأمل في هذا البيان القيم الذي أفاده العلامة المجلسي رحمه الله يستنتج الإنسان أن الغفلة عن الحق ونسيان المولى ذي الجلال هي العلة الأساسية لتلوث القلب بالرذائل والرجس. فالقلب عندما يتلوث بالمعاصي يتدرج في إنهاء الحياة الإلهية، ويقع في مصيدة الشيطان حيث ينتهي به الأمر إلى الموت المعنوي، وإذا مات القلب انقطع عن الرحمة والعناية الإلهية، وعندها يبتلي القلب بالوقف. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في قوله:

«وَوَقْفُ الْقَلْبِ فِي الغَفْلَةِ عَنَ اللّه »

١ـ الحشر ٥٩: ١٩.

٢ـ بحار الأنوار ٦٧: ٣٤، باب ٤٤، ذيل حديث ١.

صلاح القلب وفساده في الروايات الإسلامية:

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «فِي الإنْسَانِ مُضْغَةً إذَا هِيَ سَلِمَتْ وَصَحَّتْ سَلِمَ بَهَا سَائِرُ الجَسَدِ، فَإذَا سَقُمَت سَقُمَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ وَفَسَدَ، وَهِيَ القَلْبُ»[١].

عَنِ النّبي ﷺ قَالَ: «إذَا طَابَ قَلْبُ الْمَرْءِ طَابَ جَسَدُهُ، وَإذَا خَبُثَ الْقَلْبُ خَبُثَ الْجَسَدُ»[٢].

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: شَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْب»[٣].

فِيْمَا أوْصَى بِهِ أمِيْرُ المُؤْمِنِيْن عليه السلام ابْنَهُ: «يَا بُنَيّ إنّ مِنَ البَلاء الْفَاقَةِ، وَأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَرَضُ الْبَدَنِ، وَأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَرَضُ الْقَلْبِ، وَإنّ مِن النّعَمِ سِعَةُ الْمَالِ، وَأفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ صِحَّةُ الْبَدَنِ، وَأفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ تَقْوَى الْقُلُوب»[٤].

عَنْ أبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ:«الْقُلُوْبُ ثَلاثَةٌ: قَلْبٌ مَنْكُوْسٌ لا يَعْثِرُ عَلَى شَيْءٍ مِن الخَيْرِ وَهْوَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ فِيْهِ نكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ فِيْهِ يَعْتَلِجَانِ فَمَا كَانَ مِنْهُ أقْوَى غَلَبَ عَلَيْهِ،

١ـ الخصال ١: ٣١. صلاح العبد...، ح١٠٩. مشكاة الأنوار: ٢٢٥، الفصل الثالث في ذكر القلب. بحار الأنوار ٦٧: ٥٠. باب ٤٤ح٤.

٢ـ الخصال ١: ٣١، حديث ١١٠. بحار الأنوار ٦٧: ٥٠، باب ٤٤ح٦.

٣ـ الأمالي للشيخ الصدوق: ٤٨٧، المجلس الرابع والسبعون، ح١. بحار الأنوار ٦٧: ٥١، باب ٤٤ح٧.

٤ـ الأمالي للشيخ الطوسي: ١٤٦. المجلس الخامس، حديث ٢٤٠. بحار الأنوار ٦٧: ٥١،باب ٤٤ح٨.

وَقَلْبٌ مَفْتُوحٌ فِيْهِ مِصْبَاحٌ يَزْهَرُ فَلا يُطْفأُ نُوْرُهُ إِلَى يوْمِ القِيَامَةِ وَهْوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنُ»[1].

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مِنْ عَلامَاتِ الشَّقَاء: جُمُوْدِ الْعَيْنِ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ، وَشِدَّةُ الْحِرْصِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْذَّنْب»[2].

عَنْ مُحَمَّدِ بنْ سِنَانٍ عَنْ بَعْضِ أصْحَابِهِ، عَنْ أبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ لِرَجُلٍ:«إعْلَمْ يَا فُلانُ: إنَّ مَنْزِلَةَ الْقَلْبِ مِن الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ الإمَامِ مِن النَّاسِ الْوَاجِبِ الطَّاعَةِ عَلَيْهِمْ، ألا تَرَى أنَّ جَمِيْعَ جَوَارِحِ الْجَسَدِ شُرْطَةٌ لِلقَلْبِ وَتَرَاجِمَةٌ لَهُ مُؤَدِّيَةٌ عَنْهُ، الأُذْنَانِ والْعَيْنَانِ وَالأنْفُ وَالْفَمُ وَالْيَدَانِ وَالرِّجْلانِ وَالْفَرْجُ، فَإنَّ الْقَلْبَ إذَا هَمَّ بِالنَّظَرِ فَتَحَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ، وَإذَا هَمَّ بِالإسْتِمَاعِ حَرَّكَ أُذُنَيْهِ، وَفَتَحَ مَسَامِعَهُ فَسَمِعَ، وَإذَا هَمَّ الْقَلْبُ بِالشَّمِّ اسْتَنشَقَ بِأنْفِهِ، فَأدَّى تِلْكَ الرَّائِحَةَ إلَى الْقَلْبِ، وَإذَا هَمَّ بِالنُّطْقِ تَكَلَّمَ بِاللِّسَانِ، وَإذَا هَمَّ بِالْحَرَكَةِ سَعَتْ الرِّجْلانِ، وَإذَا هَمَّ بِالشَّهْوَةِ تَحَرَّكَ الْذَّكَرُ، فَهَذِهِ كُلُّهَا مُؤَدِّيَةٌ عَن الْقَلْبِ بِالتَّحْرِيكِ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلإمَامِ أنْ يُطَاعَ لِلإمْرِ مِنْهُ»[3].

١ـ الكافي ٢: ٤٢٣، باب في ظلمة القلب المنافق،ح٣. بحار الأنوار ٦٧: ٥١،باب ٤٤ح٩.

٢ـ الخصال ١: ٢٤٢،حديث ٦٩، بحار الأنوار ٦٧: ٥٢، باب ٤٤ح١١.

٣ـ علل الشرائع ١: ١٠٩،باب علة الطبائع والشهوات، ح٨ بحار الأنوار ٥٨: ٢٤٩، باب ٤٦ح٢.

عَن الصَّادِقِ ﴿ع﴾ عَنْ حَكِيْمٍ أَنَّهُ قَالَ: «قَلْبُ الْكَافِرِ أَقْسَى مِن الْحَجَرِ»[١].

عَنْ عَلِيٍّ بنْ جَعْفَرٍ عَنْ أخِيْهِ عَنْ أَبِيْهِ ﴿ع﴾ قَالَ: «أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوْسَى ﴿ع﴾: يَا مُوْسَى لا تَفْرَحْ بِكَثْرَةِ الْمَالِ، وَلا تَدَعْ ذِكْرِي عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ تُنْسِي الْذُّنُوبَ، وَإِنَّ تَرْكَ ذِكْرِي يُقَسِّي الْقَلْبَ»[٢].

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﴿ص﴾: «نَاجَى دَاوُودُ رَبَّهُ فَقَالَ: إِلَهِي لِكُلِّ مَلِكٍ خِزَانَةٌ، فَأَيْنَ خِزَانَتُكَ؟

فَقَالَ جَلَّ جَلالُهُ: لِي خِزَانَةٌ أَعْظَمُ مِن الْعَرْشِ، وَأَوْسَعُ مِن الْكُرْسِي، وَأَطْيَبُ مِن الْجَنَّةِ، وَأَزْيَنُ مِن الْمَلَكُوتِ، أَرْضُهَا الْمَعْرِفَةُ، وَسَمَاءُها الإِيْمَانُ، وَشَمْسُهَا الشَّوْقُ، وَقَمَرُهَا الْمَحَبَّةُ، وَنُجُوْمُها الخَوَاطِرُ، وَسَحَابُهَا الْعَقْلُ، وَمَطَرُهَا الرَّحْمَةُ، وَأَثْمَارُهَا الطَّاعَةُ، وَثَمَرُهَا الحِكْمَةُ، وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٌ: العِلْمُ وَالحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالرِّضَا، ألا وَهْيَ الْقَلْبُ»[٣].

حفظ القلب من المخاطر:

وفق المنظور القرآني يجب أن يعلم الإنسان أن الدنيا دار تجارة ، ويعتبر نفسه

١ـ الأمالي للشيخ الصدوق: ٢٤٤، المجلس الثالث والأربعون،ح١. بحار الأنوار ٦٧: ٥٥، باب ٤٤ح١٥.

٢ـ الكافي ٢: ٤٩٧،باب ما يجب من ذكر الله...ح٧. بحار الأنوار ٦٧: ٥٥، باب ٤٤ح٢٣.

٣ـ عوالي اللآلي ١: ٢٤٩، الفصل العاشر،حديث٦. بحار الأنوار ٦٧: ٥٩، باب ٤٤ح٣٧.

تاجراً فيها، وأن المشتري هو الله سبحانه لا غير، وجنس البضاعة التي يتعامل معها هي القلب السليم فقط. وقد جاء في المأثور الإسلامي القيم بأن القلب السليم لا يضاهيه شيء في الأهمية والقيمة، وأن القلب السليم هو الشي الوحيد الذي تتم المعاملة عليه في الآخرة مع الله:

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَ لاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١].

نستطيع أن نستفيد من هذه الآية الشريفة أموراً مهمة، ومن جملتها أن القلب هو مركز النية، ومن خلال النية القلبية يتم الإرتباط بالعبادات، فهي بمنزلة الروح من الجسد لجميع أعمال الإنسان العبادية، وأن الملاك في قبول الأعمال وردها بحسب الآيات القرآنية والروايات هي النية القلبية، فإذا كانت عبادة الإنسان لله سبحانه وتعالى فقط فهي مهيأة للقبول مئة في المئة، وأما إذا كان أداء هذه العبادات لكسب رضا الآخرين وشدّ أنظارهم فيستحيل قبولها.

فعندما يقولون: أن القلب السليم هو الذي تتم عليه المعاملة يوم القيامة، نصل إلى نتيجة مفادها: أن قبول تمام العبادات مرهون بالنية الصحيحة للقلب، فإذا كانت نية القلب سليمة فهي مهيأة للمعاملة مع الله سبحانه، وعندما يُشْتَرَى القلب، فإنه في الحقيقة تُشْترى جميع الأعمال، وإن حرم القلب من رحمة الله فإن جميع أعمال الإنسان وعباداته وما عمَّره من عمران في الحقيقة تذهب هدراً، ولا مكان له إلا نار جهنم، ولا نصيب له إلا العذاب الإلهي الشديد.

وهناك حديث مهم عن الإمام الصادق عليه السلام منقول في الكتاب القيم "مصباح الشريعة" في الباب الرابع منه حول النية والإخلاص والرياء، وسيأتي شرحه

١ـ الشعراء ٢٦: ٨٨-٨٩

بشكل مفصل باذن الله عزوجل.

إنّ السعي لحفظ سلامة القلب ومعالجة أمراضه هو من أفضل العبادات وأكثرها ثواباً، فيجب على الإنسان الإلهي أن يتعرف على الأسباب المؤدية لسعادة القلب وشقائه، حتى يتجنب الأسباب المؤدية لشقاء القلب وفساده مهما أمكن ذلك، ويبذل كل جهده في سبيل تحصيل سعادة القلب وسروره. ومن المتيقن أن سعادة الإنسان في جميع جوانبه من خلال صلاح القلب، ، وأن شقاءه وضياعه بسبب مرض القلب.

في كلام الغزالي:

تطرّق الغزالي الى مجموعة من المطالب حول القلب لا يخلو ذكرها من الفائدة، مع تضمينها مجموعة من الأشعار لبعض العارفين، وكلمات بعض العظماء:

عليك بحفظ القلب وإصلاحه، وحسن النظر في ذلك وبذل المجهود، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً، وأكثرها أثراً، وأدقها أمراً، وأشقها إصلاحاً، وأذكر فيه خمسة أصول مقنعة:

علم الله سبحانه بالقلب:

الأصل الأول: قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1].

وقوله تعالى:

١ـ غافر ٤٠: ١٩.

﴿وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢].

كم ذكره وكرر ذكره في القرآن، وكفى باطلاع العليم الخبير تحذيراً وتهديداً للخواص من العباد، لإن المعاملة مع علام الغيوب خطيرة، فانظر ماذا يعلم من قلبك؟

القلب موضع نظر رب العالمين:

الأصل الثاني: قول رسول الله ﷺ:

«إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٣].

فالقلب إذن موضع نظر رب العالمين، فيا عجباً ممن يهتم بوجهه الذي موضع نظر الخلق، فيغسله وينظفه من الإقذار والأدناس، ويزينه بما أمكنه، لئلا يطلع مخلوق فيه على عيوب، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين، فيطهره ويزينه ويطيبه، كي لا يطّلع الرب جلّ وعلا على دنس فيه وشين وآفة وعيب، بل يهمله بفضائح وأقذار وقبائح، لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرؤا منه وطردوه.

١ـ الأحزاب ٣٣: ٥١.

٢ـ الأنفال ٨: ٤٣.

٣ـ مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٨٥. صحيح المسلم ٨: ١١، وقريب منه في المصادر الشيعية: جامع الأخبار: ١٠٠، الفصل السادس والخمسون في الإخلاص، بحار الأنوار ٦٧: ٢٤٨، باب ٥٤ح٢١.

القلب سيد البدن:

الأصل الثالث: أن القلب ملك مطاع ورئيس متبع، فالأعضاء كلها تبع له، فإذا صلح المتبوع صلح التّبع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية، يبين ذلك ما روي عن النبيﷺ أنه قال:

«إنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِي الْقَلْبُ»[١].

وإذا كان صلاح الكل في ذلك، وجب صرف العناية إليه.

القلب خزانة الجواهر:

الأصل الرابع: إن القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس، وكل معنى خطير، أولها العقل، وأجلها معرفة الله تعالى التي هي سبب سعادة الدارين، ثم البصائر التي بها التقدم والوجاهة عند الله تعالى، ثم النية الخالصة في الطاعات التي بها يتعلق ثواب الأبد، ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد، وسائر الأخلاق الشريفة والخصال الحميدة التي بها يحصل تفاضل الرجال،....، وحق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ وتصان عن الأدناس والآفات، وتُحرس وتُحرز من السراق والقطّاع، وتُكرم وتُجل بضروب الكرامات، لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس، ولا يظفر بها.

أحوال القلب الخمسة:

الأصل الخامس: إني تأملت حاله، فوجدت له خمسة أحوال، ليست لغيره

١ـ مسند أحمد بن حنبل ٤: ٢٧٠، منية المريد: ٢٢٤.

من أعضاء ابن ادم:

أحدها: أن العدو قاصد إليه، مقبل عليه بغوائله ملازم له، فإن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فهو منزل الإلهام والوسوسة، يقرعانه أبداً بالدعوتين كلاهما، الملك والشيطان.

الثاني: أن الشغل له أكثر، فإن الهوى والعقل كلاهما فيه، فهو معترك العسكرين: الهوى وجنوده والعقل وجنوده، فهو أبداً بين محاربتهما وتقاتلهما وتناقضهما، وحق للثغر أن يُحرس ويُحصن ولا يغفل عنه.

والثالث: أن العوارض له أكثر، فإن الخواطر له كالسهام، لا تزال تقع فيه، وكالمطر لا تزال تمطر عليه ليلاً ونهاراً، لا تنقطع ولا أنت تقدر على منعها فتمتنع، وليس بمنزلة العين التي بين جفنين، تُغمِّضُ وتستريح، أو تكون في موضع خال، أو ليل مظلم فتُكفى رؤيتها، أو اللسان الذي هو وراء الحجابين، الأسنان والشفتين، وأنت قادر على منعه وتسكينه، بل القلب غرضٌ للخواطر، لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال، ولا هي تنقطع عنك بوقت، ثم النَّفسُ ومسارعة إلى اتباعها، والإمتناع عن ذلك في مجهود الطاقة أمر شديدٌ ومحنةٌ عظيمةٌ.

الرابع: أن علاجه عليك عسير، إذ هو غيبٌ عنك، فلا تكاد تَشعرُ حتى تدبُّ فيه آفةٌ، وتَحدثُ له حالةٌ، فتحتاج أن تبحث عن ذلك أتمَّ البحثِ بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

والخامس: أن الآفات إليه أسرع، فهو إلى الإنقلاب أقرب، فلقد قيل إنّ القلب أسرع انقلاباً من القِدْر في غليانها، ولذلك قيل:

ماسمي القلب إلا من تقلبه

والرأي يضرب بالإنسان أطواراً

ثمَّ إنْ زلّ القلب والعياذ بالله، فزلُله عظيم، ووقوعه أصعب وأفظع، أدناه قسوةٌ وميلٌ إلى غير الله، ومنتهاه ختمٌ بكفرٍ بالله تعالى، أما تسمعُ قوله تعالى:

﴿أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فكان الكبر بقلبه، فحمله الإباء والكفر بظاهره، أما تسمع قوله تعالى:

﴿وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[2].

فكان الميل واتباع الهوى بقلبه، فحمله على ذلك الذنب المشؤوم بنفسه، أما تسمع قوله تعالى:

﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3].

ولهذا المعنى أيها الرجل، خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم، وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم إليها، قال الله تعالى في وصفهم:

﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ﴾[4].

جعلنا الله وإياكم من المعتبرين بالغير، المهتمين بمواضع الخطر، الموفقين لإصلاحها بحسن النظر، إنه أرحم الرحمين.

فإن قيل: إنّ أمر هذا القلب لمهم جداً، فأخبرنا عن المعاني التي تُصلحه، وعن

١ـ البقرة ٢: ٣٤.

٢ـ الأعراف ٧: ١٧٦.

٣ـ الأنعام ٦: ١١٠.

٤ـ النور ٢٤: ٣٧.

الآفات التي تعترضه فتُفسدُهُ، عسى أن نوفَّقَ للإجتهاد في العمل بذلك.

فيقال له: اعلم أنّ تفصيل هذه المعاني طويلٌ لا يحتملُهُ هذا الكتاب، وإنما علماءُ الآخرة عنوا باستخراج ذلك وتصنيفه في هذه النكتة لا غير، وقد ذكروا فيما يحتاج إليه من ذلك نحو تسعين خصلة محمودة، وفي أضدادها المذمومة، ثمَّ من المساعي الأفعال الواجبة والمحظورة نحو ذلك في سائر تفاصيلها، ولعمري إنّ من أهمه أمر دينه، وانتبه من رقدة الغافلين ونظر لنفسه، فلا يكون تحصيل جميع ذلك والعمل به عليه كثيراً إذا وفَّقه الله تعالى، وقد ذكرنا نبذة منها في شرح عجائب القلب من كتاب " إحياء علوم الدين" وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها وكيفية علاجها في كتاب "أسرار معاملات الدين" وهو كتاب مستقل بنفسه، عظيم الفائدة ولا ينتفع به إلا فحول العلماء الراسخون في العلم، وموضوع هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدئ والقوي والضعيف.

آفات القلب:

فنظرنا في الأصول التي لابد من ذكرها في علاج القلب، والحاجة إليها ماسة، ولا غنى عنها ألبتة في شأن العبادة فوجدناها أربعة أمورٍ، هي مداحض العابدين وآفات المجتهدين، وهي فتن القلوب وبليات النفوس، تعوق وتشين، وتفسد وتتلف، وأربعة في مقابلتها فيها قوام العبّاد، وانتظام العبادة، واصلاح القلوب.

فالآفات الأربع: الأمل والإستعجال والحسد والكبر.

والمناقب الأربع: قصر الأمل والتأني في الأمور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع.

فهذه هي الأصول في صلاح القلوب وفسادها، والنكتة التي عليها المدار،

فلتَبذل المجهود في التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب، تُكْفَ المؤن، وتظفر بالمقصود.

الآفة الأولى: طول الأمل:

أما طول الأمل: فإنه العائق عن كل خير وطاعة، الجالب لكل شر وفتنة، وإنه الداء العضال الذي يوقع الخلق في أنواع البليات، واعلم أنك إذا طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء:

أحدها: ترك الطاعة والكسل فيها، تقول: سوف أفعل والأيام بين يدي، ولا يفوتني ذلك، ولقد صدق داوود الطائي رحمه الله حيث قال: " من خاف الوعيد قرب عليه عليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله".

والثاني: ترك التوبة وتسويفها، تقول: سوف أتوب وفي الأيام السعة وأنا شاب، وسنّي قليل، والتوبة بين يدي، وأنا قادر عليها متى رمتها، وربما اغتاله الحِمام على الإصرار، واختطفه الأجل قبل اصلاح العمل.

والثالث: الحرص على الجمع والإشتغال بالدنيا عن الآخرة، ويقول: أخاف الفقر في الكبر، وربما أضعف عن الإكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر، فهذا أو نحوه يحرك إلى الرغبة في الدنيا والحرص عليها، والإهتمام بالرزق، تقول أيش آكل، وأيش أشرب وأيش ألبس، وهذا الشتاء وهذا الصيف وما لي شيء ولعل العمر يطول فأحتاج، والحاجة مع الشيب شديدة، ولا بد من قوت وغنىً عن الناس، فهذه وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا والرغبة فيها،والجمع لها، والمنع لما عندك منها، وأقل ما في الباب تشغل قلبك وتضيع عليك وقتك، وتكثر همك وغمك بلا فائدة ولا طائل، على ما روي عن أبي ذر رحمه الله أنه قال:

«قتلني همُّ يوم لم أدركه، قيل كيف ذلك يا أباذر؟ قال: إنّ أملي جاوز أجلي»[1].

والرابع: القسوة في القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أملت العيش الطويل لاتذكر الموت والقبر، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أخْوَفُ مَا أخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَان: طُوْلُ الأمَلِ وَاتّبَاعُ الْهَوَى، ألا وَإنّ طُوْلَ الأمَلِ يُنْسِي الآخِرَةِ، وَاتّبَاعُ الْهَوَى يَصُدُّ عَنْ الْحَقِ»[2].

فإذن يصير قلبك فكرك ومعظم قلبك في حديث الدنيا وأسباب العيش في صحبة الخلق ونحوها، فيقسو القلب من ذلك، وإنما رقة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر، والثواب والعقاب وأحوال الآخرة، وإذا لم يكن شيء من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة، قال تعالى:

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3].

فإذن أنت إذا طوّلتَ أملك قلّتْ طاعتُك، وتأخرت توبتك، وكثرت معصيتك، واشتد حرصك، وقسا قلبك، وعظمت غفلتك عن العاقبة، فذهبت ـ والعياذ بالله إن لم يرحم الله ـ آخرتُك، فأي حال أسوأ من هذا؟ وأي آفة أعظم من هذا؟ وكل هذا بسبب طول الأمل.

أمّا إن قصّرتَ من أملك وقربت من نفسك موتك، وتذكرت حال أقرانك وإخوانك، الذين فاجأهم الموت في وقت لم يحتسبوه. ولعل حالك مثل حالهم،

١ـ اللمع: ١٨٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٨٢، باب الزاد في السفر،حديث ٢٤٥٦. بحار الأنوار ٧٥: ٤٤٧، باب٣٣ح٩.

٢ـ الجامع الصغير ١: ٢١. احياء العلوم ٣: ٢٩٤، مع شئ من الإختلاف. تحف العقول: ٢٠٤. الأمالي للشيخ الطوسي: ١١٧.

٣ـ الحديد ٥٧: ١٦.

فاحذري يانفسي الغرور، واذكري ما قال عون بن عبدالله:

«كم من مستقبل يوماً لم يستكمله، ومنتظر غداً لم يدركه، لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره»

أما سمعت قول عيسى عليه السلام:

«الدّنْيَا ثَلاثَةُ أيّام: أمْسُ قَدْ مَضَى مَا بِيَدِكَ مِنْهُ شَيْء، وَغَداً لا تَدْرِي أتُدْرِكُهُ أمْ لا؟ وَيَوْمٌ أنْتَ فِيْهِ فَاغْتَنِمْهُ»[1].

ثم قول أبي ذر رضي الله عنه:

«الدُّنْيَا ثَلاثُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ مَضَتْ، وَسَاعَةٌ أنْتَ فِيْهَا، وَسَاعَةٌ لا تَدْرِي أتَدْرُكُهَا أمْ لا؟»

فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة، إذ الموت من ساعة إلى ساعة ممكن.

ثم قول شيخنا رحمه الله:

«الدنيا ثلاثة أنفاس: نَفَسٌ مضى عملت فيه ما عملت، ونفس أنت فيه، ونفس لا تدري أتدركه أم لا؟. إذ كم من متنفس نفساً ففاجأه الموت قبل النفس الآخر؟ فلست تملك إلا نفساً واحداً لا يوماً ولا ساعة»

فبادر في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن يفوت وإلى التوبة، فلعلك في

١ـ فيض القدير ٥: ٦٥. هذه الرواية ذكرت في كتاب الغزالي وذكرها صاحب «فيض القدير» وما هو موجود المصادر الحديثية فمروي عن الإمام علي مع شيئ من الإختلاف هذا نصه: " إنما الدنيا ثلاثة: يوم مضى بما فيه فليس بعائد، ويوم أنت فيه يحق عليك إغتنامه، ويوم لا تدري أنت من أهله، ولعلك راحل فيه". مستدرك الوسائل ١٢: ١٤٩. ومن المصادر السنية، دستور معالم الحكم لإبن سلامة: ٤٥.

النفس الثاني تموت، ولا تهتمي يا نفس بالرزق، فلعلك لا تبقين لتحتاجي إليه فيكون وقتك ضائعاً والهم فضلاً، وما عسى أن يهتم الإنسان ليوم واحد أو ساعة واحدة أو نفس واحد؟.

يقول الشيخ المجرد والعارف الموحد جمال الدين الأردستاني من باب النصيحة لأهل الدنيا والذين أصيبوا بالهم والغم للأمور المادية اليومية والمستقبلية:

أما تذكرين ما قال النبي ﷺ لأصحابه:

«أما تعجبون من أسامة المشتري الوليدة بصبر شهر، إن أسامة لطويل الأمل، والله ماوضعتُ قدماً فظننت أني أرفعها، ولا لقمة فظننت أني أسيغها حتى يدركني الموت، والذي نفسي بيده إن ما توعدت لآت وما أنتم بمعجزين»[1].

فإذا أنت أيها الرجل تذكّرت هذه الأذكار، وواظبت على ذلك بالإعادة والتكرار، قصر أملك بإذن الله تعالى، فحينئذ ترى نفسك تبادر إلى الطاعات، وتعجِّل توبتك، وتَسقُطُ عنك معصيتك، وتزهدُ في الدنيا وطلبها، فيخف حِسابك وتبعتك، ويقع قلبك في تذكر الآخرة وأهوالها، وما هو إلا من نفس إلى نفس تصير إليها وتعاينها واحداً فواحد، فتزول عنك القسوة، وتبدو لك الصفوة والرقة، وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية، فيستقيم لك أمر عبادتك، ويقوى الرجاءفي أن تستعد في عاقبتك، فتظفر بالمراد في آخرتك، وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بسبب هذه الخصلة التي هي قصر الأمل.

ولقد حكي أن زرارة بن أوفى رحمه الله: قيل له في النوم بعد موته: أي الأعمال

١ـ شرح نهج البلاغة لابن حديد ١٨: ١٢٧، باب ١٩.

أبلغ فيما عندكم؟ قال: الرضا وقصر الأمل.

فأنظر لنفسك أيها الأخ وابذل المجهود في هذا الأصل الكبير فإنه الأهم والأعظم في صلاح القلب والنفس.

الآفة الثانية: الحسد:

وأما الحسد فإنه المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات، وإنه الداء الذي يبتلي به الكثير من القراء والعلماء، فضلاً عن العامة والجهّال، حتى أهلكهم وأوردهم النار، أما تسمع قول رسول الله ﷺ: «**ستة يدخلون النار بستة: العرب بالعصبية، والأمراء بالجور، والدهاقين بالكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهل، والعلماء بالحسد**»[١].

وأنّ بليّة بلغ شؤمها أن أوردت العلماء النار لحقيق أن يحذر منها.

واعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء:

أحدها: إفساد الطاعات، قال رسول الله ﷺ:

«**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[٢].

والثاني: فعل المعاصي والشرور، على ما قاله وهب بن منبه: "للحاسد ثلاث علامات: يتملق إذا شهد، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة"، قلت: وحسبك إن الله أمر بالإستعاذة من الحاسد فقال تعالى: ﴿وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا

١ـ احياء علوم الدين ٣: ١٥٣. منية المريد: ٣٢٤،الفصل الثاني في آفات المناظرة، مع اختلاف يسير.

٢ـ المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٦: ٢٥١. قرب الإسناد للحميري القمي: ٢٩.

حَسَدَ﴾[١]، كما أمر بالإستعاذة من شر الشيطان الرجيم والساحر.

والثالث: التعب والهم من غير فائدة، بل مع كل وزر ومعصية، كما قال ابن السمّاك: «**لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من الحاسد، نفس دائم، وعقل هائم، وغم لازم**».

والرابع: عمى القلب حتى لا يكاد يفهم حكماً من أحكام الله تعالى.

والخامس: الحرمان والخذلان، فلا يكاد يظفر بمراد، وينصر على عدوان، كما قال حاتم: «**الطعّان غير ذي دين، والعائب غير عابد، والنمام غير مأمون، والحسود غير منصور**».

قلت: الحسود كيف يظفر بمراده، ومراده زوال نعم الله عن عباده المسلمين، وكيف يُنصر على أعدائه وهم عباد الله المؤمنون. ولقد أحسن أبو يعقوب فيما قال: «**اللهم صبّرنا على تمام النّعم على عبادك، وحسِّن أحوالهم**». فأي داء يكون أدوأ منه، فعليك بمعالجة نفسك من ذلك، والله ولي التوفيق.

الآفة الثالثة: الإستعجال:

وأمّا الإستعجال: والنَّزق مع سوء الخلق، فإنه الخصلة المفوِّتة للمقاصد، المُوقِعَة في المعاصي، وإنّ منها تبدو آفات أربعة:

أحدها: أن يقصد العابد منزلة في الخير والإستقامة ويجتهد، فربما يستعجل في نيلها، وليس ذلك بوقتها، فإمّا أن يَفتُر وييأس فيترك الإجتهاد فيحرم تلك المنزلة فهو بين إفراط وتفريط، وكلاهما نتيجة الإستعجال.

١ـ الفلق ١١٣: ٥.

ولقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إنّ ديننا هذا متين، فإوغل فيه برفق، فإن المُنْبَتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[١].

وفي المثل: «**إن لم تستعجل تصل**»، وقول الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية: أن يكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى فيها ويكثر الدعاء ويجدّ، فربما يستعجل الإجابة قبل وقتها، فلايجدُها فيفتُرْ ويسأمْ، ويترك الدعاء، فيحرم حاجته ومقصوده.

والثالثة: أن يَظلمُه إنسان، فيغيظُه فيُعَجِّل في الدعاء عليه، فيهلك المسلم بسببه، وربما يتجاوز عن الحد فيقع في معصيةٍ وهلاكٍ. قال تعالى:

﴿وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾[٢].

والرابعة: أنّ أصل العبادة وملاكها الورع، والورع أصله النظر البالغ في كل شيء، والبحث التام عن كل شيئ هو بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل، فإن كان الرجل مستعجلاً في الأمور غير متأن ولا متثبِّت ولا متبيّن، لم يقع منه توقف ونظر في الأمور كما يجب، ويتسارع إلى الكلام، فيقع في الزلل، وإلى أكْل كلّ طعام فيقع في الحرام والشبهة، وكذلك في كلّ أمرٍ فَيُفَوّتُهُ الورع، وأي خير في عبادة بلا ورع؟ وإذا كان في خصلة الإنقطاع عن منازل الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه، فحقّ للإنسان أن يهتم لها، بالإزالة

١ـ احياء علوم الدين ٢: ٢٣٩، الكافي ٢: ٨٧، باب الاقتصاد في العبادة ح٦، مع اختلاف يسير.

٢ـ الإسراء ١٧: ١١.

واصلاح النفس بعدها.

يقول الأمير حسين بن عالم بن الحسن الحسيني جامع العلوم الظاهرية والباطنية وحاوي الفضائل العقلية والنقلية:

في ذلك الحريم حيث الغنى فان التفكير خيال عابث
و الكلام الذي يأتي من التقليد نماجم من الطبع لا التوحيد
قوم رأوا فيما مضى أنفسهم في مرآة النفس
دائماً تطوف حول نفسك ثم تتحدث باسم المعرفة
رأيت في المرآة الهوى فظننت معرفة الله

الآفة الرابعة: الكبر:

وأما الكبر فإنه الخصلة المهلكة رأساً، أما تسمع قوله تعالى:

﴿أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وليست هذه الخصلة بمنزلة سائر الخصال التي تقدح في عمل، وتضر بفرع، وإنما تضر بالأصل، وتقدح في الدين والإعتقاد، وإذا قويت وغلبت فلا تتدارك، والعياذ بالله، ثم أقلُّ ما يهيج منها على صاحبها أربع آفات:

إحداها: حرمان الحق، وعمى القلب عن معرفة آيات الله تعالى، قال تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2].

وقال تعالى:

١ـ البقرة ٢: ٣٤.

٢ـ الأعراف ٧: ١٤٦.

﴿كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[١].

والثانية: المقتُ والبغضُ من الله تعالى، قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٢].

وروي أن موسى عليه السلام قال: «**يا رب من أبغضُ خلقك إليك؟ قال: من تكبَّر قلبه، وغلظ لسانه، وصفّق عيّنه، وبخلت يده، وساء خلقُه**»[٣].

والثالثة: الخزي والنّكال في الدنيا والآخرة، قال حاتم الأصم رحمه الله: اجتنبتُ الموت على ثلاثة: على الكبر، والحرص، والخيلاء، فإنّ المتكبر لا يخرجه الله من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخُدّامه، والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه إلى كسرةٍ أو شربةٍ، ولا يجد مساغاً، والمختال لا يخرجه الله من الدنيا حتى يمرغه الله ببوله وقذره، وقيل: «من تكبر بغير حقّ أورثه الله ذلاً بحقّ»[٤].

والرابعة: النار والعذاب في العقبى، على ما روي أن الله تعالى يقول:« الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما أدخلته نار جهنم»[٥]، والمعنى أن العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي، ولا تنبغي لأحد غيري، كما أن رداء الإنسان وإزاره يختص به لا يشاركه فيه، وأن خصلة

١ـ غافر ٤٠: ٣٥.

٢ـ النحل ١٦: ٢٣.

٣ـ لم نجد مصدر الرواية.

٤ـ سير أعلام النبلاء ٨: ٣٦.

٥ـ مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٤٨، وفيه ألقيته في النار. ارشاد القلوب ١: ١٨٩،باب ٢٥.

تُفوتك معرفة الحق، وفهم آيات الله تعالى وأحكامه الذي هو أصل الأمر كلّه ثم تثمر لك المقت من الله سبحانه، والخزي في الدنيا، والنار في الآخرة، لا يسع العاقل أن يغفل عن نفسه، فلا يصلحها بإزالتها بالحذر والتحرز، والإستعاذة بالله عزّ وجلّ من ذلك وهو ولي العصمة والتوفيق بمنّه ولطفه.

فهذا بعض ما حضرنا في هذه الخصال الأربع من الآفات، وحسب العاقل واحدة منها فضلاً عن الكلّ، إذا أهمّه أمر قلّبه وحامى عن أمر دينه.

فإن قلت: فإذا كان الأمر بهذه المنزلة من آفات هذه الخصال، ولزوم التحفظ منها؛ فلابد من معرفة حقيقتها وحدها، فبيّن لنا ذلك لنعرف كيف الطريق إلى التحفظ عنها.

فاعلم أن في كل واحدة منها كلاماً كثيراً....، ونحن نذكر ها هنا ما لابد من ذكره، ولا يقع الغنى عنه

حد الأمل وأقسامه:

أمّا الأمل فقال أكثر علمائنا: إنه إرادة الحياة للوقت المتراخي بالحكم، وقصر الأمل ترك الحكم فيه بأن تقيده بالإستثناء بمشيئة الله تعالى وعلمه في الذكر، أو بشرط الصلاح في الإرادة، فإذن إن ذكرتَ حياتك بأني أعيش بعد نفس ثانٍ أو ساعة ثانية أو يوم ثانٍ بالحكم والقطع، فأنت آمل، وذلك منك معصية، إذ هو حكم على الغيب، فإن قيّدته بالمشيئة والعلم من الله تعالى فتقول: أعيش إن شاء الله، أو إن علم الله أن أعيش، فقد خرجت عن حكم الأمل، ووصفت بترك الأمل، من حيث تركت الحكم فيه، فعليك بترك الحكم في ذكر البقاء وإرادته، والمراد بالذكر ذكر القلب، ثم المراد منه التوطين على ذلك، والتثبيت للقلب

عليه، فافهم ذلك راشداً إن شاء الله تعالى.

ثم الأمل ضربان: أمل العامة وأمل الخاصة.

فأمل العامة أن تريد الحياة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها، وهذه معصية محضة، وضدها قصر الأمل، قال تعالى:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

وأمل الخاصة: أن تريد البقاء لإتمام عمل خير فيه خطر، وهو ما لا يستيقن الصلاح له فيه، فإنه ربما يكون خير معينٍ، لا يكون للعبد فيه أو في إتمامه صلاحٌ، بأن يقع بسببه في آفة لا يقوم بها هذا الخير. فإذن ليس للعبد إذا ابتدأ في صلاة أو صوم أو غيره أن يحكم بأنه يتمّه إذ هو غيب، ولا أن يقصد ذلك قطعاً، لأنه ربما لا يكون له فيه صلاح، بل يقيد ذلك بالإستثناء وشرط الصلاح، ليخلُص من عيب الأمل، قال الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿وَ لاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٢].

وضد هذا الأمل فيما قاله العلماء النية، وإنما قالوا ذلك على ضرب من الإتساع، لإن الناوي بالنية المحمودة يكون ممتنعاً من الأمل، فهذا حكم الأمل، والنية المحمودة، إذ قد مست الحاجة إلى معرفتها مع أنها الأصل الأصيل، وقالوا في حدها الجامع التام:

إنّ النية الصحيحة المحمودة: إرادةُ أخذ عمل مبتد به قبل سائر الأعمال بالحكم مع إرادة إتمامه بالتفويض والإستثناء.

١ـ الحجر ١٥: ٣.

٢ـ الكهف ١٨: ٢٣-٢٤.

فإن قيل: فلم جاز الحكم في الإبتداء ووجب التفويض والإستثناء في الإتمام؟ يقال له: لفقد الخطر في الإبتداء، إذ هو في حال الإبتداء ليس بشيئ متراخ عنك، ولثبوت الخطر في الإتمام، إذ يقع في وقت متراخ، ففيه الخطران: خطر الوصول، لا تدري هل تصل إلى ذلك أم لا؟ وخطر الفساد لا تدري هل في ذلك صلاح أم لا؟ فإذا وجب الإستثناء لخطر الوصول، والتفويض لخطر الفساد، فإذا حصلت الإرادة على هذه الشروط تكون حينئذ نية محمودة، مخرجة عن حد الأمل وآفته، فتأمل جداً.

وأعلم أن حصن قصر الأمل ذكر الموت، وحصن حصينه ذكر فجأة الموت، وأخذه على غرة وغفلة، وهو في غرور وفتور، فاحتفظ بهذه الجملة، وحصلها موفقاً، فإن الحاجة إليها ماسّة، ودع عنك تضييع الوقت في القيل والقال وملاحاة الرجال، والله الموفق بفضله.

حد الحسد و حقيقته:

وأما الحسد فهو إرادة زوال نعم الله عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة، وعلى هذا يحمل قول النبي ﷺ:« **لا حسد إلا في اثنتين**»[1]، أي لا غبطة إلا في ذلك، فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعاً لمقاربتهما، فإن لم يكن فيها صلاح، فأردت زوالها عنه، فذلك غيرة، فهذا هو الفرق بين هذه الخصال.

وأما ضد الحسد فالنصيحة: وهي إرادة بقاء نعم الله تعالى على أخيك المسلم،

١ـ مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٨٥. رسائل الشهيد الثاني: ٣١٣. وفيهما «**إلا في اثنين**».

مما له فيها صلاح.

فإن قيل: كيف نعلم أن له فيها صلاحاً أو فساداً لننصحهُ أو نحسدهُ؟

فأعلم أنه قد يكون لنا غالب الظن بذلك، وغلبة الظن منا تجري مجرى العلم في هذه المواضع، ثم إن اشتبه عليك، فلا تريدن زوال نعمة عن أحد من المسلمين أو بقاءها، إلا مقيّداً بالتفويض وشرط الصلاح، لتخلص من حكم الحسد، ويحصل لك فائدة النصيحة.

وأما حصن النصيحة المانع من الحسد: فهو ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين، وحصن هذا الحصن، ذكر ما عظّم الله تعالى من حق المؤمن ورفع من قدره، وما عند الله تعالى من الكرامات العظيمة في العقبى، وما لك فيه من الفوائد الجليلة في الدنيا من التعاون والتظاهر والجماعات والجمعات، ثم ما ترجو من شفاعته في الآخرة، فهذه ونحوها مما يبعث على النصح لكل مسلم، ويجنّبك أن تحسده في نعمةٍ أعطاه الله إيّاها.

حقيقة العجلة:

أما العجلة فإنها المعنى الراتب في القلب، الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر، دون التوقف فيه والإستطلاع منه، بل الإستعجال في اتباعه والعمل به.

وضدها الأناة: وهو المعنى الراتب في القلب، الباعث على الإحتياط في الأمور، والنظر فيها والتأني في اتباعها والعمل بها.

وأما التوقف فضده التعسف، قال شيخنا ﷺ: والفرق بين التوقف والتأني، أن التوقف قبل الدخول في الأمر حتى يتبين له رشده، والتأني بعد الدخول فيه حتى يؤدي لكل جزء منه حقه. ثم مقدمات الأناة، ذكر وجوه الخطر في الأمور التي

تعترض الإنسان، وضروب الآفات المخوفة فيها، وذكر ما في النظر والتثبت من السلامة، وما في التعسف والإستعجال من الندامة والملامة.

معنى الكبر:

وأما الكبر: فاعلم أنه خاطر في رفع النفس واستعظامها، والتكبر اتباعه، والتواضع خاطر في وضع النفس واستحقارها، والتواضع اتباعه، ولكل واحد منهما عاميّ وخاصيّ:

فالتواضع العامي: هو الإكتفاء بالدون من الملبس والمسكن والمركب، والتكبر في مقابلته، الترفع عن ذلك، وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة.

والتواضع الخاصي: هو تمرين النفس على قبول الحق مما كان وضعاً أو شريفاً، والتكبر: في مقابلته الترفع عن ذلك، وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة.

ثم حصن التواضع العاميّ: أن تذكر مبدأك ومنتهاك، وما أنت عليه في الحال من ضروب الآفات والأقذار؛ كما قال بعضهم:

«أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وانت فيما بينهما حامل العذرة»[1].

وحصن التواضع الخاصيّ: هو ذكر عقوبة العادل عن الحق، المتمادي في الباطل، فهذه جملة كافية لمن استبصر[2].

١ـ وفيات الأعيان ٦: ٢٨٤. عيون الحكم والمواعظ: ٤٧٩.

٢ـ منهاج العارفين: ١٤٣.

مراحل الوصول إلى الحقيقة:

يتضح لنا من خلال الآيات القرآنية والمتون الإسلامية أن سلامة الأخلاق والعمل وجميع الشؤون الإنسانية مرهون بسلامة القلب، وأن الإنحراف في العمل والأخلاق وكل الشؤون الحياتية بسبب فساد القلب.

و عندما يكون القلب من أعظم العبادات، وحفظ سلامته من أهم الأعمال، وعلاج الأمراض القلبية من أفضل وأحسن البرامج الحياتية.

أرشد أهل اليقظة الإنسان من خلال التوجه إلى نور الوحي للتوجه إلى القلب وحفظ سلامته، وقدموا له برامج مهمة وأساسية في هذا المجال، حيث جاء فيما كتبوه:

أن طريق الوصول إلى الحقيقة والسعادة الأبدية يتضمن ثلاثة مراحل، وفي كل مرحلة هناك منازل، وهذه المراحل عبارة عن:

١- المعرفة.

٢- الهمة.

٣- المحبة.

فالرجل الباحث عن الحقيقة إذا لم يطو المراحل الثلاث فلن يصل إلى السعادة الأبدية أبداً؛ لإن المعرفة النظرية لا تثمر إذا لم تشفع بالعمل الفعلي؛ والهمة ضرورية في العمل الفعلي، وهذه الهمة هي الفضيلة في القسم العملي للمعرفة، ولكن هذه الفضيلة لا قيمة لها ولا فائدة بدون المحبة والعشق.

وإذا دققنا في الكلمات المذكورة أعلاه يتضح أن هذه الأمور الثلاثة الواقعية ترتبط بالقلب فقط. وعندما يتنور القلب بهذه الأمور الثلاثة الواقعية من خلال سعي الإنسان وجهده، يتزين بالسلامة والصلاح، فيؤثر ذلك على جميع أخلاق

الإنسان وأعماله بشكل ايجابي.

ولا طريق للحصول على المعرفة إلا من خلال التفكر والرجوع إلى الوحي، و يتحصل من ذلك الرجوع المحبة والعشق، ونتيجة هذا العشق والمحبة تتحقق الحركة والهمة والفضيلة والعمل.

ونذكّر هنا ـ وبشكل مختصر ـ بآداب وشروط هذه المراحل الثلاثة:

١- المعرفة:

إن أهم أمر يجب معرفته في هذه المرحلة بعد معرفة ماهية الإنسان ومنشأه ومعاده والغاية من حياته هو قانون التكامل الحاكم على العالم المادي والمعنوي، والإنسان في هذا المجال مسلوب الحرية والإختيار، بل هو مجبور ومأمور، فهنيئاً لمن يسلك هذا الطريق برغبة واشتياق، حتى يهون عليه عذابه ومشقته، ويزداد سعادة وسروراً.

ويجب أن يعلم أيضاً أن الإفراط والتفريط في أي شيئ وفي أي مكان مضر وإن كان في طي طريق الكمال

أو في طريق تحصيل العلم. لإنهما يخرجان القوى الروحية عن جادة الإعتدال، ويؤدي به إلى الضعف وسوء الإستعمال، ولكن يجب اكتساب قوة التمييز والعقل لإجل معرفة ميزان الإعتدال. وبالنتيجة فإن تجنب الإفراط والتفريط يؤدي إلى حصول الإنسجام في نظام الحياة العام، ويتحد القول والعمل والفكر، ويوجد الإطمئنان والراحة الظاهرية والباطنية.

٢- الهمة:

يجب في مرحلة الهمة أو الفضيلة الإلتفات إلى إن أفضل الأعمال ما بدأ بإسم الله ولإجل الله، وأن الثواب و الجزاء من الله، فكل وظيفة نقدسها فكأن الله قد أمرنا بتأديتها، ونحن مأمورون بأوامر الله تعالى.

فكل عمل يؤدى بهذه النية يكتسب القداسة والسمو، ويكون مصدراً للفيض والقدرة والسعادة لصاحب العمل ولغيره.

٣- المحبة:

يجب في مرحلة المحبة الإلتفات إلى أهمية إتيان جميع الأعمال برغبة وشوق، وإلا ستكون خالية من الفيض و الروحانية، فكما نأتي بالأعمال التي يطلبها منا المعشوق الحقيقي بكل سعادة وسرور، أي بشوق وعشق طاهر، كذلك يجب أن نؤدي جميع الفضائل والعبادات والأدعية بشوق وعشق خالص.

إن المحبة الحقيقية هي في الإبتعاد عن حب النفس وعبادة الذات، ولا تعرف سبيلاً إلا في فناء الذات، كمحبة الأم لأولادها. فالمحبة الحقيقية لا تعرف الحدود، فجميع أفراد البشر بل جميع الموجودات كالشمس الغارقة في الأنوار التي تبعث على الحياة.

فعظمة الرجل وسموه وشرفه في المعرفة والهمة والمحبة، وهذه القوى الثلاثة غير قابلة للإنفصال أبداً، ومتى ما شوهد انفصالها في فرد فهو ليس بكامل. وإذا لم يكن بناء هذه القوى الثلاث بشكل محكم فلن توصل إلى طريق الحقيقة والسعادة، ولن تعطي ثمارها الطيبة المطلوبة.

إن رقي العالم وازدهار الأمم مرهون بوجود أفراد يتصفون بالمعرفة الحقيقية والهمة العالية والمحبة اللامحدودة. فالمعرفة الحقيقية هي نور الحياة التي توقظ

القوى الخلاقة في الروح الأنسانية وتهيئها للعمل، والهمة العالية هي التي تزيل الموانع كالضعف والدناءة من أمام القوى الروحية وتمحوها، والمحبة الطاهرة اللامحدودة تخرج الإنسان من حب الذات إلى القوى الروحية لقدرة الله الكاملة والفيض الإلهي اللامتناهي.

وكل من اكتسب هذه الجواهر الثلاث: المعرفة والهمة والمحبة وغرسها في قلبه، كان العالم بالنسبة إليه كجنان الخلد، حيث يصل إلى السعادة الأبدية في هذه الحياة، لأنه أفنى إرادته في مشيئة الله فأصبحت إرادة واحدة، والله سبحانه وتعالى عندئذ ينظر بعينه، ويسمع بأذنه، ويعمل بيده.

ومثل هذا الإنسان الكامل هو خليفة الله على الأرض، وحامل للفيض والقدرة والعناية لجميع المخلوقات، والمتحرر من كل القيود، محبوب جميع مخلوقات العالم، وهو رحمة للعالمين[١].

طرق نفوذ الشيطان إلى القلب:

القلب قلعة أخذ عدو الإنسان القديم ـ الشيطان الخبيث ـ على عاتقه بكل ما أوتي من إمكانات النفوذ إليه، والسعي للإستيلاء عليها والتحكم فيها. والشخص الوحيد القادر على حفظ هذه القلعة من سيطرة الشيطان عليها هو المستيقظ الدائم والمنشغل بحمايتها وحراسة أبوابها وطرقها وفجواتها. ومن لم يستطع معرفة طرق وأبواب نفوذ الشيطان المفسد لا يتمكن من حماية هذه القلعة.

يجب على كل مكلف حفظ القلب وحمايته من الأساليب الشيطانية المفسدة، ويجب أيضاً تهيئة المقدمات، وبالنتيجة يكون معرفة طرق نفوذ الشيطان لحفظ

١ـ الأصول الأساسية لعلم النفس: ٤٧٤.

القلب وحمايته من المخاطر واجب أيضاً.

١- الحرص والحسد:

إن الشيطان المطرود لا يغفل عن أي اسلوب أو وسيلة تمكنه من احتلال القلب والسيطرة عليه للتحكم بمخزن ومنبع الفيوضات الإلهية، وابداله إلى حظيرة لتربية أنواع الرذائل والخبائث، وتقييد قلوب البشر وأسرها، وجعلها هدفاً لسهامه السامة والمهلكة.

وهناك طريقان ومدخلان كبيران يستطيع الشيطان من خلالهما ـ وبكل سهولة ـ من السيطرة على القلب والتحكم فيه وهما: الحرص والحسد.

ومتى ما حرص الإنسان على شيئ ـ والحرص من أوصاف الشيطان ـ فإن حرصه هذا سيعميه عن رؤية الحقيقة، وسيصمه عن سماع الأمور الواقعية، وكما يقول النبي الأعظم عليه السلام:

«حب الشئ يُعمي وُصم»[1].

ويستطيع الإنسان معرفة طرق نفوذ الشيطان من خلال انعكاس نور البصيرة المشع، ومتى ما منع حجاب الحرص والحسد شعاع هذا النور المعنوي يحرم الإنسان من رؤية ما يجب أن يراه، وحينئذ يستغل الشيطان اللعين هذه الفرصة ليزين للإنسان العوامل التي تؤدي به إلى الحرص على الشهوات الحيوانية، وعندما تتهيأ أرضية الحرص للإنسان بسبب الإغواءات الشيطانية يقدم على ارتكاب أي ذنب أو معصية.

١ـ المجازات النبوية للشريف الرضي: ١٧٥.

أجل، عندما يخرج نور البصيرة من القلب ويحل الحرص ـ هذه الرذيلة الشيطانية ـ محله يصبح مصير هذا القلب معلوماً.

وقد جاء في تفسير بعض آيات القرآن الكريم:

إنه لما أراد النبي نوح عليه السلام ركوب السفينة أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل مخلوق زوج، وفجأة رأى شيخاً كبير السن أمامه لم يعرفه!! فسأله: من جاء بك إلى السفينة؟ فأجاب: جئت بنفسي لأتمكن من قلوب أصحابك، لتكون أبدانهم معك وقلوبهم عندي، فصرخ نوح عليه السلام في وجهه وقال: أخرج من سفينتي يا عدو الله، فإنك موجود قد طرده الخالق من دائرة رحمته ومغفرته.

فقال ابليس لنوح عليه السلام:إن هناك خمسة خصال تؤدي إلى هلاك الناس، سأعلمك بثلاث منها وسأحتفظ باثنتين لإنهما وسيلتي لإغواء ذرية آدم.

فأوحى الله سبحانه وتعالى لنوح بالقول: إنك لست بحاجة لذكر الخصال الثلاث، ولكن اطلب منه بيان الخصلتين؟ فقال ابليس: هناك أمران لا يكذباني، ولا يخالفا أوامري، يا نوح الحرص والحسد هو سبب هلاك الناس، فإياك والحسد فنارها أتت على حرق جميع عبادتي وصرت ملعوناً، وبسببها طردت من محبة الحق، وإياك والحرص فإن آدم أبيحت له الجنة ونُهِيَ عن شجرةٍ واحدة، فحمله حرصه أن يأكل منها، فحرم من الجنة فإخرج منها. وبها قد تحقق هدفي.

فالحرص والحسد هما السبب في حصول التعاسة والشقاوة، ومكانهما القلب، والشيطان يتحكم في القلب من خلال هذين الطريقين، وبالنتيجة سوف يجر جميع الأعضاء والجوارح ـ الخاضعة لقيادة القلب ـ إلى التلوث بالمعاصي.

٢- الغضب والشهوة:

وهناك طريقان آخران يمكّنان الشيطان من السيطرة على قلب الإنسان ـ هذا العرش الإلهي الطاهر ـ وهما الغضب والشهوة.

فالغضب هو قاطع طريق العقل، وغول شديد الخطورة على الباطن الطاهر للإنسان، ومع ضعف جنود العقل يبدأ جنود الشيطان بالنشاط والعمل، والشيطان يتلاعب بالإنسان وسعادته عند الغضب كما يتلاعب الطفل بالكرة.

وجاء في رواية تتضمن مطالب مهمة في هذا الموضوع تحتاج إلى دقة وتأمل حيث تقول: لقي إبليس موسى عليه السلام فقال له: أنت الذي اصطفاك الله برسالته، وكلمك تكليماً، أذنبتُ وأنا أريد أن أتوب، فاشفع لي إلى ربي أن يتوب علي، فدعا موسى ربه، فقيل له: يا موسى قد قضيتُ حاجتك، فلقي موسى إبليس وقال: قد أُمرتَ أن تسجد بقبر آدم ويتاب عليك، فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له حياً، أسجد له ميتاً؟ ثم قال إبليس: يا موسى إنّ لك عليّ حقاً بما شفعتَ لي إلى ربك، فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيمن أهلك:

اذكرني حين تغضب فإني أجري منك مجرى الدم.

واذكرني حين تلقى الزحف فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف، فأذكره ولده وزوجته حتى يولّي.

وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم، فإني رسولها إليك ورسولك إليها»[1].

أشار الشيطان اللعين في هذه القصة العجيبة إلى ثلاث خطط خطيرة يتحرك من خلالها لإغواء الإنسان وجره إلى الهلاك: الغضب والحرص والشهوة، ولا شك أن فرار الإنسان من الجهاد يعود في أصله إلى الحرص على الدنيا، وأمتناع إبليس من السجود لآدم منشؤه الحسد لا غير، والحسد باب كبير ينفذ الشيطان

١ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢٨٠، باب٣ ح١٦٩.

من خلاله للسيطرة والتحكم بالقلب.

ويقال: إن بعض الأنبياء عليهم السلام سأل ابليس: بأي شيئ تغلب الإنسان؟ فقال: بالحرص وهوى النفس.

ويقال: إن الشيطان ظهر يوماً أمام عبد من عباد الله المخلصين، فسأل هذا العبد اليقظ الشيطان: أي خلق من أخلاقيات الإنسان التي تنفذ من خلالها وتؤثر بشكل أكبر في جر الإنسان إلى الشقاء والهلاك؟

قال: الغضب، لأن الإنسان عندما يغضب أتحكّم بقواه وأتلاعب به كما يتلاعب الطفل بالكرة.

٣- عشق ملذات الدنيا:

ومن جملة الطرق التي يستخدمها الشيطان في السيطرة على القلب عشق الإنسان بسبب ميوله وشهواته للزينة واللباس الفاخر، وجمع الأثاث، وبناء البيوت. ومتى ما استحكم حب الإنسان لهذه الأمور في قلبه، استغل الشيطان هذه الحالة فيستمر في دعوة الإنسان وترغيبه في الإستزادة وطلب الأفضل والأجمل في لون البيت والنقوش المزينة له في السقف والجدران وسعته وتقسيمه....حتى يصل إلى حد الإفراط، وبعدها ينتقل إلى ثيابه ومركبه وكل ما يرتبط بشؤون حياته المادية، لا يكتفى ولا يقنع ويشتد ذلك يوماً بعد يوم، فينشغل طول حياته بتلبية تلك الشهوات والرغبات، فيغرق في أمور الدنيا وملذاتها، كما يحصل لدودة القزّ فكلما ازدادت على نفسها لفاً صعب عليها الخروج منه حتى تموت. وحينها يكون الإنسان قد أزهق نفسه في طريق الشيطان وهوى النفس، واستحق الشقاء والخسران الأبدي، لهذا يستوحش أكثر أهل العلم من سوء العاقبة.

٤- كثرة الأكل:

إن كثرة الأكل والشبع هي من طرق سيطرة الشيطان على القلب، حتى وإن كان الطعام حلالاً، لإن كثرة الأكل والشبع تزيد في شهوة الإنسان، والشهوة من أنجح أسلحة إبليس الملعون.

روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليه السلام وإذا عليه معاليق من كل شيئ، فقال له يحيى: ما هذه المعاليق يا إبليس؟ فقال: هذه الشهوات التي أصبتها من ابن آدم، قال: فهل لي منها شيئ؟ قال: ربما شبعت فثقلتك عن الصلاة والذكر، قال يحيى: لله علي أن لا أملأ بطني من طعام أبداً، وقال إبليس: لله علي أن لا أنصح مسلماً»[١].

٥- الطمع:

إن الطمع من جملة الطرق التي يسيطر بها الشيطان على القلب، فعندما يغلب الطمع على القلب يرغّب الشيطان الإنسان للتصنع في العمل والأخلاق والتظاهر بالحسن حتى يطمع الآخرين به، ويلفت نظرهم إليه، فينجر الإنسان بسببها إلى الرياء والمكر والحيلة والخديعة والتلبيس، فيصبح الإنسان الطامع فيه معبود له.

ومن هنا يصرف الإنسان كل همه في جذب المحبين والمعجبين، فيتوسل بكل عمل يحقق له هذا الغرض وإن استدعى فعل القبيح من الأعمال، والمصيبة التي يقع فيها هذا الإنسان كحد أدنى هي المدح والثناء الذي يلاقيه من دون مناسبة من جهة ومن جهة أخرى التساهل في معالجة الأخطاء، وترك الأمر

١ـ المحاسن ٢: ٤٣٩،باب٣٧ح٢٧٩. وسائل الشيعة ٢٤: ٢٤١،كراهة كثرة الأكل،حديث٣٠٤٣٨.

بالمعروف والنهي عن المنكر.

نقل أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة، وقال احفظ عني شيئاً أعلمكه، قال: لا حاجة لي به، قال: تنظر فإن كان خيراً قبلت، فإن كان شراً رددت، يا ابن حنظلة: لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت !!.

٦- العجالة وترك الإستقامة:

ومن طرق نفوذ الشيطان إلى القلب العجلة وترك الإستقامة في الأمور.

يقول النبي الأعظم عليه السلام:

«الأَنَاةُ مِنَ اللهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[1].

والقرآن الكريم يقول:

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[2].

ويقول في موضع آخر:

﴿وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾[3].

وفي موضع آخر يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله:

﴿وَ لاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[4].

نعم، يجب أن تكون أعمال الإنسان مبنية على الوعي والبصيرة والمعرفة، والبصيرة والمعرفة تحتاج إلى تأمل في العمل وتأني، وبدون شك فإن العجلة

١ـ المحاسن ١: ٢١٥،باب ٨ح١٠١. تحف العقول: ٤٣.

٢ـ الأنبياء ٢١: ٣٧.

٣ـ الإسرا ١٧ء: ١١.

٤ـ طه ٢٠: ١١٤.

تمنع الإنسان من الإستفادة من بصيرته ومعرفته. ويستغل إبليس الخائن عجلة الإنسان ومن دون أن يشعر ليفتح حبائل ومصائد شره.

وروي أنه عند ولادة النبي عيسى عليه السلام سقطت رؤوس التماثيل والأصنام فذهب أبناء إبليس إلى أبيهم يستوضحون الأمر، فأجابهم: لا أعلم، فذهب ثم عاد بعد أن علم بولادة النبي عيسى عليه السلام وقال: لقد انتهت مرحلة عبادة الأصنام والأوثان، فانفذوا في تضليل الإنسان وغوايته من طريق العجلة واستثقال العمل.

٧- مال الدنيا:

ومن الطرق التي يستغلها الشيطان ويسيطر بها على قلب الإنسان طريق الدرهم والدينار، الذهب والفضة وتوابعهما، فيعلق قلب الإنسان بالمال ويربطه إلى الحد الذي يبذل فيه الإنسان كل همه وإرادته ومحبته وعشقه في جمعه وتحصيله فقط لاغير، ويصرف جميع أوقات عمره الثمين في هذا الطريق، حتى إذا أبصر وجد نفسه في قعر جهنم!!.

٨- الخوف من الفقر:

ومن الأبواب التي ينفذ من خلالها الشيطان إلى قلب الإنسان البخل والخوف من الفقر، لإن البخل إذا تمكن من الإنسان فإنه يحرمه من الإنفاق في طريق الحق تعالى، فالبخيل يسعى لجمع المال وتكديسه بكل ما أوتي من قوة ونشاط.

ونقل أن الشيطان قال: إنني أتغلب على الإنسان بشكل حتمي في ثلاث مواضع:

وفي كسب المال غير المشروع.

و في صرف المال في غير محله.

في منعه للحقوق.

وقالوا: إن الشيطان لا يملك سلاحاً أفضل من سلاح الخوف من الفقر في تضليل البشر. لإن البخل والخوف من الفقر إذا سيطر على الإنسان فلن يتجنب كسب المال من الطريق الحرام، وسيأبى عن دفع الحقوق المستحقة عليه، وسيتكلم بما يمليه عليه هواه وهواجسه، وسيؤدي به ذلك إلى سوء الظن بالله تعالى.

أيها العزيز: إن جميع ما قرأته في السطور السابقة بعنوان مخاطر القلب وعلل فساده تؤدي بحسب ما قاله الإمام الصادق عليه السلام إلى وقف القلب، وهذا يعني قطع القلب عن المنافع الحقيقية للدنيا والآخرة، وحرمان القلب من الرحمة اللامتناهية لله سبحانه وتعالى، وأن جميع الطرق والأساليب التي قرأتها في المباحث السابقة هي بسبب غفلة القلب عن حضرة المعبود، وعندما يصاب القلب بالغفلة ينفتح للشيطان الطريق للسيطرة عليه والتحكم فيه، فيصبح مهيئا للتلوث بجميع الرذائل «وَوَقْفُ الْقَلْبِ فِي الْغَفْلَةِ عَنِ الله».

«أَلا تَرَى أَنَّ العَبْدَ إذَا ذَكَرَ اللّهَ تَعالى بِالتَّعْظِيم خالِصاً ارْتَفَعَ كُلُّ حِجَابٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللّهِ مِنْ قَبلِ ذَلِك»

إن المستفاد من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أن الذكر القلبي هو من أهم الأذكار وأكثرها تأثيراً

طريق كسب المعرفة الحقيقية:

إن الذكر القلبي هو عبارة عن ذكر الله سبحانه وتعالى، وهذا الذكر معلول لمعرفة الإنسان بالحق تعالى، تلك المعرفة التي ثمرتها فهم وإدراك «**لا إله إلا الله**» و «**لاحول ولا قوة إلا بالله**» و «**لا مؤثر في الوجود إلا الله**» و «**ليس في الدار غيره ديّار**».

العلم بالفقر الذاتي:

إذا تأمل الإنسان في نفسه وفكر بعمق في جميع المخلوقات يصل إلى نتيجة مفادها: إن جميع الموجودات فقيرة بالذات، ومحتاجة مطلقاً، ويدرك هذه الحقيقة وهي أن أي مخلوقاً في هذا العالم لا يصل إلى العظمة، ولا توجد فيه علة لإدعاء العظمة. ويتضح في نهاية هذا التفكير النوراني والمعرفة الروحانية

حقارة جميع المجودات وفقرها الذاتي، وتتجلى في مرآة قلبه العظمة اللامحدودة للمحبوب.

لأنه رأى الفقر الخالص ذاتي في الموجودات، وشاهد العظمة في المحبوب الحقيقي للعالم فقط. وهذه النظرتان ـ الفقر الذاتي للموجودات والعظمة المنحصرة في الحق تعالى ـ قد تحققتا بعد أن أزال جميع الحجب الموجودة في القلب، ذلك القلب الذي كان قبل مشاهدة عظمة الحق وحقارة الموجودات مبتلياً بالحجب أحاط بعرش الله و أصبح أكثر اتساعاً من السموات والأرض.

ومن هنا فلابد من قطع اليد التي تمد لطلب الحاجة من غير الله، والتوسل والإعتصام برحمة الله وعنايته ولطفه ومحبته فقط لا غير، ومن هنا يعلم الإنسان عجزه عن معالجة ومداوة أقل الأمراض ألماً للإنسان مع كل القدرات والإمكانات التي أفاضها الحق على جميع الموجودات، وأن القادر على حل تلك المشاكل هو الله سبحانه وتعالى لاغير.

ومن هنا يُعلم أن هذا الكائن الإنساني الضئيل عندما يتصل بالأنوار الحقيقية ينجو من عالم الناسوت، ويحلق في اتجاه العرش الإلهي، ومن هنا يتشرّف بشرف الخلافة الإلهية، ويعمل في الأرض لله سبحانه وتعالى؛ لأنه أفنى نفسه في الحق جلّ وعلا.

ظهور نور الإيمان:

بمقدار علم الإنسان بالله ومعرفته بأوصافه الجمالية والجلالية يظهر نور الإيمان في القلب، وترتفع الحجب النورانية والظلمانية بين الله والقلب، وتفيض على القلب حياة جديدة، قال تعالى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١].

وقال تعالى:

﴿أَ وَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٢].

وفي حديث عنوان البصري عن الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعَلُّمِ، وَلَكِنَّهُ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيْدُ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، فَإِذَا أَرَدْتَ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلا فِي نَفْسِكَ حَقِيْقَةَ الْعُبُوْدِيَّةِ، وَاطْلُبْ الْعِلْمَ بِاسْتِعْمَالِهِ، ثُمَّ اسْتَفْهِمْ اللهَ يُفْهِمْكَ»[٣].

ومن المعلوم أن هذا النور ـ نور العلم ـ مثل بقية الأنوار قابل للضعف والشدة، والزيادة والنقصان، قال تعالى:

﴿وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[٤].

وقال تعالى:

﴿وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٥].

وعندما ترتفع الحجب يشع القلب بالنور عند احتراق كل حجاب، وكلما ارتفع حجاب ازداد النور اشعاعاً وقوة بنفس المقدار،حتى ينفذ النور إلى جميع

١ـ البقرة ٢: ٢٥٧.

٢ـ الأنعام ٦: ١٢٢.

٣ـ منية المريد: ١٤٩.

٤ـ الأنفال ٨: ٢.

٥ـ طه ٢٠: ١١٤.

أنحاء القلب، وينشرح حينها صدر السالك، وتنكشف لديه حقائق الأشياء، ويطلع على النظام الأتم للعالم، ويعلم بصدق جميع ما قاله الأنبياء العظام الربانيين عليهم السلام دائماً، وأنها وحي منزل من الله سبحانه وتعالى، ونتيجة هذه الإنشراح الحاصل للسالك هو التخلق بالأخلاق الفاضلة مكان الصفات الذميمة في النفس، قال تعالى:

﴿أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1].

وعندما ينضم نور الصفات والملكات الفاضلة إلى نور المعرفة يصبح من مصاديق نور على نور، قال الله في كتابه المبين:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ﴾[2].

فلابد من شد حزام الطاعة لتلبية جميع أوامر الحق، وتجنّب جميع ما نهى عنه، وأداء العبادات على أحسن وجه، حتى يظهر نور قلبه وصفائه؛ ليزداد القلب انشراحاً ومعرفة ويقيناً. و هذه المعرفة واليقين والإنشراح تدفعه إلى عبادة أخرى وإخلاص أكثر، وبهذه العبادة والإخلاص أيضاً يحصل على نور وصفاء في القلب أكثر مما كان، ويقين قوي وجازم، ومعرفة أتم وأكمل، قال تعالى:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[3].

١ـ الزمر ٣٩: ٢٢.

٢ـ الحديد ٥٧: ١٢.

٣ـ المائدة ٥: ١٦.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«قَدْ أحْيَا عَقْلَهُ وَ أمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيْلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيْظُهُ، وَبَرِقَ لَهُ لامِعٌ، فَأبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيْلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الأبْوَابُ إلَى بَابِ السَّلامَةِ وَدَارِ الإقَامَةِ، وَثَبَتَ رِجْلاهُ لِطُمَأنِيْنَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الأمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ وَأرْضَى رَبَّهُ»[١].

ويقول سلام الله عليه في موضع آخر:

«إنَّ مِنْ أحَبِّ عِبَادِ الله إلَيْهِ، عَبْداً أعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ... فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ...

قَدْ خَلَعَ سَرَابِيْلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ إلا هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ العَمَى وَمُشَارَكَةِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيْقِ أبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أبْصَرَ طَرِيْقَهُ وَسَلَكَ سَبِيْلَهُ، وَعَرَفَ مِنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأوْثَقِهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ بِأمْتَنِهَا، فَهْوَ مِنَ الْيَقِيْنِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ»[٢].

وجاء في الحديث النبوي:

«مَا مِنْ عَبْدٍ إلا وَلِقَلْبِهِ عَيْنَانِ، وَهُمَا غَيْبٌ يُدْرِكُ بِهِمَا الْغَيْبَ، فَإذَا أرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً فَتَحَ عَيْنَيْ قَلْبِهِ، فَيَرَى مَا هُوَ غَائِبٌ عَنْ بَصَرِهِ»[٣].

١ـ نهج البلاغة: خطبة ٢١٠، في سالك الطريق. بحار الأنوار ٦٦: ٣١٦،باب ٣٧ح ٣٤.

٢ـ نهج البلاغة: خطبة ٨٦ فب بيان صفات المتقين. بحار الأنوار ٢: ٥٦، باب ١١ح٣٦.

٣ـ پرواز در ملكوت: ٤٩.

مشاهدة جمال المحبوب عند ارتفاع الحجب:

هل يصح ادعاء الإيمان والعشق والإرتباط بالحق مع حضور الحجب المختلفة أمام رؤية القلب؟ كيف يمكن أن يقول بأنه مؤمن بالله في الوقت الذي تمنع هذه الحجب من نفوذ رؤية القلب، و في الوقت الذي لم يوفق هذا الإنسان الى لقاء المحبوب ولم يوفق لرؤيته؟

إن القبول بدعوة الأنبياء عليهم السلام، والسير في طريق الأولياء، والتسليم لما جاء في القرآن الكريم، وفهم الحقائق الواردة عن المعصومين عليهم السلام، والأهم من ذلك كله العمل بالواجبات الشرعية، وتجنب النواهي الإلهية، كلها عوامل لرفع حجب القلب.

والإنسان الذي يوفق في طريق المحبوب لرفع تلك الحجب، حجاباً بعد حجاب، يصل إلى منزلة الفناء في الله والبقاء بالله.

نعم، إن قمة السعادة هي بإزالة غطاء الظلام والغفلة، والحجب الظلمانية والأوصاف الحيوانية، وأكثر الأمور تعاسة وشقاء أن تعيش مع هذه الحجب، قال تعالى:

﴿وَ الْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[١].

وقال النبي الأعظم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ لله سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُوْرٍ و ظُلْمَةٍ»[٢].

١ـ العصر ١٠٣: ١-٣.

٢ـ مرصاد العباد ٥٧. بحار الأنوار ٥٥: ٤٥،باب ٥.

كلام العارف الحر النزيه:

يقول صاحب القلب المستنير الحاج ملا محمد جعفر كبودرآهنكي:

إعلم أن روح الإنسان عندما تنتقل من عالم جوار القرب من الله تعالى إلى عالم الوحشة والتعلق بالدنيا تجتاز ثلاثمئة وستين ألف عالماً من الملك والملكوت، حيث تأخذ معها خلاصة وزبدة كل عالم تتجاوزه، وبعد أن تجتاز الروح بضعة آلاف من العوالم المختلفة من الروحانية والجسمانية ترتبط بالقالب الخاص بها، والروح عبارة عن سبعين ألفاً من الحجب الظلمانية والنورانية، والنورانية من عالم الروحانيات، والظلمانية من عالم الجسمانيات.

وبالرغم من أنه في الحال الثاني كل واحدة منها آلة لكماله، لكن حال كل روح تعتبر حجاباً، وهذا الحجاب يحرمه من مشاهدة عالم الملكوت، ومشاهدة جمال المخاطب وذوقه، وشرف القرب منه، حيث يسقط من أعلى عليين القرب إلى أسفل سافلين الطبيعة.

ولكن خلال فترة وجيزة من تعلق الروح بالقالب نسيت الروح بشكل كلي ألف سنة من الخلوة ـ في منزل خاص وبلا واسطة ـ شرف القرب مع الحق بسبب ظهور بعض الحجب:

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[١].

الإنسان لفظ مشتق من الأنس، لوجوده في محضر الأنس أولاً، حيث أخبر الحق عن اسمه بعنوان " انسان" في الزمان الماضي فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[٢].

١ـ التوبة ٩: ٦٧.

٢ـ الإنسان ٧٦: ١.

وأنه كان في محضر القدس الإلهي فيقول تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١].

كان في عالم الأرواح، وبما أنه قد ارتبط به ونسي ذلك الأنس كان من المناسب اطلاق اسم آخر عليه، فكان الخطاب الذي سيتوجه إليه في الحاضر والمستقبل المتناسب مع ذلك المعنى هو:« يا أيها الناس» حتى يتذكر أيام الأنس، لهذا قالوا:«**سمي النّاس ناساً لأنه ناس**» ولهذا جاء خطاب القرآن للنبيﷺ بقوله تعالى:

﴿وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[٢].

أي ذكّر هؤلاء الذين انشغلوا بالدنيا وملذاتها بأيام الله التي قضوها بجوار الحق وفي المقام المقدس، لعله يؤثر في ايقاظ الرحمة والمحبة التي كانت في قلوبهم، والعودة إلى مبدئه الأصلي ووطنه الحقيقي:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣] و ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٤].

وإذا تحركت محبة ذلك الوطن في القلب فهو عين الإيمان لإن «**حب الوطن من الإيمان**»[٥]، وإذا قصد الرجوع من حيث أتى من نفس الطريق فهي مرتبة الإيقان، وإذا عاد إلى وطنه الأصلي فهي مرتبة الإحسان، وإذا تجاوز

١ـ التين ٩٥: ٤.

٢ـ ابراهيم ١٤: ٥.

٣ـ القصص ٢٨: ٤٣.

٤ـ آل عمران ٣: ٧٢.

٥ـ مستدرك سفينة البحار ١٠: ٣٧٥.

الوطن الأصلي فهي عتبة العرفان، وإذا لم يتوقف هناك وخطى نحو مقام الوصول فهي درجات العيان، وبعد ذلك لا حد لوصفه، ولا يستوعبه عالم البيان.

وإذا لم تتحرك محبة ذلك العالم في القلب، ولم يرد الرجوع إليه، وتمسك قلبه بمتاع هذا العالم وارتبط به، واتباع هوى النفس، فلا شك فهو نسيان للإيمان، وهو أسفل دركات الكفر:

﴿وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[1].

وكلما تورط بهذه الحجب والإقامة بقي في الخسران الأبدي:

﴿وَ الْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[2].

فالقرآن الكريم يقسم بأن روح الإنسان إذا تعلقت بالقالب بشكل مطلق فإن مصيرها الخسران العظيم إلا الإنسان الذي تخلص من تلك الحجب بالإيمان والعمل الصالح.

ومثال تعلّق روح الإنسان بالقالب وآفاته كالشخص الذي لديه بذراً، فإذا زرعه واعتنى به، فإنه يتضاعف من مئة إلى سبعمئة، وإذا لم يزرعه حتى ينتفع منه أي انتفاع، كما إذا بث تلك البذور على الأرض ولم يتعهدها ولم يعتن بها، فإن للتربة خاصية افساد ذلك البذر، والغاء استعداده.

إذن فإن بذرة روح الإنسان ـ قبل أن تتقولب بقالبها في الأرض ـ كان لديها استعداد لكلام الحق تعالى، كما في العهد الذي أخذ منها: ﴿أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[3]،

١ـ الأعراف ٧: ١٧٦.

٢ـ العصر ١٠٣:

٣ـ الأعراف ٧: ١٧٢.

كما أنها كانت مؤهلة لإعطاء الجواب: ﴿قَالُوا بَلَى﴾[١]، بالرغم من أن هذه المزارع هي لأجل أن يصبح البصر والسمع والنطق مئة أوسبعمئة، ولكن مالم تصل بذرة الروح إلى ماء الإيمان وتربية العمل الصالح فحالها في عين الخسران، وستبقى محرومة من الرؤية والسمع والكلام الحقيقي، لأنه إذا وصل ماء الإيمان وتربية العمل الصالح إلى نموّ بذرة الروح، وتأخذه من عالم الإنحطاط البشري إلى عالم العبودية العالي، والخلاص من الدركات السفلى ـ بنفس مقدار تربيته ـ إلى درجات النجاة، وهي عبارة عن الجنان، وعندما يصل إلى مقام جني الثمار وهي مرتبة المعرفة يصبح من جملة أهل الله وخواصه.

وأما إذا لم تدرك بذرة الروح ـ والعياذ بالله ـ ماء الإيمان وتربية العمل الصالح فإنه سيخلد إلى الأرض ويأخذ طبيعتها ويختص بخصائصها: ﴿وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٢].

وسيبقى في الخسران الأبدي: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[٣].

فالطفل المولود حديثاً القريب العهد من الحضرة الإلهية، والأنس به لم يزل باقياً، والحجب لم تستحكم به بعد، عندما يبتعد عن أمه فكل لحظة يزداد شوقه لرؤية أمه يبدأ بالصريخ والعويل، حيث لايستطيع تحمّل ألم فراقها، وكلما انجذب إلى شيئ آخر مناسب لحسه وتبعه و انشغل به، ويعود إلى عالم الأنس عندما ينسى ذلك العالم المادي، «وعندما يتذكر سقوط الفيل يتذكر صراخه

١ـ الأنعام ٦: ٣٠.

٢ـ الأعراف ٧: ١٧٦.

٣ـ الجن ٧٢: ٢٣.

وعويله من الهند»[١].

وهذا المعنى يكثر حصوله للطفل في الليل، لإنه في النهار ينشغل بالأمور المحسوسة، وفي الليل أقل انشغالا بها فيكثر بكاؤه وصياحه، فتقوم الأم الحنون بوضع ثديها في فمه، وعندما يتذوق طعم الحليب يستأنس به تدريجياً حتى يغفل عن الأنس الأصلي وينساه، وإلى أن يصل إلى حد البلوغ يكون همه الأنس بالمحسوسات ونسيان عالم الغيب، وهذا ما تفعله الحيوانات مع صغارها حيث تقوم بتربيتها وتدبير شؤونها الجزئية حتى يستقل ويعتمد على نفسه، بخلاف الإنسان حيث يصل إلى مرحلة البلوغ في سن الخامسة عشر، ويصل إلى مرحلة الكمال في سن الأربعين، فيكمل جسده ويبلغ أشده، لإن طفل الإنسان عنده أنس بعالم آخر وذوق ومشرب لإدراك الغيب، وروحه تتألم لفراق ذلك العالم، ولا يمكن معرفة هذا العالم، و معرفة طبيعته إلا بمضي فترة طويلة بالتدرج نحو الإنفتاح على طبيعة العالم العلوي وربطها بالعالم السفلي حتى يصبح عالماً واحداً من هذه الجهة.

وحتى يبقى في شرف الغيب والشهادة فما هي الحيلة لجذب المنافع ودفع المضارّ بحيث لا يصل إليه أي حيوان أو شيطان؟.

أما الحيوانات فبما أنه لا علم لها بذلك العالم فهي تبذل كل جهدها في هذا العالم، وتعمل لتستو في فيه جميع لذاتها الحسية لتحقيق غاية شهواتها، وتنمو بسرعة لتصل إلى كمالها.

والغرض من ذلك أنه بعد كل حركة وقول تصدر من روح الإنسان ظاهرياً أو

١ـ مثل مترجم يضرب لتذكير الإنسان بما مضى.

باطنياً موافقة لطبعه بعد تلك الحجب الروحانية والجسمانية بسبب تعلقها بالقالب والعبور من الملك والملكوت و تؤدي إلى مزيد من الحجب والبعد عن عالم الغيب، بحيث لو أخبره ألف صادق بإنه كان في ذلك العالم فترة من الزمن لا يقبل بذلك ولا يؤمن و لا يصدّق به.

وهناك طائفة هي مورد للعناية والإهتمام، حيث أثر الأنس الذي أدركته مازال باقياً فيها، حتى وإن لم يدرك عقلها أنها كانت في ذلك العالم لفترة من الزمن، ولكن عندما يخبرها صادق القول، فإن آثار نور صدق المخبر وآثار ذلك الأنس الباقي في قلب المستمع يرتبطان ببعضهما البعض ويتعانقان لإنهما من مدينة واحدة، ويعرفان بعضهما فيؤدي ذلك إلى توافق القلوب واطمئنانها، وبالجملة فإن كل من بقي فيه بذرة إيمان من ذلك الأنس يؤمن بسرعة، ومن لم يبق فيه من ذلك الإنس شيئ لا يستطيع الإيمان:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

القلب المحروم من نور الله علة لجميع المفاسد:

تشير التحقيقات المرتبطة بحياة الإنسان وأوضاعه أن علة جميع حالات الشقاء والتعاسة والذلة ناشئة من داخل الإنسان، جميع الآلام تبدأ من الداخل، وجميع المفاسد تنشأ من هناك، ولا يمكن تحميل تلك المشاكل والآلام العوامل الطبيعية والمادية الخارجية، لإن جميع العوامل الطبيعية تتحرك وفق ارادة الخالق الحكيم الرحيم في طريق نمو البشر وتكامله، وعندما يكون قلب الإنسان سليماً يستفيد من هذه الماديات في الطريق الصحيح، وأما إذا كان القلب فاسداً ـ وهو

١ـ البقرة ٢: ٦.

منشأ فساد الأخلاق والأعمال ـ فهو يستغل تلك العوامل لتدمير نفسه والقضاء على الآخرين، وبالتالي يصيب حياته وحياة الآخرين بخسائر معنوية ومادية.

ويتحدث العارف المتخلق كاظم زاده الإيرانشهري الذي عاش لسنين عديدة في الغرب، واطلع بشكل كامل على حياة الغربيين، ويعتقد أن السبب في حصول هذه الأوضاع المخيفة هو المرض الداخلي وفساد زعماء الغرب ومجتمعه، وهناك مجموعة من العلماء المنصفين يتفقون معه في هذه المسألة، حيث يقول: إن السبب الأصلي للأوضاع التعيسة والموحشة التي تعيشها أوربا، وتلك الإنقلابات الدموية ـ التي أسقطت الحضارة الغربية في الوحل والإنحطاط ـ ليس إلا انكار النواميس الدينية الحقيقية ورفض الأخلاق الفاضلة، وهو نفس السبب الذي أدى إلى سقوط الحضارات الماضية وزوالها.

إن غفلة المؤسسين والمروجين للعلوم المادية والطبيعية وجهلهم، وأنانية المجتمع وحرصه في الحصول على المنافع وطمعه، وطلب الجاه والوجاهة هي الأسباب التي أدت بهم إلى هذه الأوضاع المريرة.

إن علماء الفنون الطبيعية اليجابية اقتلعوا شجرة الأخلاق والدين من جذورها العتيدة، وأسلموا الناس إلى شيطنة الرذائل الأخلاقية والوساوس النفسانية، كما أن عبدة الدينار والدرهم استفادوا من ضعف أفراد المجتمع وهوانهم، لإمتصاص جهد الضعفاء والمساكين وأعمالهم، واستغلال حسن نواياهم، فساقوا المجتمع الغربي نحو الموت البطيئ.

إن هؤلاء المساكين اليوم يطرقون كل باب على أمل الحصول على لقمة العيش الهنيئ، ويفنون حياتهم لتأمين مستقبلهم الآتي، وهذا لجهلهم وعدم قدرتهم، والذي كان نتيجة لتعليمات عبدة المادية أصحاب الفنون الطبيعية

الموجبة الذين استفادوا من الطبقة الضعيفة في المجتمع مادياً بحكم الجهل وعدم القدرة، حافظوا على مقاماتهم الرئاسية واستمرار تسلطهم. فهم لا يسمحون للعامل والتاجر و الكاسب بالعمل إلا بمقدار ما يدر عليهم من مصلحة ومال. فمنبع شقاء أفراد المجتمع وضياعه فساد الأخلاق واللادينية واللانسانية عند الطبقات العليا في المجتمع المسيطرين على زمام الأمور الإقتصادية والدينية والإجتماعية.

فعليه يجب الاذعان بإن سبب الشقاء والتعاسة المباشر ليست الإكتشافات، وليست التحقيقات في العلوم الطبيعية، ولا الآلات والإختراعات، ولا التطور الفني والتقني، بل سوء استخدامها نتيجة فقدان الحس الديني ومكارم الأخلاق، وهذه الحال الموحشة تؤدي إلى الشقاء والتعاسة.

فالمعامل والسيارات والأجهزة والآلات والحديد وغيرها لا تملك روحاً وإرادة، فلا تستطيع بنفسها إدخال السرور والسعادة على أي شخص. بل إن المسؤول عن شقاء الناس وتعاستهم هو من يستخدم هذه الوسائل والأدوات المتطورة لتحقيق المصالح والمنافع الشخصية غير المشروعة، وتحويل وسائل الراحة والرقي إلى وسائل للقتل والدمار والهلاك. كما هي الحال في الطائرات العصرية التي تعد من أهم اختراعات القرن وأكثرها فائدة، فقد اختصرت المسافات بين الدول، وساعدت على التعارف بين الأمم، وقللت المسافات الطويلة زمنياً، ولكن إذا استعملت للغايات العسكرية، وشن الحروب التدميرية، ستكون وسيلة للدمار والقتل، فلا تقصير عليها بل التقصير يقع على عاتق الأشخاص الذين يسئون استخدامها.

بخلاف ما إذا استخدمت وسائل النقل الجوية هذه في نقل التموين والبضائع يسيئون المحاصيل والزراعية، والسفر، ولا شك أنها تساعدنا في تقديم خدمات

انسانية جليلة في نقل المؤن والمساعدات للمناطق النائية، وانقاذ شعوب المناطق المنكوبة، وادخال السرور والبهجة على الشعوب المحرومة، وكذلك سائر الآلات والإختراعات والتطورات التقنية والفنية والتي تزداد يوماً بعد يوم.

فإذن يجب عدم التوقف عن صنع الآلات والأجهزة التقنية والإكتفاء بالوسائل البدائية واليدوية، وعدم الإكتفاء بماهو موجود بين أيدينا، من خلال توهّم أن هذه الآلات هي سبب شقاء الناس وتعاستهم كما يصوره بعضهم.

ولابد من القضاء على الفكر السيئ والحرص والطمع والجهل وعبادة الذات وطلب الجاه والعدوان.

فيجب تغيير أفكار الأشخاص وطباعهم وأخلاقهم واصلاحها، لأن مصير الشعوب مرهونة بأيدي هؤلاء الأشخاص، ولإن سعادة الشعوب مرتبطة بالحس الفكري الخلاق، والحس الديني والفضائل الأخلاقية

ويجب بيان وإظهار هذه الحقيقة وهي: أن أسباب شقاء البشر وتعاستهم ليست في الأمور المادية والخارجية بل في قلوبهم وعقولهم، وبالخصوص في قلوب وعقول زعمائهم وقادتهم.

وأما تلك الإجراءات والتدابير الخارجية والقوانين والأنظمة والتهديدات والأوامر والنواهي والحبس والإجبار التي تسنها وتفرضها الدول الأوربية لن تحل مشكلة الإضطراب وعدم الإرتياح لإن الألم الحاصل هو في الباطن، والدواء والعلاج الذي يجب تقديمه في الباطن أيضاً.

إذن فإن تلك الحضارات هشة في أسسها وقواعدها، ولا يمكن تدعيمها وتثبيتها من خلال الترميم الظاهري والتعديلات الخارجية. ومن العجيب مع الإنتشار الواسع للعلوم والفنون والفلسفة والحكمة في أوربا نجد الجهل والغفلة

مهيمناً على عقول وقلوب المجتمع في تلك البلاد وبالخصوص على الزعماء، وذلك لإن أكثر الناس إما أنهم لا يستطيعون اتخاذ خطوة تجاه هذه المسائل، أو لأنهم لا يريدون ذلك.

إضافة إلى أن أكثر الإختراعات والتطورات التقنية في الوقت الراهن هي لكسب المنافع المالية وتحصيل الثروة، فالشرط الأول والأساس للإقدام على أيّ عمل هو مقدار ما يدر من أرباح مالية فقط. فكل عمل يدر أرباحاً مالية أكثر بأي وسيلة وبأي اسم كان؛ فهو عمل مشروع ومقبول حتى وإن أدى إلى حرمان الآلاف من الناس من لقمة العيش، أو تعريض حياتهم للخطر أو الموت.

وبالنتيجة فإن أكثر الشعوب الغربية في ظل غياب الرادع الأخلاقي والضمير و الوجداني والمانع النفسي والديني لا عمل لهم ولا تفكير سوى جمع الثروات إلى حد الهوس وعبادة الذات وملأ البطون والخطف والإغارة على بعضهم البعض بأي عنوان كان، ويعتبرون ذلك أمراً مشروعاً!.

وقد أن يقال إذا كانت هذه الأوضاع تجلب السعادة لجميع أفراد هذا المجتمع من الناحية المالية فلا بأس بذلك، فدعهم يقضون أيام عمرهم هذه بسعادة وراحة؛لأن هؤلاء الناس جهلة ولا يعتقدون بحياة إخرى أو بحياة أشرف، ولكن للأسف لا أثر واضح لتلك السعادة والراحة الظاهرية المادية.

إن هذه الغفلة والجهالة والعمى هي نتيجة التربية غير الصحيحة، في ظل التربية المبنية على المعلومات الناقصة للفنون الطبيعية الموجبة، وعلى عبادة الفلسفة المادية لا وجود للحياة الدينية، ومكارم الأخلاق، والأمور المعنوية، وحقائق العلوم الروحية، و الأحكام السماوية.

هذه الأوضاع الصعبة والعسيرة هي نتيجة شيوع الفساد في الحضارة الغربية،

فأطلق بعض المفكرين تعبير الشيطان الدجال على هذه الأوضاع، حيث اعتبروها علامات لإنقراض الحضارة الغربية، لأن التاريخ يكشف لنا إن زوال الأمم السابقة كان متزامناً مع شيوع الفساد الأخلاقي وعبادة الذات والمظاهر، والتسلط والحرص والظلم[١].

و من خلال هذه المقالة المهمة والبنّاءة ندرك أن الدين هوالطريق للنجاة من كل وضع يؤدي إلى الكآبة والشقاء، ويجب العلم بأن الإعتقاد بالدين هو وظيفة القلب، وتجلّي هذا الإعتقاد يتحقق في بيت القلب بصورة الإيمان، وفي الأعضاء والجوارح بالعمل الصالح، وعلى صفحة النفس بصورة الأخلاق الحسنة، وأما إذا حرم القلب من النور العظيم للإيمان بالله، فلا يمكن بعد ذلك وفق القانون أن يؤخذ إلى ميدان الصلاح، وبالنتيجة لا يمكن الحد من الفساد الأخلاقي والفساد العملي الذي سينجر إليه.

ومن هنا يجب التمسك بالكلام القيم للإمام الصادق عليه السلام والقول:

بأن القلب المحروم من التوجه إلى الحق ونور الإيمان هو قلب متوقف، والقلب المحروم من الحياة المعنوية والخامل ليس بسعيد، والروح الأسيرة لدى القلب الغافل ليست بمأمن عن الفساد الأخلاقي، والأعضاء الواقعة تحت إمرة هذا القلب ميتة، ولا يتوقع منها إلا الجريمة والخيانة والإعتداء والفساد، وفي الحقيقة يجب القول إن «وَقْفُ الْقَلْبِ فِي الْغَفْلَةِ عَنِ الله».

فهيا بنا لنتمسك بالدين الحقيقي، ونرتبط بالأحكام السماوية النورانية، بالإعتماد على القرآن المجيد، والإهتمام بكلمات الأنبياء والأئمة عليهم السلام، والأولياء

١ـ الأصول الأساسية لفن التربية: ٢١٠.

والعرفاء والمربين المخلصين، لنصلح ذواتنا من الداخل، حتى نوفق لإصلاح جميع أمور حياتنا.

«ألا تَرَى أنَّ العَبْدَ إذَا ذَكَرَ اللّهَ تَعالى بِالتَّعْظِيم خالِصاً ارْتَفَعَ كُلُّ حِجَابٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللّهِ مِنْ قَبلِ ذَلِك»

إن التفكير في ارتباط الموجودات في العالم بالنسبة لخالقها تؤدي بالإنسان إلى الإعتقاد بأن جميع المخلوقات في العالم سواء المخلوقات الغيبية أو الشهودية هي فقر محض، واحتياج صرف، وتعلق تام، ومع ادراك هذه الحقيقة كيف يمكن لإنسان عارف أن يرى الموجودات الكبيرة ظاهراً كبيرة وعظيمة، ومن جهة عندما يرى بقلبه وعين عقله خالق هذه الموجودات يصاب بالحيرة والدهشة، ويدرك أن حضرة الحق تعالى كمال محض، ويتصف بصفات ثبوتية لا نهاية ولا حصر لعددها، ولا يشاهد في تلك الساحة المقدسة إلا الكبرياء والعظمة، والقلب هنا هو أفقر الموجودات، وستعود كل هذه الآثار والظلال الحرة الغارقة في التعلق الخالص إلى قلوبها، ولا يوجد إنجذاب سوى الإنجذاب إلى المعشوق التحقيقي، ولا يوجد للإنسان فكر وذكر وعشق وورد ومعشوق غير حضرة الحق تعالى.

و الإنسان في هذا المقام في ميدان في الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله، فهو إلهي محض، ورباني صرف، وهذا هو معنى رفع الحجاب بين العبد وربه.

«وَإذا انْقادَ القَلْبُ لِمَوْرِدِ قضَاء اللّه بِشَرْطِ الرِّضَا عَنْهُ كَيْفَ لا يَنْفَتِحُ القَلْبُ بِالسُّرورِ وَالرُّوحِ وَالرَاحَةِ»

فالقلب الملتفت إلى أن جميع المخلوقات فقر محض، وأنها ليست إلا وسيلة للوصول إلى المحبوب، ونال شرف النظر إلى عظمة الحق سبحانه وتعالى بمعونته، يرى ـ بكامل الرضاـ أن جميع ما نزل من الله سبحانه وتعالى حق، وعندما تشتد به المصائب والبلاءات يكون في قمة اللذة والسرور.

«وَإذَا اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بِشيء مِن أسْبَاب الدُّنْيا كَيْفَ تَجِدُه إذَا ذَكَرَ اللّهَ بَعْدَ ذلِك مُنْخَفِضاً مُظْلِمَاً كَبَيْتٍ خراب خَاوٍ لَيْسَ فيهِ عِمَارةٌ وَلا مؤنس».

«وَإذا غفَل عَنْ ذِكْرِ اللّه كَيْفَ تَرَاهُ بَعْد ذَلِك مَوْقوفاً مَحْجُوباً قَد قَسا وَأظْلَمَ مُنْذُ فَارَقَ نُوْرَ التَّعْظِيم».

«فَعلامةُ الرَّفعِ ثَلاثَة أشياء: وُجودُ المُوافقَةِ، وفقْدُ المُخَالفةِ، وَدوَامُ الشَّوْقِ».

علامات رفع القلوب:

أي أن رفع القلب وسموه يتحقق بذكر الله سبحانه وتعالى من خلال ثلاثة أشياء:

١- الإلتزام الكامل بالأوامر الإلهية والإجتناب الحقيقي عن المحرمات.

٢- عدم تلوث القلب بالذنوب والمعاصي.

٣- الإشتياق الدائم للإرتباط بالمحبوب، وكسب رضاه في جميع شؤون الحياة.

«وَعلامَةُ الفَتْحِ ثَلاثَةُ أشياء: التَّوكلُ والصِّدْقُ واليقينُ».

علامات فتح القلوب:

وعلائم فتح القلب في مرتبة الرضا ثلاثة أمور:

١- التوكل

٢- الصدق

٣- اليقين

وهذه الصفات الثلاث سيتم شرحها وتوضيحها إن شاء الله في طيات شرح كتاب «**مصباح الشريعة**» بشكل موسع ومفصل.

«وَعلامةُ الخَفْضِ ثَلاثَةُ أشياء: العُجْبُ، والرِّياء، والحِرْصُ».

علامات خفض القلوب:

وعلائم على الغفلة عن حضرة الحق تعالى ثلاثة أمور:

١- **الحرص**: لإن الغفلة عن المحبوب توجب الغفلة عن الموت، والغفلة عن الموت علة للحرص وطول الأمل.

٢- **الرياء**: لإن البعد عن ذكر الحق يستلزم السعي لشدّ أنظار الآخرين إليه، وخصوصاً في الأمور العبادية، فإضافة إلى كون هذا الأمر منافٍ للعبودية فهي تهوي به إلى الشقاء والكآبة، وتحرمه من الشمول لرحمة الحق تعالى.

٣- **العُجب**: وسيأتي شرح موسع لهذه الأمور الثلاث في طيات هذا الكتاب.

«وَعلامَةَ الوَقْفِ ثلاثَةُ أشياء: زَوالُ حَلاوةِ الطَّاعَةِ، وعَدَم مرَارَةَ المَعْصِيةِ، والتِباسُ علْمِ الحَلالِ بالحَرَامِ»

علامات وقف القلوب:

وعلائم وقف القلب ثلاثة أمور:

١- **زوال حلاوة العبادة**: لإن حلاوة العبادة تنجم عن حضور القلب، واطمئنان الخاطر، فكيف يستلذ قلب انسان بحلاوة العبادة والعبودية؟ وهو في حال الوقف، وهي مرتبة الغفلة !!.

٢- **عدم مرارة المعصية**: عدم الإحساس بمرارة المعصية هي من علائم غفلة القلب، لإن ادراك مرارة المعصية والذنب فرع لصفاء الباطن، وفي فترة الغفلة عن الحق والوقف لا يشعر القلب بحلاوة الطاعة ولذتها، ولا تبرز المعصية مرارة ارتكابها. ومالم يدرك الإنسان مرارة المعصية لا يستطيع تجنبها.

أما لو اتفق لأحد من أهل الله الوقوع بالمعصية أو ترك الأولى ـ سواء كان ذلك باختياره أو بسبب الإضطراب ـ فهو يشعر بمرارتها الشديدة وثقلها على نفسه، فيبادر فوراً لتدارك ذلك بالإستغفار والتوبة، بخلاف ما عليه حال أهل الدنيا وأصحاب القلوب القاسية. فهؤلاء يشعرون بثقل عبادة الحق ومرارتها، ويلتذون بعبادة المخلوق وحلاوتها. بل إنهم على استعداد للعمل ليلاً ونهاراً، وتحمل

المصاعب والجوع والعطش لخدمة أرباب الدنيا الأراذل للحصول على مقام أو سلطة في الدنيا. وأمّا صلاة ركعتين في وقتها فيه ثقيلة عليه لا يستطيع أداءها!!.

٣- **عدم المبالاة في الحلال والحرام:** إن المصاب بالوقف لا يبالي بما يقدم إليه من طعام أو شراب أو لباس وغيرها سواء كان حلالاً أو حراماً، فيقدم على ذلك من دون تثبت أو تفحص، فحاله كحال البقرة التي تعلف ما يقدم لها كيف ما كان ومن أين ما كان على حد سواء.

إلى هنا تم شرح وتوضيح الباب الثاني من كتاب «**مصباح الشريعة**»، نسأل الله الغفور الرحيم أن ينوّر قلوبنا بنور الحقيقة، وأن يجعل قلوب العاشقين محلاً وميداناً لتجلي أنوار جماله وصفاته.

الباب

(٣)

في بيان الرعاية

قال الإمام الصادق ﵇:«مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنْ الغَفْلَةِ، وَنَفْسَهُ عَنْ الشَّهْوَةِ، وعَقْلَهُ عَنْ الجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيْوانِ الْمُنْتَبِهِيْنَ. ثُمَّ مَنْ رَعَى عِلْمَهُ عَنْ الْهَوَى، وَدِيْنَهُ عَنْ الْبِدْعَةِ، وَمَالَهُ عَنْ الْحَرَامِ، فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّالِحِيْنَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، وَهُوَ عِلْمُ الأَنْفُسِ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُوْنَ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي شُكْرٍ أَوْ عُذْرٍ، عَلَى مَعْنَى إنْ قُبِلَ فَفَضْلٌ، وَإِنْ رُدَّ فَعَدْلٌ. وَتُطَالِعُ الْحَرَكَاتِ فِي الطَّاعَاتِ بِالتَّوْفِيْقِ، وَتُطَالِعُ السُّكُونَ عَنْ الْمَعَاصِي بِالْعِصْمَةِ، وَقَوامُ ذَلِكَ كُلِّهُ بالإِفْتِقَارِ إِلَى اللهِ، وَالإِضْطِرَارِ إِلَيْهِ وَالْخُشُوْعِ وَالْخُضُوعِ، وَمِفْتَاحُهَا الإِنَابَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَعَ قَصْرِ الأَمَلِ، وَعِيَانُ الْوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَي الْجَبَّارِ، لإنَّ فِي ذَلِكَ رَاحَةً مِنْ الْحَبْسِ، وَنَجَاةً مِنْ الْعَدُوِّ. وَسَلامَةُ النَّفْسِ وَالإِخْلاصِ فِي الطَّاعَةِ بِالتَّوْفِيْقِ، وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنْ يُرَدَّ الْعُمْرَ إِلَى يَوْمٍ وَاحِدٍ.

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سَاعَةٌ فَاجْعَلْهَا عِبَادَةً، وَبَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي مُلازَمَةِ الْخَلْوَةِ بِمُدَاوَمَةِ الْفِكْرَةِ، وَسَبَبُ الْخَلْوَةِ الْقَنَاعَةُ وَتَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْمَعَاشِ، وَسَبَبُ الْفِكْرَةِ الْفَرَاغُ، وَعِمَادُ الْفَرَاغِ الزُّهْدُ، وَتَمَامُ الزُّهْدِ التَّقْوَى، وَبَابُ التَّقْوَى الْخَشْيَةُ، وَدَلِيْلُ الْخَوْفِ التَّعْظِيْمُ للهِ تَعَالَى، وَالتَّمَسْكُ بِتَخْلِيْصِ طَاعَتِهِ وَأَوَامِرِهِ، وَالْحَذَرُ مَعَ الْوُقُوْفِ عَنْ مَحَارِمِهِ، وَدَلِيْلُهَا الْعِلْمُ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

---

١ - فاطر ٣٥: ٢٨.

«مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنْ الْغَفْلَةِ، وَنَفْسَهُ عَنْ الْشَهْوَةِ، وَعَقْلَهُ عَنْ الْجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيْوَانِ الْمُتَنَبِهْينَ»

الغفلة:

إن الغفلة بالنسبة للقلب هي من أخطر العوامل وأجملها، لإن القلب الغافل هو القلب البعيد عن الوحي والإلهام، والبعيد عن أوامر الأنبياء والأولياء والأئمة والحكماء الإلهيين.

إن تصفية القلب وإيقاظه ليس من وظيفة العلوم المادية والظاهرية، فلو كانت وظيفة العلوم المادية كذلك لأزالت عوامل الشقاء والكآبة من حياة البشر إلى وقتنا الراهن. ولكن التجارب أثبتت أن العلوم المادية لم تزد المقتدرين إلا قدرة وتسلطاً، والظالمين إلا ظلماً، والطغاة إلا طغياناً، والمعتدين إلا اعتداءً، وزادت في مشاكل البشر وهمومهم آلاف المرات.

يقول الفيلسوف العارف المرحوم ملا صدرا في بداية كتابه القيم **«أسرار الآيات»**: إن رأس السعادات ورئيس الحسنات هو اكتساب الحكمة الحقة، أعني: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملكه وملكوته، والعلم باليوم الآخر ومنازله ومقاماته من البعث والحشر والكتاب والميزان والحساب والجنة والنار، وهي الإيمان الحقيقي والخير الكثير والفضل العظيم المشار إليه في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيْراً﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿هُوَ الْذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيْنَ رَسُوْلاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيْهِمْ.....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾[٢].

وقوله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ...﴾[٣].

إلى آخر الآية، والإشارة إلى أن الكفر والضلال مقابل هذا العلم، أعني الجهل بهذه المعارف قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيْداً﴾[٤].

فظهر أن الإعتقاد بهذه الأمور هو الإيمان الحقيقي، وبه يحصل الكرامة عند الله والزلفى لديه، وذلك لإن الإنسان باكتساب هذه العلوم الإلهية يصير من حزب الملائكة المقربين بعد ما كان من جنس الحيوانات المبعدين.

وأن الجهل بهذه المعارف الإلهية وجحودها ـ مع وجود الإستعداد وقوة التعلم، ومكنة التحصيل ـ رأس الشقاوات والعقوبات، وأنه مادة كل مرض ونفاق

---

١ - البقرة ٢: ٢٦٩.

٢ - الجمعة ٦٢: ٢-٤.

٣ - البقرة ٢: ٢٨٥.

٤ - النساء ٤: ١٣٦.

نفساني، ومغرس كل شجرة ملعونة وشجرة خبيثة في الدنيا والآخرة، وهو منشأ العذاب الأليم والخسران العظيم، والحسرة والندامة يوم القيامة، يقول القرآن الكريم عن هؤلاء الغافلين عن الحقائق والبعيدين عن عالم اليقظة:

﴿أوْلَئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأبْصَارِهِمْ وَأوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ* لا جَرَمَ أنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُوْنَ﴾[1].

وقال تعالى عنهم أيضاً:

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَأنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُوْنَ﴾[2].

وعلى هذا فإنه يمكن أن نستفيد من القرآن الكريم أن الغفلة من الحقائق، وأنها سبب لكل الشقاوة والجهل بالمعارف، وأنها علة لكل أنواع الفساد وعدم التوجه بالواقعيات الإلهية، ومورث لكل أنواع الكآبة والتعاسة.

الغفلة في القرآن الكريم:

أشار القرآن المجيد إلى موضوع غفلة البشر عن الحقائق الإلهية في آيات عديدة[3]، ووصف أهل الغفلة بأهل العذاب والخسران، وفي حالة عدم التوبة من

---

١ - النحل ١٦: ١٠٨-١٠٩.

٢ - المجادلة ٥٨: ١٩.

٣ - ما يجدر الالتفات اليه في هذا الباب هو أن الله عزوجل يبرئ نفسه عن صفة الغفلة و يحذر عباده منها:

الذنوب الكبيرة يكون مآله الخلود في جهنم:

قال الله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[١].

ويروي علي بن ابراهيم في «**تفسير البرهان**» أنها نزلت في سلمان الفارسي، كان يلبس كساءً فيه طعامه، وهو دثاره ورداؤه، وكان كساءً من صوف، فدخل عيينة بن حصين على النبي ﷺ وسلمان عنده، فتأذى عيينة بريح كساء سلمان، وكان قد عرق فيه، وكان يومئذ شديد الحر، فعرق في الكساء، فقال يارسول الله: إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا وحزبه من عندك، فإذا نحن خرجنا فادخل من شئت، فأنزل الله:

(وَ لاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) الاعراب ٧: ٢٠٥

و الى هذا تشير الآيات القرآنية.

(وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) البقرة ٢٢: ٧٤ و ...

(وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) البقرة ٢٢: ١٤٤ و ....

(وَ لاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) ابراهيم ١٤: ٤٢

(وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) المؤمنون ٢٢٣: ١٧

١ - الكهف ١٨: ٢٨.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾[١].

فلأمثال هؤلاء الناس البعيدين عن الحقائق نزلت فيهم هذه الآية، لإنهم لا يرون العالم وما يحدث فيه إلا بالنظرة المادية، ولا ينظرون إلى عالم الخلقة العظيم إلا من زاوية الجوانب الظاهرية فيه فقط، ويقيسون جميع الأمور بالمقياس المادي، وهذه النظرة المادية لعبدة المادة والظاهر هي بسبب غفلة قلوبهم ونسيان الله، لهذا صرّح القرآن الكريم: بأن هؤلاء خارجون عن طريق الحق، ويجب على الإنسان أن لا ينفصل وينقطع عن رجالات الله والسالكين في طريق العشق والمحبة، بل عليه ملازمتهم ومصاحبتهم، فالنجاة والفوز بهؤلاء السائرين على طريق الحق وإن كانوا معدومي الحال من الناحية المادية.

غفلة الأمم:

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[٢].

ولتوضيح هذه الآية المباركة نقول: إن غفلة الأمم على قسمين:

الأول: الغفلة الموجودة قبل بعثة الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، ومن الواضح أن هذه الغفلة هي بسبب عدم إرسال الكتب وإنزالها، وهي ليست مورداً للعقاب وإنزال العذاب، وهذا له منشأ عقلي وهو قبح العقاب بلا بيان، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى مادام لم يبلغ مراده إلى الأمة فهو لا يحمّلهم مسؤولية عدم إطاعتهم له، ولا يعذبهم على ذلك.

---

١ - البرهان في تفسير القرآن ٣: ٦٣٠ ح ٦٦٥٩.

٢ - الأنعام ٦: ١٣١.

الثاني: الغفلة الحاصلة بعد نبوة الأنبياء وإمامة الأئمةعليهم السلام، حيث أثبت أنبياء الله سبحانه وتعالى صدقهم و صدق دعواتهم بالبينات والمعجزات، وبذلوا الغالي والنفيس حتى آخر نفس من حياتهم لإبلاغ رسالات الله إلى البشر التي تدعوهم إلى خير الدنيا والآخرة، أما الأمم التي واجهت دعوات الأنبياءعليهم السلام بالصد والمحاربة، ورفضت القواعد الإلهية، وواصل اشقياؤها حياتهم في غفلة تامة، فلا شك في استحقاقهم للعذاب، وهذه هي الحقيقة المستفادة من الآية الكريمة.

نعم إن الغفلة ـ مع وجود الأنبياءعليهم السلام والأئمةعليهم السلام والكتب الإلهية والفقهاء الأمناء على الشريعةـ عن ثقافة الحياة الحقة سبب في ظهور الفساد والرجس والمعاصي والإعتداءات، وقد قضت السنن الإلهية في هلاك الأمم الفاسدة والمجرمة بسبب فسادها وإجرامها.

الإنسان أضل من الحيوان:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيْراً مِنَ الْجِنِّ وَالأَنْسِ لَهُمْ قُلُوْبٌ لا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُوْنَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ﴾[١].

ويمكن أن نستفيد من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أن مقصود الحق تعالى من خلق الإنسان، وصوله إلى الرشد والكمال الإلهي والخلود في جنّات النعيم، وأن الأرضية للرشد والكمال والسعادة والسلامة موجودة في كل انسان

---

١ - الأعراف ٧: ١٧٩.

بالقوة، وخروجها إلى مرحلة الفعلية مشروط باتصال الإنسان بنبوة الأنبياء وإمامة الأنبياء عليهم السلام.

إنه الإسلام الذي ربى سلمان الذي جاء من قرية في إيران، وأبا ذر القادم من الصحراء، وبلال من الحبشة السوداء، وياسر وسمية أسيري الرق.

إن الغاية من خلقة الإنسان الكمال في الدنيا والجنة في ذلك العالم، وأن مفاد ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيْراً مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ...﴾ ليس بيان الغاية الواقعية والأساسية، بل هو نتيجة لعدم قبول الإنسان لشروط الكمال، وصيرورته جهنمياً في مقابل إرادة الحق، لإن معنى ﴿ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا لا غير، وذلك لإن بقية الآية ﴿لَهُمْ قُلُوْبٌ لا يَفْقَهُوْنَ بِهَا﴾ تشير إلى أن هؤلاء لم يستفيدوا من الإستعدادات التي أنعم الله بها عليهم، بل محوها من كيانهم وأزالوها، وذلك بسبب عبادة الإنسان لهواه وإطاعته لشياطين الداخل والخارج.

ومادام الإنسان قد ابتلى بالإفراط والتفريط في جميع شؤون حياته، وخرج عن جادة الإعتدال والصراط المستقيم، ولا هم له إلا إرضاء شهواته وبطنه، والحصول على المال والجاه، والإنقياد لحاكمية الطاغوت والمعايير المادية، فلا تنفعه مشاهدة الآيات والآثار الإلهية، ولا يفيده سماع الكلمات الحقة الجارية على لسان الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهذا معنى ﴿لَهُمْ قُلُوْبٌ لا يَفْقَهُوْنَ بِهَا....﴾ وهؤلاء الناس هم أضل من الأنعام، وفي الحقيقة هم أهل الغفلة، الغفلة التي تؤدي إلى هلاكهم، وتوجب خلودهم في جهنم يوم القيامة.

وأما إذا ارتبط الإنسان بالوحي، والتزم بتطبيق الأحكام الإلهية، وتحرر من عبودية المادة، وابتعد عن المرض الخطير وهو الغفلة، وبنى حياته على اليقظة

والوعي، فهو أفضل من جميع موجودات العالم.

يقول عبد الله بن سنان: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام: إن الله عزّ وجلّ ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو أشر من البهائم[١].

أصحاب الغفلة مأواهم النار:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُوْنَ لِقَاءنَا وَرَضُوْا بِالْحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُون* أُوْلَئِكَ مَأوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

والمقصود من يرجون لقاء الحق ـ بحسب الآيات القرآنية ـ أي لديهم الإيمان واليقين بعالم الآخرة، وبلا شك فإن الشخص الذي ينكر القيامة، وينكر الجزاء والجنة والنار وأوامر الحق ونواهيه، سيؤدي به إلى إنكار الوحي والنبوة وما يتفرع على رسالات الأنبياءعليهم السلام.

وإذا أنكر الإنسان القيامة يصبح كل همه الحياة المادية المحضة، وأنه لا حياة إلا في هذه الدنيا.

ونحن نعلم أن كل موجود يرغب في البقاء والسعادة بالفطرة، وبما أن

---

١ ـ علل الشرائع ١: ٤،باب ٦ح١. بحار الأنوار٥٧: ٢٩٩،باب ٣٩ح٥.

٢ ـ يونس ١٠: ٧ـ٨.

الإنسان يمتاز على سائر الموجودات بامتيازات كثيرة فبطريق أولى يرغب في البقاء والسعادة. فإذا كان قلبه مستنير بنور الإيمان واليقين فهو يريد سعادة الدنيا والآخرة، وأما إذا كان معتقداً بعدم وجود حياة أخرى غير الحياة الدنيا فسيعلق كل همه وإرادته بالحياة المحدودة لطلب السعادة الظاهرية ولا حاجة له بعالم الآخرة.

وهذا الفهم والتصور عن الحياة الإنسانية ناتج عن الغفلة عن آيات الله سبحانه وتعالى، لأن انكار لقاء الله ونسيان يوم الجزاء والحساب يؤدي إلى الإطمئنان بالحياة الدنيا والركون إليها، وانحصار علم الإنسان بالحياة الحيوانية.

وأن الإعتقاد بالمعاد ـ الذي أثبت حتميته مئة وأربعة عشر كتاباً سماوياً، ومئة وأربع وعشرون ألف نبيّ، واثنا عشر إماماً، وجميع عشاق جمال الحق تعالى بالإستدلال المتين والبراهين الواضحة ـ هو أساس الدين وقاعدته، وعلة لقبول الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، والوحي والنبوة، وحلال الله وحرامه، وتربية النفوس وتزكيتها.

والمنكرون لهذا اليوم في أعمالهم وعلاقاتهم وأخلاقهم مع الآخرين من أبناء جلدتهم، فيقدمون على كل ما اشتهت أنفسهم، أن هؤلاء مستحقون للعذاب الأبدي في نار جهنم!!.

ينقل صاحب تفسير «**البرهان في تفسير القرآن**» عن علي بن إبراهيم نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن المراد من الآيات في ـ ﴿**عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُون**﴾ أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام والدليل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: ما لله آية أكبر

مني»[١].

أكثر الناس غافلون:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيْكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُوْنَ﴾[٢].

إن قصة فرعون وموقفه الظالم مع النبي موسى وأخيهﷺ من عجائب الدهر، وهي من أعظم العبر و اكثرها أثراً للمعتبرين.

إن الاطاحة أعظم قدرة في في ذلك العو بيد شخص واحد لا يملك من القدرة والأسلحة الظاهرية إلا عصى يرعى بها الغنم لهي أفضل موعظة للظالمين وأصحاب الثروات الناهبين. ولقد أثبت التاريخ انتصار الحق بأي مظهر كان على الباطل مهما تعاظمت قوته واتسعت قدرته. بحيث نجد بني اسرائيل عندما خرجوا من البحر لم يصدقوا أن فرعون وجيشه قد غرقوا في البحر لكبر جيشه وعظمة قدرته، فعندما طلب النبي موسىﷺ من الله العزيز الجبار الخلاص مما هو فيه، استجاب الله سبحانه وتعالى و اذا بجثة فرعون تندفع من أعالي أمواج البحر الهائجة إلى الشاطيء، فأقبل بنو اسرائيل جماعة جماعة يتفقدون جسد فرعون، ليقفوا على انتصار الحق.

وبعد ذلك قام المرتبطون بفرعون بحمل جسده إلى مصر وتحنيطه، وجسده موجود حالياً في المتحف الكبير بمصر، ليكون درساً و عبرة لجميع العالمين كما

---

١ - البرهان في تفسير القرآن٥: ١٣، ح٤٨٤٦. نقلا عن تفسير القمي١: ٣٠٩.

٢ - يونس١٠: ٩٢.

ذكر ذلك القرآن الكريم. ولكن أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول في باب الحكم من «**نهج البلاغة**»:

«ما أكثر العبر وأقل الإعتبار»[١].

فلو نظر الإنسان بشيء من التأمل في أصغر أجزاء العالم وأعظمها لأدرك أن جميع الحركات والحوادث الحاصلة هي موعظة وعبرة لمن أرد الإعتبار. لهذا نجد أصحاب طريق الحق اليقظين يحرصون على عرض ما حدث في التاريخ كموعظة ونصيحة و جرس انذار لإيقاظ الإنسان من غفلته وسباته من خلال نظم الشعر والنثر.

ولكن مع كل هذه العبر والمواعظ فإن أحسن وسيلة لإيقاظ الإنسان هي التفكير في الحوادث لكونها من أفضل علل إسعاد البشر. وفي المقابل يقول القرآن الكريم إن كثيراً من الناس لغافلون، وغفلة القلب عن الحقائق هي التي أدت بالإنسان بالوقوع في منحدر السقوط والهلاك، وتقديم كل ما جناه طوال العمر من جهد ومشقة إلى الشيطان اللعين، وفي النهاية لن يحصد هذا الإنسان من عمله إلا الحسرة والندامة والكآبة، والخجل والوزر الثقيل من الذنوب والمعاصي.

يقول القرآن المجيد حول قصة فرعون والعبرة منها في موضع آخر:

عاقبة الغافلين:

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ

---

١ - نهج البلاغة: الحكمة٢٩٧. بحار الأنوار ٤٨: ٣٢٨،باب ٨٠

كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[١].

إن الغفلة عن حلال الله وحرامه وأوامره هي السبب في شقاء بني اسرائيل وغيرهم من الأمم في التاريخ، حيث يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن مصير فرعون وبني اسرائيل فيقول:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِيْنَ يَتَكَبَّرُوْنَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوْا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوْا عَنْهَا غَافِلِيْنَ﴾[٢].

ويستمر القرآن الكريم في عرض بقية الأحداث للنبي الأكرمﷺ في سورة مريم فيقول:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُوْنَ﴾[٣].

ويقول في سورة الأنبياء:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُوْنَ﴾[٤].

وفي آخر هذه السورة يبين القرآن هذه الحقيقة فيقول:

---

١ - الاعراف ٧: ١٣٦.

٢ - الاعراف: ١٤٦.

٣ - مريم ١٩: ٣٩.

٤ - الانبياء ٢١: ١.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾[١].

ويشير القرآن الكريم في سورة الروم إلى هؤلاء الناس الذين ينظرون إلى الحياة الدنيا بمنظار مادي ويعملون لها فيقول:

﴿يَعْلَمُوْنَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُوْنَ﴾[٢].

الغفلة في الروايات:

من خلال التأمل في كلام الأئمة عليهم السلام القيم، الصادر من القلوب النورانية والخالية من الغفلة والضلال، فان ذلك يفضي الى ما يوجب إضاءة القلوب المبتلية بالرين والصدأ، وكشف حقائق الوجود، ومن ضمن الكلمات المقدسة التي نطق بها أولياء الله العظام لإزالة حجب الغفلة عن قلوب البشر، كلام أمير الكلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سأله أن يعظه، ولهذه الموعظة قيمة خاصة حتى أن جامع كتاب «**نهج البلاغة**» المرحوم السيد الرضي أعلى الله مقامه قال في وصف هذه الموعظة:

ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة وحكمة بالغة وبصيرة لمبصر وعبرة لناظر مفكر يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

١ - الانبياء ٢١: ٩٧.

٢ - الروم ٣٠: ٣.

«لا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيُرجِّي التَّوْبَةَ بِطُولِ الأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إنْ أعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وإنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجَزُ عَنْ شُكْرِ مَا أوتِي، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقَى، يَنْهَى ولا يَنْتَهِي، وَيَأمُرُ بِمَا لا يَأتِي، يُحِبُ الصَّالِحِين ولا يَعْمَلُ عَمَلَهُم، وَيُبْغِضُ المُذْنِبين وَهْوَ أحَدَهُمْ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقِيمُ عَلَى مَايَكْرَهُ المَوْتُ لَهُ، إنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً، وإنْ صَحَّ أمن لاهِياً، يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا ابتلي».

إن أصابه بلاءً دعا مضطراً، وإن ناله رخاءً اعترض مغتراً، تغلبه نفسه على ما تظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله، إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط ووهن.

يُقصّر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، وسوَّف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة، يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ، فهو بالقول مدل، ومن العمل مقل، ينافس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى، يرى الغُنْمَ مغرماً، والغرم مغنماً.

يخشى الموت ولا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما

يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقر من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن.

اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، ويرشد غيره ويغوي نفسه، فهو يُطَاع ويَعْصِي، ويَسْتَوفِي ولا يُوفِي، ويخشى الخلق في غير ربه، ولا يخشى ربه في خلقه»[١].

نعم، لا يمكن لإحد أن يُعَرِّفَ شخصية الغافل أفضل من ذلك، إنه أمير المؤمنين عليه السلام البحر الزاخر بالعلوم الإلهية، هو الذي عرّف الغافلين تعريفاً كاملاً.

ونجد في هذا الباب روايات متعددة في التراث الإسلامي، نشير إلى بعض تلك الروايات:

قال الصادق عليه السلام:«إنْ كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوّاً فَالْغَفْلَةُ لِمَاذَا؟ وَإنْ كَانَ الْمُوْتُ حَقّاً فَالْفَرَحُ لِمَاذَا؟»[٢].

روي عن الحسن البصري في حديث أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل سوق البصرة، فنظر إلى الناس يبيعون ويشترون، فبكا بكاءً شديداً، ثم قال:

«يَا عَبِيْدَ الدُّنْيَا وَعُمَّالُ أهْلِهَا: إذَا كُنْتُمْ بِالنَّهَارِ تَحْلِفُونَ، وَباللَّيْلِ فِي فِرَاشِكُمْ تَنَامُوْنَ، وَفِي خِلالِ ذَلِكَ عَنِ الآخِرَةِ تَغْفَلُوْنَ،

---

١ - نهج البلاغة: الحكمة ١٥٠.

٢ - سفينة البحار ٢: ٣٢٣، الامالي للشيخ الصدوق: ٧.

فَمَتَى تُجَهِّزُونَ الزَّادَ، وَتُفَكِّرُونَ فِي الْمِعَادِ»[١].

قال الإمام علي عليه السلام:«مَنْ غَفَلَ غَرَّتْهُ الأَمَانِيُّ، وَأَخَذَتْهُ الْحَسْرَةُ، إِذَا انْكَشَفَ الْغِطَاءُ وَبَدَا لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبْ»[٢].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَغْفَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِتَغَيُّرِ الدُّنْيَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ»[٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:«وأَمَّا عَلامَةُ الْغَافِلِ فَأَرْبَعَةٌ: الْعَمَى وَالْسَّهْوُ وَاللَّهْوُ وَالنِّسْيَانُ»[٤].

الغافلون في كلام المرحوم النراقي:

بيّن المرحوم النراقي حال الغافلين بشكل تمثيلي في مجموعة أبيات من الشعر القيم هذا مضمونها:

أيها الغافل اللامبالي: إن قصة الغفلة واللامبالاة هي كقصة ذلك الرجل الذي هجم عليه أسد مفترس هائج في صحراء قاحلة موحشة، لإن الشخص البعيد عن الله سبحانه وتعالى والحق سيواجه الكثير من المخاطر والمصاعب في صحراء الحياة، هذا الشخص عندما رأى قدوم الأسد المفترس نحوه، لجأ إلى بئر هرباً منه، ونزل في البئر بواسطة الحبل المدلّى، فوقف الأسد بجانب فوحة البئر منتظراً خروج فريسته ليصطادها، وفي الأثناء وقع نظره على ثعبان قابع في قاع البئر فاتحاً

---

١ - سفينة البحار ١: ٦٧٤. الامالي للشيخ المفيد: ١١٨، المجلس الرابع عشر،حديث ٣.

٢- الخصال ١: ٢٣١، حديث٧٤. بحار الانوار ٦٩: ١٢٢، باب٩٩، حديث١٩.

٣- الامالي للشيخ الصدوق: ٢٠، المجلس السادس، حديث ٤. من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٩٤، حديث ٥٨٤٠.

٤- تحف العقول: ٢١، ومن حكم النبي صلى الله عليه وآله. بحار الانوار ١: ١٢٠، باب٤حديث١١.

فمه لينقض على صيده الجديد، عندها سمع صوتاً جلب نظره فإذا هما فأران يقومان بقضم الحبل المتعلق به، وفجأ رأى خلية من العسل في وسط جدار البئر وحولها مجموعة كثيرة من النحل تقوم بعملها، وعندما رأى العسل الشهي - الأرض الملونه هي في الحقيقة سم الدنيا المرّ الذي يؤدي إلى الهلاك - مد يده ليتناول شيئاً من هذا العسل، وفي أثناء أكله للعسل غفل عن الأسد والثعبان والفأرين اللذين يقومان بقطع حبل نجاته وحياته، مع العلم أنه لن يكون بمأمن عن لسعات النحل المؤلمة.

ونقل في الكتاب القيم «**نهج البلاغة**»: أن الإمام عليه السلام تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال:«كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نرى من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم، ثم قد نسينا كل واعظ وواعظة، ورمينا بكل جائحة، فطوبى لمن ذل في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت خليقته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه، وعزل عن الناس شره، ووسعته السنّة، ولم ينسب إلى البدعة»[1].

المراقبة:

اتضح أن الغفلة من أهم الأسباب الخطيرة في الحياة الدنيا والآخرة، حيث ذكر أهل اليقظة وعشاق الله: أن المراقبة هي الدواء الوحيد لمعالجة هذا المرض الفتاك، والمراقبة تعني أن الله الرحيم يرى جميع أحوال عباده وأوضاعهم الروحية وأخلاقهم، وتعني مراقبة جميع القوانين التي تؤدي إلى السعادة الحقيقية

---

١ - نهج البلاغة: الحكمة رقم ١٢٢ و١٢٣. بحار الانوار ٧٨: ٢٦٨،باب ٧حديث٢٧.

في جميع جوانب الحياة، ومراقبة هوى النفس وشياطين الداخل والخارج للحيلولة دون انحراف الإنسان عن الجادة الإلهية.

معنى المراقبة في كلام العظماء:

يقول الفيلسوف الكبير المرحوم العلامة الطباطبائي: وفي طريق السير تكون المُراقَبة من أهمّ الأمور وهي في حكم ضرورة من ضروريّاته. فينبغي للسالك أن لا يخلي نفسه دون مراقبتها منذ أن يضع قدمه الأولى في الطريق وحتّى آخره، فهي من الضرورات المؤكّدة، وليعلم أنّ المراقبة درجات ومراتب، فمنها ما يناسب المراحل الأوّلية، ومنها ما يناسب المراحل التي تليها. فكلّما سار نحو الكمال، وطوى المراحل والمنازل أصبحت مراقبته أدقّ وأعمق بحيث لو حُمّلت تلك الدرجات من المراقبة على السالك المبتدىء لن يستطيع القيام بها، بل يترك السلوك فوراً ويهجره أويحترق ويهلك، ولكن شيئاً فشيئاً على أثر المراقبة في الدرجات الأوّلية والتقوي في السلوك يمكنه أن يصل إلى المراتب العالية من المراقبة في المراحل التالية، وعندها فإنّ الكثير من المباحات التي كانت له في المراحل الأوّلية تصبح حراماً وممنوعة عليه.

وعلى أثر المراقبة الشديدة والاهتمام بها تسطع أنوار الحبّ والعشق في ضمير السالك؛ لانّ حبّ الجمال والكمال لدى الإنسان أمر فطريّ على الإطلاق، وقد خمر في جبلّته وأُودع في ذاته، إلاّ أنّ حبّ المادّة والتعلّق بالكثرات يصبح حجاباً للعشق الفطريّ فلا يدع هذا النور الأزليّ يظهر فيه.

وبالمراقبة تضعف هذه الحجب شيئاً فشيئاً إلى أن تزول في النهاية، فيظهر ذلك الحبّ والعشق الفطريّ ليقود الإنسان إلى مبدأ الجمال والكمال. ويعبّر عن

هذه المراقبة في اصطلاح العارفين بـ«مِي» المدام والخمر.[1]

يقول أحد العرفاء البارزين في هذا المقام:

«المراقبة: استدامة علم العبد باطلاع الرب في جميع أحواله».

فإن يقين السالك بأن الله مطلع على السرائر وما تخفي النفوس من خواطر وتصورات تجذب القلب إلى ذكر الله، كما روي عن النبي الأكرمﷺ:

«إعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

وذكر أهل المراقبة لها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: هي اليقين بأن الله سبحانه مطلع على ضمير عبده، وهذه الحال إذا تحققت فإنها تمنع ورود الأفكار السيئة والتلقين الشيطاني إلى القلب، ويقل وقوعه في أسر هوى النفس لإن الله حاضر وناظر عليه في جميع الأحوال والأماكن.

ينقل أنه كان لجنيد البغدادي مريداً هو أعز عليه من بقية مريديه، فغار بعضهم من ذلك، فعلم الشيخ بذلك بفراسته وقال: أنه أكثر أدباً وفهماً من البقية، وأنا أعتقد بذلك، وسنجري امتحاناً حتى يتضح لكم الأمر، فأمر بإحضار عشرين دجاجة، وطلب من كل مريد أن يأخذ واحدة ويذبحها في مكان لا يراه فيه أحد ثم يعود، فذهبوا جميعاً وعادوا بعد أن ذبحوا ما بأيدهم إلا أحد المريدين عاد بدجاجته حية، فسأله الشيخ: لماذا لم تذبحها؟

فأجاب: بسبب ما قاله الشيخ «**عن مكان لا يرانا فيه أحد**» فكل مكان ذهبت

١- رسالة لب الألباب: ٣١.

٢ - ارشاد القلوب ١: ١٢٨، باب٣٩ في المراقبة. بحار الانوار ٦٩: ٢٧٩،باب ١١٦.

إليه وجدت الحق تعالى، فقال جنيد: هل رأيتم الفرق بين فهمه وفهم الآخرين؟ فاستغفر الجميع.

يقول الحارث المحاسبي: «**المراقبة: علم القلوب بجوار الحق تعالى**».

والنتيجة الحاصلة من المراقبة في هذه المرحلة كما يقول الحسن بن علي الدامغاني:

«**عليكم بحفظ السرائر فإنه مطلع على الضمائر**».

المرحلة الثانية: يجب على السالك في أثناء المراقبة أن يترك الدنيا مع نسيانها ونسيان ما فيها، بحيث تكون الدنيا وعدمها عنده سيّان، بحيث لا يكون في ذهنه وفكره شيء غير الله.

يقول أحمد بن عطا:

«**خيركم من راقب الحق بالحق في فناء ما دون الحق**».

ويقول الشيخ الكبير أبو عبد الله محمد بن الخفيف: سمعت يوماً أن شيخاً وشاباً قد جلسا للمراقبة بشكل دائم في مصر، فذهبت إلى هناك فرأيت شخصين قد استقبلا القبلة، فسلمت عليهما ثلاث مرات فلم يجيبا علي، فقلت: أقمست عليكما بالله أن أجيبا سلامي، فالتفت إلي الشاب قائلاً: يابن خفيف: الدنيا لحظة، ولم يبق من هذه اللحظة إلا لحظة، ونصيبنا من هذه اللحظة قليل جداً، يابن خفيف: هل أنت فارغ حتى تنتظر سلامنا.

قال ذلك فطأطأت رأسي، ونسيت جوعي وعطشي الشديدين، فوقفت وصليت صلاة الظهر معه، وصليت صلاة أخرى، فقلت له: عظني!! فقال: يابن خفيف: نحن في مصاب، ولسنا في مقام الموعظة، فيجب أن يكون هناك شخص يقدم الموعظة لأصحاب المصاب.

فبقيت هناك ثلاثة أيام، فقلت في نفسي: بماذا أقسم حتى يعظوني؟ فالتفت

إليه الشاب وقال: جالس من يذكّركم الله رؤيته، وتقع في القلب هيبته، ويعظكم بلسان الفعل لا بلسان القول!!.

المرحلة **الثالثة**: إن حال العظماء من أهل المراقبة هو مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع أفعالهم وتصرفاتهم، ويطلبوا من الله سبحانه وتعالى رعايتهم أثناء المراقبة، بمعنى أن يتولى الله أمرهم، ويشملهم بفضله وعنايته ليكونوا مصداقاً للآية الكريمة: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِيْنَ﴾[1].

فيجب على السالك في هذه المرحلة أن ينهض ويزيل كل الحجب التي تحول بينه وبين الله جل وعلا.

قيل لأبن جنيد: ذكرت أن الحجب ثلاثة: النفس والخلق والدنيا، قال هذه حجب عامة، وهناك ثلاثة حجب خاصة وهي: رؤية الطاعة، ورؤية الثواب، ورؤية الكرامة، والمقصود من ذلك إنه لمضيعة للوقت أن يصل إلى مقام ولا يكون واقفاً على مراقبة نفسه، «وبعبارة أخرى: أن لا يُعجب الإنسان بعمله، لإن العجب علة للغرور، والغرور علة للإنحطاط والسقوط».

طريق الوصول لحالة المراقبة:

يجب على الشخص الذي يريد التحرر من مرض الغفلة الخطير ويدخل ميدان المراقبة النافع أن يتعرف في الدرجة الأول على الآيات القرآنية التي تشير إلى علم الله واطلاعه على جميع شؤون العالم والإنسان، وعلى بعض الآيات التي تبيّن حالات يوم القيامة وأوضاعها، ومجموعة من الأخبار والروايات التي

١- الأعراف ٧: ١٩٦.

تتحدث عن حالات المراقبين السامية.

أما الآيات التي تشير إلى اطلاع الحق على جميع حالات عباده فهي:

﴿وأنَّ اللهَ قَدْ أحَاطَ بكُلِّ شَيءٍ عِلْماً﴾[١].

﴿إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤهُمْ وإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٢].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِياً إنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيْطٌ﴾[٣].

﴿أَلاَ إنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إنَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطٌ﴾[٤].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهْوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾[٥].

﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطاً﴾[٦].

١- الطلاق ٦٥: ١٢.

٢- آل عمران ٣: ١٢٠.

٣- هود ١١: ٩٢.

٤- فصلت ٤١: ٥٤.

٥- النساء ٤: ١٠٨.

٦- النساء ٤: ١٢٦.

المراقبة والمحاسبة:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ* ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِيْنَ﴾[1].

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِيْنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِيْنَ﴾[2].

﴿وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيْداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾[3].

﴿للهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْئٍ قَدِيْرٌ﴾[4].

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِيْنَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[5].

---

١ – الانعام ٦: ٦١-٦٢.

٢ – الانبياء ٢١: ٤٧.

٣ – الطلاق ٦٥: ٨

٤ – البقرة ٢: ٢٨٤.

٥ – الرعد ١٣: ١٨.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[١].

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَومَ إِنَّ الله سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾[٢].

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[٣].

يجب على كل عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحاسب نفسه ويراقبها، وأن لا يغفل عن حركاتها و سكناتها وجميع حالاتها، لإن كل نفس من أنفاس النفس وكل لحظة من لحظات العمر ذات قيمة عالية لا عوض لها ولا مقابل، ويستطيع الإنسان أن يشتري في مقابل كل لحظة من لحظات عمره كنزاً من الكنوز الإلهية، وهي إحدى النعم التي لا نهاية لها في الآخرة، فتضييع كل نَفَسٍ أو صرفه في الأعمال التي تؤدي إلى هلاكه لخسران عظيم جداً، ولا يقبل عاقل بوقوع مثل هذه الخسارة الثقيلة.

وصية المراقب للنفس:

يجب على العبد بعد الفراغ من صلاة الصبح اشغال القلب بالنفس ووضع

---

١ – ص ٣٨: ٢٦.

٢ – المؤمن ٢٣: ١٧.

٣ – الغاشية ٨٨: ٢٥-٢٦.

السعادة والفلاح أمامه، كما هي الحال مع التاجر عندما يستلم أموال تجارته ويناقش شريكه في كيفية التجارة المربحة.

وقل للنفس: يانفسي ! ليس لي رأس مال غير عمري، فإن ضاع عمري ضاع رأس مالي، ويئست من التجارة، واليوم يوم جديد والله العظيم المتعال قد أمهلني، وأخر الموت عني، ومنّ عليَّ هذا اليوم، فيجب عليّ أن نستغل فرصة هذه النعمة.

ولو متُّ لطلبت من الله سبحانه وتعالى أن يعيدني إلى الدنيا ليوم واحد حتى أعمل صالحاً، فتخيلي أنك قد فارقت الحياة وتوسلت إلى الله ليعيدك إلى الدنيا، فأعادك الله إليها، فاستيقظي يا نفس، ولا تضيعي هذا اليوم، لإن كل نَفَسٍ فيه جوهرة ثمينة، لا يمكن تقدير قيمتها، فانتبهي فلديك أربعة وعشرون ساعة خلال الليل والنهار، وهي ليست بالمدة القليلة، وبإمكانك أن تستغليها بشكل كبير في التجارة المعنوية، وجني الكنوز القيمة خلال هذه الساعات وفق الشريعة الإلهية.

وجاء في رواية عن النبي الأكرمﷺ: «**أنه يفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من أيام عمره أربعة وعشرون خزانة ـ عدد ساعات الليل والنهار ـ فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً، فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل النار لأدهشم عن الإحساس بألم النار، وهي الساعة التي أطاع فيها ربه، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمها، وهي الساعة التي عصى فيها ربه، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهي الساعة التي نام**

فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيناله من الغبن والأسف على فواتها حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف.»[١]

انتباه المراقب إلى أعضاء البدن

بعد أن يوصي العاقل النفس، يتوجه إلى أعضائه السبعة المهمة، هذه الأعضاء هي وسيلة حتمية للنجاة أو الهلاك، فالعين واللسان والأذن والبطن والفرج واليد والقدم، هذه الأعضاء السبعة هي أدوات للنفس وتحت إمرتها، وتشبه في عالم التجارة الأيدي العاملة في الكسب والعمل للإنسان.

وفي المقابل هناك لجنهم سبعة أبواب حسب ما جاء في القرآن المجيد، وكل باب يختص بمجموعة معينة من الضالين، واستحقاق الشخص للعذاب مرتبط بالذنوب التي ارتكبتها الأعضاء السبعة.

ويجب على الإنسان أن يكون واعظاً لنفسه على الدوام حتى ينجو من العذاب الشديد يوم الحساب، فلا يغفل عن وعظ نفسه للحظة، ولا عن التوجه لإعضائه وجوارحه وتنبيهها، ويجب أن يكون واعياً في مقام مراقبة الأعضاء السبعة.

فيجب حفظ العين عن النظر إلى ما يحرم النظر إليه، وأن لا ينظر إلى الآخرين بنظرة الإستحقار، وأن يتجنب النظر إلى ما لا لزوم فيه للإنسان، لإنه كما سيسأل عن الحرف الزائد الذي جرى على لسانه، فسيسأل عن كل نظرة يوم القيامة.

ومن جهة أخرى يجب عدم الإكتفاء بترك معاصي العين، بل يجب توظيفها

---

١ - عدة الداعي: ١١٣. بحار الانوار ٧: ٢٦٢، باب١١حديث١٥.

في التأمل في آثار صنع الحق وعجائب خلقته، والتأمل في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لكي يتعرف الإنسان على المعارف الإلهية وعلى حلاله وحرامه، والنظر إلى آثار الآخرين الخيرة لترغيب النفس وتشويقها للعمل الصالح.

اللسان عضو سهل الحركة، لا يصعب عليه التحرك في أي اتجاه، هذا الغضو الصغير الحجم بإمكانه ارتكاب أكبر الذنوب والمعاصي، والتلوث بالكبائر، فهو يورط الإنسان في المخاطر والمهالك في الدنيا والآخرة، فيرتكب الجرائم الكبيرة كالغيبة والكذب، وبذر الشقاق، والثناء على النفس، وتكذيب الخلق، وتوجيه التهم للناس ولعنهم، والجدال، والمراء وغيرها.

مع أن الله سبحانه خلق هذا العضو للذكر، والتعلم والتعليم، ونشر الحقيقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وارشاد عباد الله، واصلاح ذات البين، وغيرها من الأعمال الصالحة.

فيجب الإشتراط على النفس أن تكون حركة هذا العضو طوال الليل والنهار في طريق الحق، و قد قالوا: أن منطق المؤمن ذكر، ونظرته عبرة، وسكوته فكر، وقد جاء في القرآن الكريم أنه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيْدٌ﴾[1].

ويجب أن تراقب أذنك بأن لا تسمع إلا الحق، وجنبها سماع لغو الكلام، وغيبة الناس المؤمنين، وكل ما يسيئ إلى الآخرين.

والزم بطنك بالإكتفاء بالقليل من الأكل، والإقتناع بالحلال من الطعام، والإجتناب عن الشبهات والشهوات، ويجب حفظ الفرج واليد والقدم من

---

١ - ق ٥٠: ١٨.

السقوط في مستنقع الذنوب الخطيرة.

إن الدنيا ليست دار بقاء، والعمر ينقضي أسرع من كل شيئ، والموت يأتي فجأة، وعندما يأتي الموت تنشلّ جميع قوى الإنسان وقدراته، ولا يبقى مجال لجبران الأخطاء، فمن الأفضل أن نقضي ما تبقى من عمرنا القصير في يقظة ومراقبة لحياتنا وتصرفاتنا، ونحاسب أعمالنا ذرة ذرة بالتوجه للآيات والمعارف الإلهية.

فالغفلة لا تخدم الإنسان في أي مجال كانت، والغافلون ليس لهم نصيب من رحمة الله في يوم الجزاء والحساب، لإن الله جل وعلا لو أراد للإنسان أن يعيش حياته في غفلة لما اعتنى بعقله وفطرته ووجدانه وتفكيره. وإلا فما الفائدة من بعثة الأنبياءعليهم السلام وإمامة الأئمةعليهم السلام، وحكمة الحكماء، وعرفان العرفاء، ونصيحة الناصحين، ووعظ الواعظين، وكتابة الكتاب الواعين والمسؤولين، وصراخ المستيقظين، وبكاءالمستيقظين في الأسحار، ونداء أهل القلوب الصالحة، والأهم من ذلك نزول الكتب السماوية؟

بماذا تجيب على هذه الأمور الواقعية غير القابلة للإنكار؟ أليس كل هذا الإهتمام إلا لإجل أن يكون الإنسان يقظاً في حياته، ويبقى بعيداً وطاهراً من التلوث و الاصابة بالغفلة؟

ولا أتصور أن عرف الإنسان في التاريخ البشري مرضاً أخطر من الغفلة، لإن هذا الظلم والمعاصي والإنحراف والأضرار والخسائر التي نراها في العالم كلها بسبب هذا المرض العضال الخطير المهلك.

لهذا نجد الأنبياء والأئمةعليهم السلام والحكماء والعرفاء وتلامذتهم يستوحشون وينفرون من الغفلة بشكل عجيب جداً. لماذا؟ لأنهم يعلمون أن مصير الغافلين

في قعر جهنم، وإذا لم يستيقظوا يصبح السقوط في العذاب أمراً حتمياً.

ونجد أيضاً أن الغافلين من البشر هم أشر الموجودات على الكرة الأرضية، وأفسد الكائنات المتحركة على الأرض، وأقذر المخلوقات على هذه الكرة الصغيرة، بل إن عذابات الآخرين وآلامهم ومشاكلهم في حياتهم هي بسبب غفلة الغافلين، وإهمال غير العقلاء، وعدم الادراك لدى عبيد الدنيا، وخطيئة المذنبين، وانحطاط العاصين.

المراقبة أفضل وسيلة للحصول على السعادة:

إن الإنسان مضطر للحركة والنشاط منذ بداية حياته، وهذه الحركة إما أن تكون للإرتباط بالله سبحانه وتعالى، أو للإرتباط بالعالم، أو للإرتباط بخلق الله، وجهده وسعيه إما أن يكون سبباً في نجاته، أو عاملاً في هلاكه.

وهذا النشاط والجهد في الإرتباط بالأمور الواقعية الثلاث ـ الله، العالم، الخلق ـ إذا كان على أساس الحق تعالى والحدود الإلهية فإنه سيكون سبباً في السعادة والفوز بالدارين، وإلا سيكون علة للشقاء والذلة وخسران الدنيا والآخرة.

ويجب على الإنسان لكي يبقى سالماً طاهراً بعيداً عن الأضرار والمخاطر أن تكون لديه دقة ونظر في أمرين:

الأول: الدقة قبل العمل.

الثاني: التوجه لأصل العمل.

الأمر الأول: الدقة قبل العمل:

الدقة في العمل يعني: التأمل والتفكير في العمل الصادر منه، الذي حرك

القلب والنية لأجله وشوّقه إليه، هل هو لأجل الله سبحانه وتعالى، أو لإرضاء هوى النفس واتباع الشيطان؟

ويجب هنا التأنّي في بدء العمل وعدم الإستعجال، حتى ينكشف له سبب إقدامه على العمل بالإستعانة بنور الحق، فإذا علم بأن السبب المحرك للنفس اتجاه العمل هو العشق لله، ولا يوجد محرك سوى جلب رضا الخالق، أقدم عليه، وأما إذا كانت العلة المحركة غير الله، فيجب أن يخجل من الله الحاضر الناظر، والرب المراقب في هذا العمل، ويصرف نظره عن الإقدام على هذا العمل، ويلوم نفسه على رغبتها في عمل ليس لله فيه نصيب، ويحذرها مخاطباً إياها: لماذا تريدين الإقدام على عمل ليس فيه رضا المحبوب، ولا عاقبة له سوى الندامة والفضيحة؟

وقد جاء في الخبر: إن الإنسان يُسأل عن جميع حركاته وسكناته صغيرة كانت أو كبيرة، ثلاثة أسئلة: لماذا قمت بهذا العمل؟ وكيف قمت به؟ ولإجل من قمت به؟.

نعم إنه يسأل عن الداعي له للعمل الذي و قام به، هل كان إطاعة لأمر المولى جل وعلا؟ أم كان أتباعاً لهوى النفس وشهوتها؟

ويسأل أيضاً عن إتيانه للعمل هل كان بالإستعانة بنور المعرفة والعلم أم عن جهل وظن؟ وفي المرحلة الثالثة يسأل عن الإخلاص في العمل، وهل أنّ عمله صدر للحق تعالى وفاءً لما كان يكرره من قول" لا إله إلا الله" وبالنتيجة يصبح الثواب والجزاء لازماً عليه، أم صدرمنه لإرضاء الناس فأجره يأخذه من الناس، أم صدر منه لأجل كسب المال والجاه في الدنيا، وإذا أخذ نصيبه من الدنيا فقد

أخذ أجرته على عمله؟

قال النبي الأكرم ﷺ لمعاذ:«إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بإصبعه»[1].

هذا هو الأمر الأول من النظر والدقة، ولا يمكن حصول هذا الأمر للناظر والمراقب إلا من خلال الدراية والعلم والمعرفة بحقيقة الأعمال، والدقة في وضع النفس، ومعرفة حيل الشيطان ومكائده.

وما لم يولِ الإنسان اهتماماً خاصاً بمعرفة ربه، ونفسه، وعدوه الدائم الخطير ـ الشيطان ـ وما يوافق هوى النفس، وما يرضي الله سبحانه، وأمثال هذه الأمور التي تواجهه في حياته، فلن تكون مراقبته العمل أمرا منتجاً ومفيداً.

ولابد في هذا المقام من التوجه إلى هذا النكتة وهي: أنه إذا لم يكن الإنسان مجهزاً بنور العلم لكشف الحقائق الضرورية من قبيل النفس والهوى والشيطان، أو أن هذا العمل موافق للإرادة الإلهية أو موافق للهوى، فيجب عليه معرفة الحقيقة وتحصيلها بالتمسك بعالم رباني ومرشد إلهي، صادق حكيم. حتى يتجنب المخاطر، وهجوم الذنوب والمعاصي، وفساد الأعمال، بالإستفادة من نور علمه وارشاداته.

الأمر الثاني: التوجه لأصل العمل:

يجب النظر في أصل العمل، والانتباه إلى أنه صادر لله حتماً، والإتيان به بشكل كامل وصحيح، وليعلم بأنه كما أن الخلق مطلعين على ظاهر عمله، فإن

١- تفسير ابن كثير ٢: ٥٧٩.

الخالق الحكيم والرب العالم مطلع على ظاهر عمله وعالم بباطنه أيضاً، حيث لا يخفى عليه شيئ في بحر الخليقة.

فإذا تجهز العبد بهذه النظرتين، وكان أداء عمله مطابقاً لتلك النظرتين، فسيبقى مصوناً عن الوقوع في الخطر طوال عمره. ولن يذهب أي عمل من أعماله هدراً، ولن يضيع الله أجره وثوابه، بل الأفضل من هذا كله أنه بهاتين النظرتين يصبح الإنسان في مأمن من التلوث بالذنوب، والوقوع في أحابيل الشيطان، والسقوط في مصيدة الاهواء النفسية.

ولإجل اكتساب هاتين النظرتين يجب التمرن والقيام بالرياضات المناسبة بالإستعانة بعناية الحق تعالى، لإن الإنسان لن يجني بدون التوجه والمراقبة ـ بالنسبة لأي فعل أو عمل ـ إلا الخسارة والندامة.

محاكمة النفس:

المراقبة نعمة من النعم المعنوية الإلهية، فيجب على الإنسان أن يطلبها من الله تعالى بشوق واشتياق كامل، ويهيئ نفسه لمقدماتها، ومثل المراقبة في بقية النعم المعنوية مثل الجذور الشجرة الشجرة نفسها، وكبناء القواعد للبناء، و العمود لنصب الخيمة.

فمنزلة المراقبة من النفس والروح كمنزلة الروح من الجسد، وكمنزلة النور بالنسبة للرؤية، وكالشمس بالنسبة لموجودات العالم.

وإذا انتفت المراقبة انتفى الإيمان، وإذا انتفى الإيمان فلا عمل صالح ولا أخلاق، وإذا انتفت الأخلاق والعمل إنتفت إنسانية الإنسان، وإذا انتفت الإنسانية من الإنسان فلن يصدر منه إلا الشر والضرر، وايجاد المشاكل لنفسه وللآخرين.

المراقبة أفضل وسيلة للنجاة، وأسمى نداء إلهي في روح الإنسان وأكثرها منفعة.

فالإنسان المراقب في أمان من شر النفس وهواها، ومصون من خطر الشيطان والشياطين، وهو في سلامة وراحة من جميع الحوادث.

المراقب لا يفوته شيئ، ولا يصدر منه شر، ولا طريق له إلا طريق الحق، ولا يستضيف في قلبه وروحه غير عشق الحق، ولا يعرف مقيماً في حرمه غير حضرة المحبوب، ولا خوف لديه إلا من عذاب الحق، ولا أمل له إلا المحبوب.

فتعال وخاطب نفسك بهذه الواقعيات والحقائق، وحاكمها في محكمة العقل النوراني ـ العقل الذي استنار بالقرآن والمعارف الإلهية ـ وقل لها: لماذا ضيعت ما مضى من عمري في الغفلة؟ تلك الغفلة التي كادت أن تأخذني إلى العار الأبدي والعذاب الدائم.

لماذا لم ترحم الأعضاء والجوارح، وبذلت قصارى جهدك في تلويثها بالرذائل والصفات القبيحة والأعمال المخالفة لله.؟ لماذا لم تنهل من المعارف الإلهية وترتوي مع ما لك من الإستعداد والقدرة؟ وبقيت محرومة من تلك الحقائق الواضحة. لماذا لم ترتبط بالقرآن الكريم؟ ولم تتحل بأخلاق الأنبياء عليهم السلام؟ ولم نر فيك أثراً لصفات الأئمة العظام عليهم السلام؟

فماذا أنت فاعلة فيما بقي من العمر؟ وكيف ستستفيدين من جميع هذه الوسائل والأدوات التي وضعها الخالق الحكيم في اختيارك؟

فالويل لك إن لم تستيقظ ولم تبصر مع كل هذه الحجج الحقة، ووضوح نور النبوة والإمامة، ومع وجود القرآن والكتب المليئة بالحقائق الربانية!!

فأنت التي رهنت سعادتي وشقائي على حالتك ووضعك، فارتكبت من

الذنوب ما يحلو لك، وأحضرت من نعم الدنيا ما تريدين إلى ميدان المعركة، ولن نرى فيما بقى من العمر إلا تكرار ما مضى، فمتى يحين زمان علاج أمراضك، ومداواة آلامك، ومتى يحين وقت التهيئ والإستعداد بما يجب؟ وأنت تعلمين أن مصيرك ومصير جميع الأعضاء والجوارح مرهون بك، وتعلمين أنك لست إلا مسافر لاغير. ومجموع سفرك من البداية إلى النهاية ستة منازل: صلب الأب، ورحم الأم، وعالم الدنيا، وظلمات القبر، وصحراء المحشر، والجنة أو الجحيم، وأنت مازلت في المنزل الثالث، وهو منزل المخاطر والمهالك، و قطاع الطرق.

واعلم أن أيام عمرك بمثابة فراسخ، والساعات بمثابة أميال، والأنفاس بمثابة الخطوات، ولا تعلم إلى متى ستبقى في هذا المنزل، وقد يكون لبعض الخطوات أو أقل، فاشدد حزامك في هذا المنزل المليئ بالخوف والمخاطر، وانضم إلى مشاهدة قافلة الأموات للإنتقال من منزل إلى منزل، ولا ينسيك سفر الإهل والأقرباء ما أنت عليه، ولا تجعل في قلبك ذرة من حب الدنيا لأنها توجب مئات المحن والبلايا.

و قد روي عن النبي الأكرمﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[١]

ويعلم من هذا الحديث: أن جميع الذنوب الظاهرية والباطنية هي بسبب حب الدنيا، ومعصية كل شخص بمقدار حبه للدنيا وتعلقه بها، فإذا أردت تطهير قلبك

١- ارشاد القلوب ١: ٢١،باب٢، الزهد في الدنيا، عوالي اللآلئ ١: ٢٧،فصل٣. بحار الأنوار ٥١: ٢٥٨،باب ١٤.

من التلوث، وأن لا تلق بنفسك في الورطة والهلاك، فابدأ بالمعالجة والإحتراز.

وطريق المعالجة والإحتراز مثل حال الهارب من الدنيا، فعودها على ترك لذات الدنيا، واسقها جرعة من ذكر الموت في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، و فكر في الموت على نحو يصبح القلب فارغاً من كل شغل، فاذكر وجوه أحبتك وأصدقائك وأوضاعهم، وفكر كيف تغيرت تلك الوجوه وما آلت إليه أعضاؤهم بعد الموت في التراب،حيث محى التراب صورهم، وتبددت أشلاؤهم في القبور، وكيف تيتم أولادهم بعد رحيلهم، وترملت نساؤهم، وقسمت أموالهم.

فإذا كان طريق المعالجة على هذا النحو فلا شك بزوال غبار الغفلة عن رؤية القلب شيئاً فشيئاً، وستكون من جملة أصحاب القلوب المنيرة، وأصحاب الرؤية اليقينية، فجدير بك أن تطيل حسرتك على ما مضى من عمرك، وتندم على ما قصّرت فيه، وترك الإنشغال بالطعام والنوم، واصرف فكرك وجهدك للعمل لدار البقاء، ولا تشغله بأمر آخر.

إن المضي على هذا الذكر والفكر ـ وهو من بركات نور المراقبة ـ سيوصلك إلى قمة الحقيقة، وصفاء القلب، وطهارة الروح، فتدارك ما مضى من حياتك، وابن مستقبلك بما فيه رضا المحبوب جل وعلا.

طرق علاج الغفلة:

إن الرجوع إلى النفس هو أفضل الطرق لعلاج الغفلة، لأن الغفلة أصل الأمراض المعنوية، وسبب في شقاء الدنيا والآخرة.

و ان الرجوع إلى النفس يعني معرفة النفس،وعندها سيعرف الرب، وبالنتيجة

سيعرف ما يوجب السعادة من قبل الحق، وتطبيق وضع نفسه على وفقها. لإن النفس عندما ترتبط بعالم الملكوت تصبح قادرة على الخروج سالمة من وسط أمواج الأخطار ومختلف الحوادث التي تواجهها، والعودة إلى مالكها الواقعي بسيرة أجمل.

إن توجه النفس إلى مجموعة من المسائل المحركة والموقظة تمكنها من التحرر من حبال الغفلة وأسر الشيطان وسجن الهوى، وتحلق بها إلى فضاء مليئ بالمعنويات.

وصفة للشفاء:

ينقل العالم الشيعي الكبير الإستاذ العلامة المجلسي رحمه الله في ترجمة «**رسالة تنبيه الراقدين**» للمرحوم ملا طاهر القمي عبارات ذات معان عالية، تهز كيان الإنسان، مخاطباً فيها أهل القبور، وعلى لسان حالهم يجيب على هذه المسائل، تذكيراً للنفس، وهذه المحاورة هي أفضل وصفة لعلاج كل انسان من الغفلة، وهي أسمى طريق لإيجاد حالة المراقبة في القلب والنفس، يقول الرجل العظيم اليقظ:

السلام عليكم يا أهل القبور من الشيوخ والشباب

السلام عليكم يا من انفصل عن الأهل والأصدقاء

السلام عليكم يا من ابتعد عن الإخوان والإصحاب

السلام عليكم يا من حرم من الأموال والأسباب

السلام عليكم يا من توسد التراب

السلام عليكم يا من سكن المنازل الخالية

السلام عليكم يا أصحاب الوجوه المتغيرة

السلام عليكم يا أصحاب الوجوه المعفرة بالتراب

السلام عليكم يا أصحاب البيوت الخربة والمندرسة

السلام عليكم يا أصحاب الآثار الممحية.

أنتم الذين اغتررتم بشبابكم وقوتكم، وانشغلتم باللهو وبأصحاب الحياة والبقاء، والغافلين عن الموت والفناء، وتنعمتم في البيوت والقصور، واستأنستم بالنساء وراء الستر، وانشغلتم باللذة والراحة والفرح.

تركتم البيوت الواسعة الفارهة، وسكنتم القبور الضيقة بدون رغبة ورضا، ووضعتم في بطن التراب، واختفيتم عن مادة الخلق، بموتكم سكن غضب قلوب الحاسدين، وأدخلتم الحزن على قلوب الأصدقاء والأبناء.

فياليتني أعلم ما تكسبون عوض الاصدقاء؟ وما يؤنسكم في التراب؟ وما تفعلون في الوحدة والإنفراد؟ وكيف تتفسح اجسادكم في التراب؟ وكيف تقتتل الديدان على أجسادكم؟ وكيف أكلت لحومكم وجلودكم؟ ، وكيف ذابت حدقاتكم عن صفحة وجوهكم، وكيف انفصلت أعضاؤكم ومفاصلكم، وكيف تفرقت أيديكم وأرجلكم عن أبدانكم؟

فلو سألتموني أيها التاركون للأهل والعيال، والمنقطعون عن الآمال والأماني عن ما يؤول إليه الحال لأجبتكم إن كنتم مستعدين للإستماع.!

فأما دوركم فقد سُكِنَتْ، وأما أزواجكم فقد نُكِحَتْ، وأما أموالكم فقد قُسِّمَتْ، وأهل بيتكم من الأولاد والأبناء عن الأطفال الصغار الذين تربوا في أحضانكم الحنونة قد انقطعوا، وأصدقاؤكم وزملاؤكم قد نسوكم إلى الأبد،

وأقرباؤكم وندماؤكم قد غفلوا عنكم!!

لا يذكرون أسماءكم، ولا يوجد في قلوبهم أي خبر عنكم، هذا بعض ما وقع بعد رحيلكم.

فيجيب أهل القبور: يا عبد الله، لقد سمعنا كلامك، وحفظنا مقالك، فاسمع جوابنا واحفظه عنا.

لقد لبسنا رداء الندامة، ودخلنا أبواب يوم القيامة، وقذفنا الموت في حالة مخزية، وأنامونا على الجانب الأيمن في لحد ضيق، ووضعوا وجوهنا على تراب القبر، وسقف بيتنا من طين، وودَّعَنَا أهلُنا وأخوتنا إلى الأبد، ذهبوا وتركونا!!

وحضرت الملائكة في قبورنا، وسألونا ما يريده الخالق منا، واجتمعت الديدان من حولنا وأكلونا، وتغيرت أحوالنا وصورنا الجميلة، وتركونا في بيت خال من المتاع، وبدون الأهل والعيال ليلاً ونهاراً.

لقد سقطنا في أمر صعب وموحش ومليئ بالمخاطر، ولا نسمع إلا التهديد والوعيد والتوبيخ الشديد.

ويعلو صراخ بعض القبور: أنا بيت الظلام، أنا بيت الفتنة، أنا بيت المحنة، أنا بيت الغربة والغم، أنا بيت الوحدة والوحشة، أنا سجن ، أنا حفرة من حفر النيران.

وبعض القبور تقول: أنا بيت الراحة والنعيم لمن كان عبداً للخالق الرحيم، أنا بيت النعمة والسعادة لمن خشي الله واجتنب الذنوب.

وبعض بقاع الأرض تنادي وتقول: أيها المفتون بظاهر الدنيا، أيها الحي في هذا اليوم، لماذا لا تعتبر بمن دُفِنَ فينا؟ ألم تر أهل وحشتي من إخوانك وجيرانك الذين دفنوا في قلب التراب؟ ألم تر حرصهم وجمعهم للإموال وتخزينها؟ ألم

تر أن ما كان عندهم سلب منهم بدون رضاً، ودفنوا فينا بذلة واحتقار؟

لماذا لا تعمل بالأعمال التي لم يعملوها وكانت لخيرهم وصلاحهم؟

لماذا لا تصرف رغبتك عن جمع المال وطول الأمل؟

نحن الأموات المدفونون في التراب: نلوم الأحياء ونقول لهم بصوت مرتفع: أيها الباقون المتعلقون بالدنيا، يا من دفن الإخوان والأقرباء تحت التراب، ألم يكن حالنا عبرةً لكم، ألم تفكروا في حالنا قبل ذهابنا إلى تراب القبر، ألم تروا أننا انقطعنا عن مسير العمل، وأنتم مازلتم لا تفكرون في عمل مع وجود المهلة والفرصة؟ لماذا لا تتداركون مافاتنا في حياتنا عمله وانجازه؟ لماذا لا تعملون بما حرم منه المقربون منكم؟

أيها الساكن بيت الغرور، نحن نتمنى أن يتغير حالنا لنكون قادرين، ونحن جاهزون للعمل، ولكن وقت عمل الخير قد مضى من أيدينا، فاعلم أن هذه الأيام واللحظات غنيمة، واخش عاقبة اهمال العمل. فعما قريب أنت راحل إلينا، وستقدم إلينا بعد أيام فارحم نفسك اللطيفة الضعيفة، واسع لخلاص روحك الشريفة، واعلم أنه سيتعاملون مع بيتك كما عاملونا، وستفنى آثارك وتزول كما فنيت آثارنا وزالت، وستكون بحالة مزرية فلا ناصر ولا صاحب يمكنه أن ينفعك، ولا يملك أخوتك والمقربون منك أي وسيلة لنجاتك وانقاذك، وأنت ماض إلى بيت الوحشة والغربة، ومنقطع عن جميع العلاقات والأسباب.

قبرك ومنكر ونكير بانتظارك، فعجل بعمل كل ما سمعته منا، وتهيأ للمكان الذي انتقلنا إليه، فكل ما جرى علينا سيجري عليك أيضاً، وقسماً بالله إنك مقدم على خطر عظيم، وقد أخبرناك، وأرشدناك إلى طريق التوفيق.

وبعد الحوار الذي دار بين المتحدث والمستمع مع الأموات، جاء دور الخطاب مع النفس:

أيها الغافل الهزيل قد سمعت ما قاله أصحاب القبور، وعلمت بما شرحوه وبينوه، فما عذرك غداً عند مولاك؟ فما تقول عندما تلتقي به ويلتقي بك؟

وقسماً بالله إن أهملت ومضيت إليه كما أنت ستبقى غافلاً، مع أنهم قد حذروك وخوفوك و حذّروك من المخاطر العظيمة التي ستواجهها، وستواجه ربك بفضيحة عظيمة مقابل دنيا لا قيمة لها، وستواجهك مصاعب ومخاطر كبيرة، فاعزم السفر وهاجر، واجمع من الزاد ما استطعت ليوم الخطر الأكبر.

فارجع إلى مولاك رجوع العبد الذليل الحقير الذي ظلم نفسه، ولم يحترم حرمة ربه، فتب إلى الله توبة العبد الذي ارتكب الذنوب العظيمة، وأضاع عمره الذي بين يديه، ولم يبق له من الوقت إلا اليسير.

والعبد الذي لايرى عاصماً غير الله يذهب إليه، ولا يرى مفراً غير الله يفر إليه، سيتوجه إلى ربه فجأة بقلب طاهر، ويناجي ربه بصوت حزين وذليل منكسر، كأن ظهره قد انحنى ومال، وطأطأ برأسه حتى كادت أن تصبح اثنتين، واصطكت قدماه من شدة الخوف، وامتلأ وجهه من الدموع، وهو في حال الدعاء والمناجات لربه يصرخ ويقول:

آه من بعد السفر، وآه من عظم الخطر، وآه من ظلمة القبر، وآه على الأيام التي ضيعتها، وا خجلتاه على ما فعلته من الذنوب والآثام.

آه لو عاملتني بعدلك ولم تعاملني بفضلك، آه لو أعطيتني كتابي بشمالي، وكشفت على الملاء سوء عملي وفعالي.

عندها يأتي الخطاب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[1]، وحينئذ أبتلي ببلاء لا يستطيع أقربائي انقاذي، وقومي وعشيرتي في عجز عن ايصال ما ينفعني.

آه من النار التي تحرق ظهري، آه من النار التي تفصل رأسي عن يدي ورجلي، آه من النار التي نورها الظلام، أخفها مؤلم، وبعدها قرب.

آه من النار التي لا ترحم، ولا تقبل طلب المرحمة من أي شخص، ولا تستطيع تخفيف العذاب، وغير قادرة على اغاثة المستغيثين.

آه من ضريع جهنم وزقّومها وغسّاقها، وهذه الثلاثة هي طعام أهل النار وشرابهم.

آه من شراب جهنم الذي يقطع القلوب والشرايين قطعة قطعة.

يا مولاي: أ للشقاء خلقتني فأطيل بكائي، أم للسعادة؛ فعليك علقت أملي.

فهل أعضائي خلقت للعذاب الذي اضرمت ناره في سجّين، وأمعائي ليأكلها حميم جهنم.

ياmولاي: أتراك معذبي بنارك بعد ايماني بك؟ أم تطردني من ساحة رحمتك بعد ما اعتقده ضميري بحبك وعشقك؟ ما هكذا الظن بذاتك الكريمة أن تقطع أملي بك!!.

فهل تبدل مسيري ـ كما أظن ـ إليك؟ وتستبدل يأسي بأملي؟ ولا شك إن أملي فيك أمل حتمي، ورجائي بعنايتك رجاء عظيم.

١- الحاقة ٦٩: ٣٠.

المراقبون والمحاسبون من وجهة نظر الروايات:

عندما نتصفح التاريخ البشري نجد فيه شخصيات عظيمة بسبب اتصالها بنور الحقيقة، ومراقبتها ومحاسبتها لجميع جوانب حياتها، ولم تسمح أبداً لأي عدو ظاهري أو باطني، إو إي غول داخلي أو خارجي، التأثير في حياتها القيمة.

هؤلاء العظام استمعوا بقلوبهم الى نصائح الكتب السماوية، والأنبياء والإئمة عليهم السلام، وبعد الإستماع انطلقوا للعمل بما سمعوه، وبعد العمل وصلوا للحقائق والنتائج العالية.

والقرآن الكريم يخاطب جميع الناس ويوصيهم بالمراقبة والمواظبة لجميع أمور حياتهم، وأن يكونوا يقظين في محاسبتها فيقول: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

ونقل عن الإئمة الاطهار عليهم السلام قولهم:

«حَاسِبُوْا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ بِمِيزَانِ الحَيَاء قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا»[2].

وفي الخبر أنه صلى الله عليه وآله جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، فقال صلى الله عليه وآله: «أَمُسْتَوْصٍ أَنْتَ؟ قال: نَعَمْ، فَقَالَ: إذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ

١- الحشر ٥٩: ١٨.

٢- مصباح الشريعة: ٨٦ المحجة البيضاء ٨: ١٦٧، كتاب المراقبة والمحاسبة. بحار الأنوار ٦٨: ٢٦٥، باب ٧٦.

فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ كَانَ رُشْداً فَامْضِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ»[١].

وفي الخبر:«يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلْعَاقِلِ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيْهَا نَفْسَهُ»[٢].

عن ميمون بن مهران أنه قال:«لا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَتَمَّ مِنْ مُحَاسَبَةِ شَرِيكِهِ، وَالشَّرِيْكَانِ إِنَّمَا يَتَحَاسَبَانِ بَعْدَ العَمَلِ»[٣].

عن الصادق عليه السلام:«أَقْصِرْ نَفْسَكَ عَمَّا يَضُرُّهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُفَارِقَكَ، وَاسْعَ فِي فَكَاكِهَا كَمَا تَسْعَى فِي طَلَبِ مَعِيشَتِكَ، فَإِنَّ نَفْسِكَ رَهِيْنَةٌ بِعَمَلِكَ»[٤].

العقلاء عندما ينتبهون لهذه الآيات والروايات لا يمهلون النفس لإرتكان الذنوب، وكذلك لا يدعون النفس أن تترك عمل الخير وإن كان صغيراً.

نبذة مختصرة من حياة المراقبين والمحاسبين:

الأول: ينقل أنه ذهبت جماعة لعيادة مريض، وكان فيهم شاب نحيل الجسم، فسأله المريض: يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فأجاب الشاب: أنها بسبب

١- قرب الاسناد: ٦٥. المحجة البيضاء ٨: ١٦٥، كتاب المراقبة والمحاسبة.

٢- معدن الجوهر: ٤٢. المحجة البيضاء ٨: ١٦٥، كتاب المراقبة والمحاسبة.

٣ - المحجة البيضاء ٨: ١٦٥، كتاب المراقبة والمحاسبة. وفي بحار الانوار ٦٧: ٤٢، حديث٢٢، عن فلاح السائل «والسيد عبده».

٤- الكافي ٢: ٤٥٥، باب محاسبة العمل،حديث٨. المحجة البيضاء ٨: ١٦٦، كتاب المراقبة والمحاسبة.

الأمراض والأسقام، فقال له: سألتك بالله إلا صدقتني، فقال الشاب: ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة، وصغر عندي زهرتها وحلاوتها، واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، والناس يساقون إلى الجنة والنار، فأظمأت لذلك نهاري، وأسهرت ليلي، وقليل كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.!!

الثاني: ينقل أحد العظماء ويقول: ثلاثة لو لم تكن لما أراد القلب العيش يوماً واحداً: الصيام في أشد الأيام حرارة، السجود في جوف الليل، مجالسة الناس الذين ينتقون أطائب الكلام كما ينتقى أطائب الثمر.

الثالث: ويقال: إن جماعة شدت رحالها للسفر، فتاهوا في الطريق، فانتهوا إلى راهب قد اعتزل الناس، فنادوه، فأشرف عليهم من صومعته، فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف هو؟!

فأومأ برأسه إلى السماء، فلم يعلم الناس ما أراد، فقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال: سلوا ولا تكثروا، فإن النهار لن يرجع، والعمر لا يعود، والطالب حثيث.

فتعجب القوم من كلامه، فقالوا: يا راهب على مَ يحشر الخلق غداً عند مليكهم؟ قال: على نياتهم. فقالوا: أوصنا، فقال: تزودوا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما بلغ البغية، ثم أرشدهم إلى الطريق، وأدخل رأسه في صومعته!!.

الرابع: وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين، فناديته يا راهب، فلم يجبني، فناديته الثانية فلم يجبني، فناديته الثالثة فأشرف علي، وقال: يا هذا ما أنا براهب، إنما الراهب من رهب الله في سمائه، وعظّمه في

كبريائه، وصبر على بلائه، ورضي بقضائه، وحمده على آلائه، وشكره على نعمائه، وتواضع لعظمته، وذل لعزته، واستسلم لقدرته، وخضع لمهابته، وفكّر في حسابه وعقابه، فنهاره صائم، وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار، فذاك هو الراهب، فأما أنا كلب عقورحبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم.

فقلت: يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه؟

فقال: يا أخي: لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها، لأنها محل المعاصي والذنوب، فالعاقل من رمى بها عن قلبه، وتاب إلى الله من ذنبه، وأقبل على ما يقربه من ربه.

الخامس: كتبوا عن أويس القرني أنه كان يقول في بعض الليالي: هذه ليلة الركوع، فيحيي الليلة كلها في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيي الليلة كلها في سجدة.

السادس: يروى عن رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: صليت خلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه الفجر، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وما أرى اليوم شيئاً يشبههم، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله عز وجل، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، فكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبتلّ ثيابهم، ثم نهض وهو يقول: والله لكأنما القوم باتوا غافلين.

السابع: يقول أحد الصالحين: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى وادٍ هناك، فإذا أنا بصوت قد علا، وإذا تلك الجبال تجيبه، ولها دوي عال، فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم يردد هذه الآية: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً... وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ**﴾[1]، قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ بها مغشياً عليه.

قلت: وا أسفاه هذا لشقائي، ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة، فسمعته وهويقول: أعوذ بك من إعراض الغافلين، ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين، وإليك فزعت آمال المقصّرين، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يديه فقال: مالي وللدنيا وما للدنيا ولي، عليك يا دنيا بأبناء جنسك، وآلاف نعيمك إلى محبيك، فاذهبي وإياهم فاخدعي، ثم قال: أين القرون الماضية، وأهل القبور السالفة، في التراب يبلون، وعلى مر الزمان يفنون.

فناديته: يا عبدالله، أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك، فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم قال: أين أنت لها ولكل شدة أتوقع لها؟ ثم لها عني ساعة وقرأ: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لا يَكُونُوا يَحْسَبُونَ**﴾[2]، ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشياً عليه منها.

١- آل عمران ٣: ٣٠.

٢- الزمر ٣٩: ٤٧.

فقلت: قد خرجت نفسه فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: ما أنا و ما خطري؟ هب لي إساءتي بفضلك، وجللني بسترك، واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك، فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتني، فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه إني لفي هذا الموضع منذ ما شاء الله، أجاهد إبليس ويجاهدني، فلم يجد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك، فإليك عني، يا مخدوع، فقد عطلت علي لساني، ومالت إلى حديثك شعبة من قلبي، فأنا أعوذ بالله من شرك، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه، ويتفضل علي برحمته.

الثامن: ونقل عن بعض الصالحين قوله: بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف علي فقال: يا هذا قم فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه، فاتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمُوْتِ﴾[1] اللهم بارك لي في الموت، فقلت: وفيما بعد الموت، فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر، ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه، بيض وجهي بالنظر إليك، واملأ قلبي من المحبة لك، وأجرني من ذلة التوبيخ غداً عنك، فقد آن لي الحياء منك، وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عنك أملي، ثم مضى وتركني.[2]

التاسع: وينقل عن إحدى الصالحات: أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على

١- آل عمران ٣: ١٨٥.

٢- المحجة البيضاء ٨: ١٧٥، كتب المراقبة والمحاسبة.

سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها، ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك، ثم أقبلت على صلاتها، فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أَقَبَلْتَ مني ليلتي فأهنأ، أو رددتها علي فأعزي، وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحته، لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

العاشر: يروى أن مكفوفة البصر كانت تحيي الليل، فإذا جاء السحر نادت بصوت محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي، يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء، وأكرم الكرماء، يا كريم، فخرت ساجدة فسمعت لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر.

الحادي عشر: يقول يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة، فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها، قال: أنت وذاك، قال: فأتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً لكان ذلك أقوى على ما تريدين، فبكت ثم قالت: والله لو وددت أن أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دماً حتى لا تبقى قطرة من دم جارحة من جوارحي، وأنّى لي بالبكاء، وأنّى لي بالبكاء، فلم تزل تردد «وأنّى لي بالبكاء» حتى غشي عليها.

الثاني عشر: يقول عبدالله بن الحسن: كانت لي جارية رومية، وكنت بها

معجباً، وكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي، فانتبهت فألتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها، فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا غفرت لي ذنوبي، فقلت لها: لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: لا يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لي أيقظ عيني، وكثير من خلقه نيام.

الثالث عشر: يقول أبو هاشم القرشي: قدمت علينا إمرأة من أهل اليمن يقال لها سريّة، فنزلت في بعض ديارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي: أشرف على هذه المرأة، فانظر ماذا تصنع؟ فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة تقول: خلقتَ سريّةً ثم غذّيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيها فلتة بعد فلتة، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها، وأنت عليم خبير، وأنت على كل شيئ قدير.[1]

الرابع عشر: ينقل الشيخ الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: كان ملك في بني اسرائيل، وكان له قاض، وللقاضي أخ، وكان رجل صِدقٍ، وله إمرأة قد ولدتها الأنبياء، فأراد الملك أن يبعث رجلاً في حاجة، فقال للقاضي: أبغني رجلاً ثقة، فقال: ما أعلم أحداً أوثق من أخي، فدعاه ليبعثه، فكره ذلك الرجل، وقال لأخيه: إني أكره أن أضيع إمرأتي، فعزم عليه، فلم يجد بداً من الخروج.

فقال لأخيه: يا أخي إني لست أخلف شيئاً أهم علي من إمرأتي، فاخلفني

١- المحجة البيضاء ٨: ١٧٧. كتاب المراقبة والمحاسبة.

فيها، وتولَّ قضاء حاجتها، قال: نعم، فخرج الرجل، وقد كانت المرأة كارهة لخروجه، فكان القاضي يأتيها ويسألها عن حوائجها، ويقوم لها، فأعجبته فدعاها إلى نفسه، فأبت عليه، فحلف عليها: لإن لم تفعل لنخبرن الملك إنك قد فجرت! فقالت: إصنع ما بدا لك، لست أجيبك إلى شيئ مما طلبت، فأتى الملك فقال: إن إمرأة أخي قد فجرت، وقد حق ذلك عندي، فقال له الملك: طهرها، فجاء إليها، فقال: إن الملك قد أمرني برجمك، فما تقولين؟ تجيبينني وإلا رجمتك.

فقالت: لست أجيبك، فاصنع ما بدا لك، فأخرجها فحفر لها فرجمها ومعه الناس، فلما ظن أنها قد ماتت، تركها وانصرف، وجن بها الليل، وكان بها رمق، فتحركت وخرجت من الحفيرة، ثم مشت على وجهها حتى خرجت من المدينة، فانتهت إلى دير فيه ديراني راهب، فباتت على باب الدير، فلما أصبح الديراني فتح الباب، ورآها فسألها عن قصتها، فخبرته فرحمها وأدخلها الدير، وكان له ابن صغير لم يكن له ابن غيره، وكان حسن الحال، فداواها حتى برئت من علتها، واندملت ثم دفع إليها ابنه، فكان تربيه وكان للديراني قهرمان[1] يقوم بأمره، فأعجبته فدعاها إلى نفسه، فأبت، فجهد بها فأبت، فقال: لإن لم تفعلي لأجهدن في قتلك، فقالت: اصنع ما بدا لك، فعمد إلى الصبي فدق عنقه، وأتى الديراني، فقال له: عمدت إلى فاجرة قد فجرت، فدفعت إليها ابنك فقتلته، فجاء الديراني فلما رآها قال لها: ما هذا؟ فقد تعلمين صنيعي بك، فأخبرته بالقصة، فقال لها: ليس تطيب نفسي أن تكوني عندي، فاخرجي، فأخرجها ليلاً ودفع لها عشرين درهماً، وقال لها: تزودي هذه فالله حسبك.

١- قهرمان: هو الذي يقوم بأمر المرء ويباشر أموره.

فخرجت ليلاً فأصبحت في قرية، فإذا فيها مصلوب على خشبة، وهو حي، فسألت عن قصته، فقالوا: عليه دين عشرون درهماً، ومن كان عليه دين عندنا لصاحبه، صلب حتى يؤدي إلى صاحبه، فأخرجت العشرين درهماً، ودفعتها إلى غريمه، وقالت لا تقتلوه فأنزلوه عن الخشبة، فقال لها: ما أحد أعظم علي منّة منك، نجيتني من الصلب ومن الموت، فأنا معك حيث ما ذهبت، فمضى معها ومضت، حتى انتهيا إلى ساحل البحر، فرأى جماعة وسفناً، فقال لها: إجلسي حتى أذهب، أنا أعمل لهم، واستطعم وآتيك به، فأتاهم فقال لهم: ما في سفينتكم هذه؟

قالوا: في هذه تجارات وجوهر وعنبر وأشياء من التجارة، وأما هذه فنحن فيها، وكم يبلغ ما في سفينتكم؟ قالوا: كثير لا نحصيه، قال: فإن معي شيئاً هو خير مما في سفينتكم، قالوا وما معك؟ قال: جارية لم تروا مثلها قط، قالوا: فبعنها: قال: نعم، على شرط أن يذهب بعضكم فينظر إليها، ثم يجيئني فيشتريها ولا يعلمها ويدفع إلي الثمن، ولا يعلمها حتى أمضي أنا، فقالوا: ذلك لك، فبعثوا من نظر إليها، فقال: ما رأيت مثلها قط، فاشتروها منه بعشرة آلاف درهم، ودفعوا إليه الدراهم، فمضى بها، فلما أمعن أتوها فقالوا لها: قومي وادخلي السفينة.

قالت: ولم؟ قالوا: قد اشتريناك من مولاك، قالت: ما هو بمولاي، قالوا: لتقومين أو لنحملنك، فقامت ومضت معهم، فلما انتهوا إلى الساحل لم يأمن بعضهم بعضاً عليها، فجعلوها في السفينة التي فيها الجوهر والتجارة، وركبوا هم في السفينة الأخرى، فدفعوها فبعث الله عز وجل عليهم رياحاً فغرقتهم وسفينتهم، ونجت السفينة التي كانت فيها، حتى انتهت إلى جزيرة من جزائر البحر، وربطت

السفينة ثم دارت في الجزيرة فإذا فيها ماء وشجر فيه ثمر.

فقالت: هذا ماء أشرب منه، وثمر آكل منه، أعبد الله في هذا الموضع فأوحى الله عز وجل إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل، أن يأتي ذلك الملك فيقول: إن في جزيرة من جزائر البحر خلقاً من خلقي، فاخرج أنت ومن في مملكتك حتى تأتوا خلقي هذا، وتقرون له بذنوبكم، ثم تسألوا ذلك الخلق أن يغفر لكم، فإن يغفر لكم غفرت لكم.

فخرج الملك بأهل مملكته إلى تلك الجزيرة، فرأوا إمرأة، فتقدم إليها الملك فقال لها: إن القاضي هذا أتاني فأخبرني أن إمرأة أخيه فجرت، فأمرته برجمها، ولم يقم عندي البينة، فأخاف أن أكون قد قدمت على ما لا يحل لي، فأحب أن تستغفري لي، فقالت: غفر الله لك إجلس، ثم أتى زوجها ولا يعرفها، فقال: إنه كان لي إمرأة وكان من فضلها وصلاحها، وإني خرجت عنها وهي كارهة لذلك، فاستخلفت أخي عليها، فلما رجعت سألت عنها، فأخبرني أخي أنها فجرت، فرجمها، وأنا أخاف أن أكون قد ضيعتها، فاستغفري لي، فقالت: غفر الله لك، فأجلسته إلى جنب الملك.

ثم أتى القاضي فقال: إنه كان لأخي إمرأة وإنها أعجبتني، فدعوتها إلى الفجور، فأبت، فأعلمت الملك أنها قد فجرت، وأمرني برجمها، وأنا كاذب عليها، فاستغفري لي، قالت: غفر الله لك.

ثم أقبلت على زوجها فقالت: اسمع، ثم تقدم الديراني وقص قصته، وقال: أخرجتها بالليل وأنا أخاف أن يكون قد لقيها سبع فقتلها، فقالت غفر الله لك، إجلس، ثم تقدم القهرمان، فقص قصته، فقالت للديراني إسمع، غفر الله لك، ثم

تقدم المصلوب فقص قصته، فقالت: لا غفر الله لك.

ثم أقبلت على زوجها فقالت: أنا إمرأتك وكل ما سمعت فإنما هو قصتي، وليست لي حاجة في الرجال، وأنا أحب أن تأخذ هذه السفينة وما فيها، وتخلي سبيلي، فأعبد الله عز وجل في هذه الجزيرة، فقد ترى ما لقيت من الرجال، ففعل، وأخذ السفينة وما فيها، فخلى سبيلها وانصرف الملك وأهل مملكته.[1]

نقل أن إمرأة بغي من بني اسرائيل كان لها ثلث الحسن، وكانت لا تمكن نفسها إلا بعشرة دينار، وكانت تقف على شرفة منزلها توقع من تريد في حبائلها من الرجال والشباب، فأبصرها عابد ذات مرة فأعجبته، ولم يكن يملك مالاً، فباع قطعة من قماش كانت في حوزته، ثم جاء إليها، ودفع إليها المال، وعندما دنى منها وجلس جلسة الخائن، فذكر مقامه بين يدي الله، فأخذته رعدة، وتغير لونه، فاستغربت المرأة من وضعه وقالت: ما بدا لك؟ قال: خشيت الله، فقالت: لطالما تمنى غيرك أن يكون هنا، فقال: اتركيني فقد وهبتك ما أعطيتك، فخرج العابد من عندها وهويتحسّر ويبكي على ما بدا منه، فأصاب تلك المرأة خوف شديد واضطراب من حالها، فحدثت نفسها: إن كانت حالة هذا الرجل لأول ذنب يرتكبه، فما هو حالي الغارقة في الذنوب طوال عمري، فيجب أن يكون خوفي أشد منه، فتوجهت لله وأعلنت توبتها، وأغلقت بابها، ولبست ثوباً قديماً، وتوجهت للعبادة والدعاء، وقالت في نفسها، يا إلهي إن وجدت هذا الرجل سأعرض عليه الزواج مني، لعله يقبل بذلك، لأتعلم منه معالم ديني، واستعين به على عبادتك. فشدت رحالها بحثاً عن العابد حتى وصلت إلى قريته، فلما رآها

١- الكافي ٥: ٥٥٦. حديث ١٠.

شهق شهقة فمات، فسألت: هل له قريب يريد الزواج ولا يملك ما يعينه على ذلك، فقالوا أخوه رجل فقير، فتزوجت منه حباً لأخيه، فرزقهما الله خمسة أبناء، فكانوا جميعاً دعاة لله ونشر معارفه.[١]

السادس عشر: جاء في التفسير العرفاني «روح البيان»: اصيب رجل بألم شديد في قدمه، فقال الطبيب: إذا لم تبتر قدمه فإن حياته ستكون في خطر، فقبل المريض بقطع قدمه، ولكن قال للطبيب: إذا أصبحت جاهزاً لقطع قدمي سأبدأ بالذكر، وعند الثالثة إبدأ بالعمل، فأعلن الطبيب استعداده للبدء، فشرع المريض بذكر: يارب، يارب، وفي هذه الحال بدأ الطبيب بقطع قدمه، وهو مازال يردد الذكر حتى انتهى الطبيب من عمله، ثم طلب بأخذها بإحترام ودفنها في المقبرة، والسبب في ذلك إن هذه القدم لم تخط منذ بدأ التكليف خطوة خلاف ما يريده الله.

هذه نفحة من أحوال المراقبين والمحاسبين، الذين لا يغفلون عن ذكر الحق ولو للحظة، ولا يريدون أن يغفلوا، هؤلاء لا يرون إلا الله، ولايطلبون إلا الله، ولا يملكون غير الله، هؤلاء مظهر الحياة وجمالها، ولحظات عمرهم عبرة ودرس لكل انسان في أي مقام كان، هذا هو بحث الغفلة، نسأل الله الرحيم أن يتفضل علينا بحال المراقبة والمحاسبة.

١- لآلي الأخبار ١: ١٢١.

«وَنَفْسَهُ عَنِ الْشَّهْوَةِ»

حقيقة النفس:

النفس: حقيقة، ووجود الإنسان قائم بها، النفس: هي بمثابة المدير والمدبر لمعمل من المعامل، وهي وجود الإنسان وأصله وجذوره.

نحن غير مطلعين على هذه الحقيقة ذات القيمة العالية، ويجب القول: إن معرفة النفس كمعرفة ذات الموجودات غير ممكن. ولكن ما نعلمه هو أن وجودنا مرتبط بها، وبدونها لا مكان لحياة البدن، ونسبة الأعضاء للنفس كنسبة العباد لمولاهم، فالاعضاء والجوارح لا استقلال لهم بدون النفس، وبدون النفس لا منشأ للعمل.

وكلمة " أنا" جارية على لسان جميع البشر وفي جميع الأمور، وهي عبارة عن النفس، ويعتقد الفلاسفة الإلهيون بالإستلهام من الوحي أن البصر والسمع والتكلم والقراءة والمشي وبقية الحركات هي من عمل النفس، وأن العين والأذن واللسان واليد والقدم عمالا لها وأدوات.

والنفس في وجود الانسان لوحة لجميع الغرائز، وصفحة لجميع الميول، ومنبع لجميع الرغبات، وهذه الميول والغرائز والرغبات والطلبات والشهوات والإحساسات منحت للإنسان بشكل يتناسب مع حياته في الدنيا، وتوصله إلى

التكامل الحقيقي في الدنيا، لإنّ الانسان لا يستطيع الإستمرار في الحياة بدون الغرائز والميول، وبدون الشهوات والرغبات. وكل غريزة وميل ورغبة هي هبة من الله، وهي في محلها الصحيح، وهي نتيجة لعدل الله وحكمته.

والقرآن الكريم والروايات تعبر عن جميع الميول والغرائز الطبيعية بالنعم الإلهية القيمة، وطلب من الإنسان أن يستخدم هذه النعم في طريق الرشد والكمال، والقرب من الحق، ومناجات المولى، وإلا سيكون مصيره الهلاك والخسران.

والإنسان ما لم يضع النفس في الطريق النوراني والإرادة الإلهية، وما لم يزك منبع الحقائق، وما لم يطهرها من الخبائث، وما لم يزينها بالأخلاق الإلهية لن يصل إلى المقام المطلوب.

ولن تجدوا هدفاً ومقصداً لبعثة الأنبياء ونصب الأئمة عليهم السلام، وعرفان العرفاء، وحكمة الحكماء، ونصيحة الناصحين، وشوق المشتاقين إلا تزكية نفس الإنسان.

فيا طلاب السعادة، ومسافرو دار الآخرة، هلموا ولا تردوا تلك الأيدي الممدودة لدعاة الحق إلى صدورهم، هلموا بقبول دعوة أصحاب القلوب وعباد الله الصالحين، واجعلوا مرآة أنفسكم لإنعكاس الحقائق في تصرف هؤلاء.

والإنسان منذ أن يفتح عينه على الحياة، وتتعرف أذنه على الأصوات وهو مشغول بالمحسوسات، وتصور أن جميع العالم هو ما وقعت عليه عيناه وسمعته أذناه، فأخذت النفس وجميع الغرائز والميول والرغبات قالب المحسوسات، فاقترب من المظاهر المادية حتى كاد أن يتحد مع المظاهر الطبيعية!!

وعندما يقترب الإنسان من عالم التكليف والمسؤولية يجب عليه أن يتعرف على عالم الغيب، والحساب والكتاب، ومسألة الموت والبرزخ والقيامة، والنبوة

والإمامة، والحلال والحرام، والحقوق والواجبات، والمسائل الإخلاقبة العالية والإجتماعية والعائلية، وحقوق الحق، وحقوق الخلق، وكل شيئ حق، وأن يضع حداً لحرية الغرائز والميول النفسانية و لا يترك لها العنان بدون قيد أو شرط، ويرد جميع رغبات نفسه في اللحظات الأولى من التكليف في مقابل إرادة الحق تعالى. لإن جميع مواقف الإنسان واختلافه مع الله سبحانه وتعالى والأنبياء والأئمة عليهم السلام والكتب السماوية، وبتعبير آخر: إن عزة الإنسان وذلته، وسعادته وشقاءه يبدأ من هنا.

ومن هنا يجب على الإنسان أن يتعرف على الحقائق الأخرى غير المحسوسة، وأن يترفع عن الكثير من المسائل التي اعتاد عليها، وينزه نفسه عنها، ويتزين بالحقائق السامية، وهذه البرامج ليست عادية وسهلة بالنسبة للإنسان.

والإنسان يحتاج للتزين بهذه المسائل الالهية إلى جهاد كبير وعظيم مع النفس وميولها وغرائزها التي تقولبت بقالب المحسوسات، وعندما يبدأ هذا الجهاد يكون قد سلك بداية طريق السعادة والسلامة، وإذا استمر في هذا الطريق سيصل إلى الرشد والكمال الإلهي، وتكون نتيجة هذا الجهاد انطباق إرادة النفس مع إرادة الله سبحانه وتعالى.

أما إذا فتر في هذا الطريق، ولم يكن مؤهلا لترك مظاهر الدنيا، ولم يتهيأ للدخول إلى العالم الإلهي وشؤونه فقد حجب نفسه، وجعلها أسيرة لغرائزه وميوله، وأخرج المحسوسات وعوامل الشهوة والميول من الحدود الطبيعة، وسيكون مصير الإنسان في قبضة هوى النفس التي طغت فيه الغرائز والميول. وستكون جميع أعمال الإنسان عندها على خلاف الإرادة الإلهية، وهذا بداية طريق السقوط في الذلة، والإستمرار في هذا الطريق سيؤدي بالإنسان إلى طريق

الهلاك والشقاء الأبدي.

من أجل هذا يجب القول: أن النفس هي نبع الطهارة، وهي مصدر الخباثة، فإذا انطبقت خطوط النفس ـ أي الميول والغرائز ـ مع الإرادة الإلهية تكون منبعاً للطهارة، وإذا تجاوزت الحدود الإلهية فهي مصدر للرذائل والخبائث.

آراء ملا صدرا حول النفس:

يقول الشيخ العارف صدر المتألهين حول النفس:

إعلم أن في معرفة النفس الإنسانية يجب الإطلاع على أمور كثيرة:

أحدها: أنه بواسطتها يتوصل إلى معرفة غيرها، ومن جهلها جهل كل ما عداها.

والثاني: أن نفس الإنسان مجمع الموجودات كما سيظهر، فمن عرفها فقد عرف الموجودات كلها، ولذلك قال تعالى:

﴿أوَلَمْ يَتفَكَّرُوا فِي أنْفُسِهمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَأجَلٍ مُّسَمَّى وَإنَّ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[١].

تنبيهاً على أنهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها، عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات، فانيها وباقيها، وعرفوا بها حقيقة السماوات والأرض، ولما انكروا البعث الذي هو لقاء ربهم، قال تعالى:

﴿سَنُرِيْهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ

١- الروم ٣٠: ٨

أَنَّهُ الْحَقُّ أوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

وقال أيضاً:

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلمُوقِنِينَ* وَفِي أَنْفُسَكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[٢].

والثالث: إن من عرف نفسه عرف العالم، ومن عرف العالم صار في حكم المشاهد لله تعالى، لإنه خالق السماوات والأرض، ولم يكن كالكفرة الجهلة الذي وبخهم في جهلهم، وانحطاطهم في هذه المنزلة، فقال فيهم:

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّيْنَ عَضُداً﴾[٣].

والرابع: إنه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقائها، وبمعرفة جسده العالم الجسداني ودثورها وفنائها، فيعرف خسة الفانيات المندثرات، وشرف الباقيات الصالحات، كما قال تعالى:

﴿المَالُ وَالبَنُوْنَ زِيْنَةُ الحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[٤].

والخامس: إن من عرف نفسه عرف أعداءها الكامنة فيها المشار إليه

١- فصلت ٤١: ٥٣.

٢- الذاريات ٥١: ٢٠-٢١.

٣- الكهف ١٨: ٥١.

٤- الكهف ١٨: ٤٦.

بقوله عليه السلام:

«أعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[١].

فيستعيذ منها، كما في قوله صلى الله عليه وآله:

«اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ»[٢].

ومن عرف أعاديه النفسية الكامنة ومكائدها وكيفية انبعاثها، أحسن أن يحترز منها، وأن يجاهدها فيستحق ما وعد الله به المجاهدين في سبيله، ومن لم يعرفها فجدير أن يترآى له عدوه الذي هواه بصورة العقل، فيسول له الباطل بصورة الحق، كما قال تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[٣].

وقوله تعالى:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[٤].

وكما ورد في قول الرسول الأكرم عليه السلام:

«ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله تعالى من الهوى[٥]، ثم

١- عدة الداعي: ٣١٤. بحار الأنوار ٦٧: ٦٤،باب٤٥، حديث١.

٢- كنز العمال ٢: ١٩٤،خبر٣٧١٣. النهاية في غريب الحديث ٥: ٢٢١.

٣- الفرقان ٢٥: ٤٣.

٤- المائدة ٥: ٣٠.

٥- تفسير القرطبي ١٦: ١٦٧.

تلا ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[١].

والسادس: إن من عرف نفسه عرف أن يسوسها، ومن أحسن أن يسوس نفسه وجنودها أحسن أن يسوس العالم فيستحق أن يصير من خلفاء الله تعالى المذكورين في قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾[٢]، ومن الملوك المذكورين قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً﴾[٣].

والسابع: إن من عرفها لم يجد عيباً في أحد إلا رآه موجوداً في ذاته، إما ظاهراً مشهوداً، وإما كامناً كمون النار في الحجر، فلا يكون مغتاباً همازاً لمازاً معجباً متفاخراً، فإن كل عيب ترآى له من غيره وجده في نفسه، ومن ترآى له عيب نفسه فجدير به أن يكون ممن دعا له النبيﷺ بقوله:

«رَحِمَ اللهُ مَنْ أَشْغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ»[٤].

والثامن: إن من عرف نفسه فقد عرف ربه، وقد روي أنه ما أنزل الله كتاباً إلا وفيه، «إعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك»[٥].

الجهل بالنفس من أكبر المخاطر:

١- الفرقان ٢٥: ٤٣.

٢- الاعراف ٧: ١٢٩.

٣- المائدة ٥: ٢٩.

٤- بحار الأنوار ٧٨: ٢٦٨.

٥- اسرار الآيات: ١٣١.

أشار الفيلسوف الإسلامي الكبير في النقاط الثمانية إلى أن معرفة النفس مبدأ جميع الخيرات والبركات، والجهل بالنفس مبدأ لكل التعاسة والشقاء.

وإذا لم يعرف الإنسان النفس فهو كالحيوان، وبالتعبير القرآني ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، فإذا لم يعرف موقعية النفس ومكانها العالي في عالم الخلقة فلن يسير إلا في الظواهر وخط الشهوات.

يقول العالم المصري الكبير في كتاب «**جاهلية القرن العشرين**» في قسم ملامح الجاهلية الحديثة، حول الإضطراب الذي يصيب البشرية من هذه الجاهلية، وبالخصوص فيما يتعلق بموقع البشر في عالم الخلقة:

إن من الملامح المشتركة بين الجاهلية الحديثة والقديمة هي الإنجراف في تيار الشهوات الكامنة أسبابها وموجباتها في الفطرة البشرية ذاتها، ويعود هذا الإنجراف إلى الإبتعاد عن منهج الله سبحانه وتعالى. ولا شك أن الشهوات أمر محبب للإنسان كما يقول القرآن الكريم:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾[1].

وقدر من هذه الأمور كلها ضروري للحياة البشرية.. ضروري لمهمة الخلافة التي يتولاها الإنسان في الأرض. ومن ثم كانت " الدوافع " في كيان الإنسان، دوافع الطعام والشراب والمسكن والملبس. والجنس. والبروز. والتملك. لتربطه

١- آل عمران ٣: ١٤.

بالحياة، وتدفعه إلى الحياة.

ولكنها حين تزيد عن قدرها المعقول، وتصبح «شهوة» مسيطرة على كيان الإنسان، فعندئذ لا تؤدي مهمتها الفطرية التي أوجدها الله من أجلها، وإنما تصبح مدمرة لكيان الإنسان، مبددة لطاقاته، صارفة له عن مهمة الخلافة، وهابطة به عن مستوى الإنسان الكريم الذي كرّمه الله وعلاه، إلى مستوى البهائم ومستوى الشياطين..

والذي يحد من اندفاعها وسيطرتها على كيان الإنسان.. هو العقيدة في الله، والحياة في ظل نظام يقوم على شريعة الله!«**هذا المعنى هو فرع معرفة النفس ومعرفة الله، ومعرفة نظام السعادة للخلق.**

والتجربة البشرية الطويلة خلال القرون تؤكد هذه الحقيقة ! إما الإهتداء بهدى الله وإما الانجراف في تيار الشهوات، كل الشهوات.. وشهوة الجنس في مقدمة الشهوات! إن الإنسان لا يمكن أن يمتنع عن الشهوات أبداً.. إلا لله.

أما إذا جهلنا أنفسنا، ولم نشخص أسباب السعادة، ولم ندرك العوارض الخطيرة لهذا الجهل، ولم نلتفت إلى حسنات النفس ورذائلها، فإن النتيجة ليست فقط في العواقب الوخيمة غير التي ستصيب النفس، بل بالنتائج السيئة التي ستنعكس على البدن أيضاً، لإن هناك علاقة مؤثرة متبادلة بين الجسم والنفس لا يمكن إنكارها.

ومهما اختلف الفلاسفة في باب معرفة حقيقة النفس، أو في كيفية العلاقة بين الجسم والنفس إلا أنهم يتفقون حول الإرتباط الكامل بين النفس والبدن وتأثير كل منهما في الآخر. وتكفي المشاهدة في هذا الباب لإثبات هذا المعنى، ولا يحتاج تعلم ذلك وتعليمه إلى حكيم. فالإرتباط بينهما قائم حتى قال أحدهم

بالوحدة.

فلا يوجد عمل تقوم به النفس إلا وله أثر طبيعي في علم وظائف الأعضاء والخلايا المتعلقة بها، على نحو يظهر بعضها على ملامح الإنسان ووجهه بشكل محسوس كالفرح والحزن والنفور والرغبة والعزم وغيرها، وهذا الموضوع كان مورداً لتوجه المفكرين.

ويبين علم النفس التجريبي بالإستعانة بعلم الأحياء وعلم وظائف الأعضاء موضوع الإرتباط الكامل بشكل أكثر وضوحاً.

إن ارتباطنا بالعالم الخارجي ومعرفتنا بموجودات العالم يتم من خلال الحواس، ومن فقد حساً معيناً فقد علماً مرتبطاً به أيضاً، فمن خلق أعمى لا يعرف الألوان والأشكال، ومن خلق محروماً من السمع، ومن فقد حساً معيناً، فلن تكون لديه معلومات مرتبطة بذلك الحس، وسيحرم من ثمرات العقل أيضاً، لإن بوابة الإدراك مغلقة.

فمتى ما تعرض رأس شخص لضربة شديدة فسيفقد كل احساسه وشعوره أو بعضه، وكذلك إذا استنشق مادة «اتر» و «كلوفورم» الكلوروفورم فسيؤثر ذلك على صحة البدن وعلى روح الإنسان.

والعقل السليم في الجسم السليم، فيمكن النظر إلى عالم الحياة الأخرى بعين أخرى، ويفكر بشكل أفضل، ونشاطاته تكون أحسن، ويحسن خلقه، فالإنسان عندما يكون جائعاً أو عطشاناً أو متعباً لا يستطيع التفكير بشكل جيد، ولا الإستنباط بالشكل الحسن، كما أن العقل لا يستطيع العمل بشكل جيد عند امتلاء معدته من الطعام.

فقد يصاب الإنسان بألم جسماني يمنعه من القيام بأي عمل، وفي هذه الحالة لا يستطيع مزاولة أعماله التي اعتاد القيام بها.

فالعقل العملي ملزم بإيصال المقدار المناسب من الطعام والدم إلى الدماغ، وإذا لم يصل المقدار الكافي للدماغ سيصاب بالإضطراب أو فقدان بعض الشعور. وكذلك عندما يكون الدم غير سالم وغير صحيح، والبدن ليس في كامل سلامته سيكون التفكير بالنسبة للدماغ مهمة صعبة وثقيلة، ونتائجه مبهمة ومعقدة ومتداخلة، وفي هذه الحال لا يستطيع الإنسان أخذ مساعدة من الحافظة أو من المركز المزود للأفكار، ولكن إذا تناول الجسم الغذاء الكافي براحة واطمئنان فلاشك إن العقل سيؤدي وظيفته على أحسن صورة.

هذا تأثير الجسم على قوى النفس وجنودها، وأما بالنسبة لوضع النفس والميول الداخلية للنفس، والعضلات والحواس فإن لها حكاية خاصة، وأما أخلاق الإنسان والغرائز الغالبة على الحيوان يمكن استنباطها بشكل واضح من حركات عضلات الجسم والوجنات والعيون.

فحالة الوجد والسرور تظهر من خلال انبساط عضلات الوجه، والحزن من خلال انقباضه وعبوسه، وصوت المؤذن ينبه المؤمنين للقيام بوظائفهم العبادية، وجرس المدرسة ينبه الطلاب الى موعد الذهاب إلى الصف، والنفس بمجرد تحقق إرادتها العملية للتحرك نحو هدف معين، تستجيب اليدان والقدمان للتحرك نحو ذلك الهدف. ويمكن القول إن الجسم آلة لتنفيذ إرادة النفس، أو أنها مسرحاً لإظهار الأمور والأفكار التي تخطر على الإنسان.

وجميع الحركات الإرادية دليل على تأثير النفس على البدن، والإفراط في

الأعمال العقلية أو الروحية تتعب الجسم وتؤثر على سلامته، فالخوف يوجب خفقان القلب، وارتعاش الأعضاء، والغضب يسبب اضطراب الجسم، واتساع شرايين الدم، جفاف الفم، وتغير لون الوجه، وتداخل الأفكار، والغم يوجب البكاء، ومن الممكن أن يؤدي إلى التلف إذا كان شديداً، ومتى ما كان أكثر تأثيراً، ونزل على الإنسان على حين غرة فقد يصاب بالسكتة والموت، فاستغل الفرح والضحك والإبتسام لنشاط الجسم وصحته.

وقد أثبتت التجربة إن ضغط الدم يرتفع في الدماغ والذراع أثناء التفكير، فسواء كان بسبب الغير أو من جراء نفسه فإن له تأثير عجيب على الإنسان.

الإيحاءات السيئة على الإنسان لها أضرار بدنية واختلالات جسمية، والإيحات الحسنة تساعد بشكل مؤثر للتخلص من الآلام، والتوجه للراحة والسعادة، وهذا هو الفرق الأساسي بين التفاؤل والتشاؤم، وجميعنا يعلم أن سنخ الأماني والأفكار تؤثر في الجسم وحركاته.

وعليه فإن مراتب النفس والجسم لهما ارتباط كامل ومؤثر وظاهر ومحسوس ببعضهما البعض، والذي يقوم بهذا الإرتباط هي الأعصاب، فيجب عدم إغفالها ومراعاتها بشكل كامل.

فيجب على الإنسان رعاية كلا الجانبين النفسي والجسدي، أو الجانب المعنوي والمادي للوصول إلى أهدافه وغاياته، فلا يجب ترك الجسم ليفعل ما يحلو له كالحيوانات، ولا أن يحرم من حاجاته الضرورية، والنتيجة يجب الإلتزام بحد الإعتدال والموازنة بينهما.

وبالتوجه للمسائل التي ذكرت فإن النفس وغرائزها وميولها ورغباتها

وشهواتها إذا اتحدت مع الإرادة الإلهية والأوامر الحكيمة للحق تعالى فستكون منبعاً للحقائق والواقعيات، وستوظف جميع الإعضاء والجوارح في طريق أداء الأعمال الصالحة، لإن الأعضاء والجوارح بمثابة الأدوات للنفس، وبما أن النفس قد تحلت بالطهارة فانها ستتحلى الأعضاء والجوارح بذلك أيضاً، وأما إذا كانت النفس منبعاً للرذائل فستمد جميع أجزاء وجود الإنسان بالرذائل والخبائث، وستصنع منه انساناً أسوء من الحيوانات، وهذه الحالتين تهذيب النفس وتدنيسها فرع معرفة النفس أو الجهل بها، وبالنظر لتأثير كل من النفس والجسم على بعضهما نجد مدى خطورة الجهل بالنفس وعدم معرفة قواعد تزكية النفس وتهذيبها والخسارة المترتبة على ذلك.

النفس موجود عجيب، و قد جاء في الأثر: «**النفس كتاب مبين**»، وقال أحد الحكماء: «**نفسنا نسخة مجملة عن العالم**» وببركة معرفة النفس وجنودها والإطلاع على القواعد الإلهية يمكن الوصول إلى مقام لا يستطيع حتى الملك المقرب الوصول إليه، فهلم لنسافر من عالم الظاهر إلى الباطن، هلم لنفتح نافذة من جدران الظلام المادي باتجاه عالم النور، هلم لنتعرف على نفسك، والإطلاع على مكانتها وموقعيتها، هلم لنتعرف على حلال المولى وحرامه والعمل به، هلم لنتحرر من قفص الطبيعة الضيق ونحلق إلى الفضاء غير المتناهي لعشق المحبوب، هلم لنتعرف على النفس وجنودها، لنطابق بين جميع الميول والرغبات والغرائز المنقوشة على صفحتها وبين إرادة حضرة المحبوب في مقام العمل.

يقول صاحب كتاب «**اللوائح**»:

الإنسان مهما كان في غاية الكثافة بسبب الجسمانية فهو في نهاية اللطافة بالنسبة للروحانية النفس، حيث تأخذ أي شكل كحال العجين، وتتلون بأي لون، لهذا قال الحكماء: بما أن النفس الناطقة تتجلى بصورة مطابقة للحقائق، وتتحقق بأحكامها الصادقة «صارت كأنه الوجود كله».

وكذلك فإن عموم الخلائق لشدة اتصالهم بهذه الصورة الجسمانية، وانشغالهم الكامل بهذا البدن الهيولاني بحيث تصوروا عدم انفصالهم عنه، وعدم وجود خصوصية.

إذن يجب عليك السعي لرفع الغطاء عن نفسك، واقبل نحوها، وانشغل بالحقيقة، لأن درجات الموجودات متاحة للجميع، ومراتب الكائنات هي مرآى لكمالها، فداوم على العمل بقدر ما تستطيع، فاخرج مما أنت فيه، فإذا التفت إلى نفسك فإلى أعضائك إلتفت، ومتى ما عبرت عن نفسك فعنها تعبر.

وعندما ينقاد الشخص للهوى والهوس بشكل مستمر فستكون حاله وخيمة، ومتى ما ظهرت آثار الجذبات اللطيفة عليه سيبعد الإنشغال بالمحسوسات والمعقولات عن باطنه، ويتغلب على الإلتذاذ بها، وينهض لمجاهدة اللذات الجسمانية والراحة الروحانية، ويستبدلها بلذة المشاهدة، ويزيل من ذهنه مزاحمة الأغيار.

وعندما يكون الطالب صادقاً تصبح مقدمة لنسبة الجذبة وهي الإلتذاذ أساساً وأصلاً، فيجب أن تنفتح على الحق سبحانه، وتبذل كل همك في تربيتها وتقويتها، وتجنب كل ما ينافي ذلك، واعلم أنه لو أعطيت العمر الخالد وصرفته في هذه النسبة، فكأنك لم تفعل شيئاً، ولن تفي بحقها كما ينبغي.

نعم إن النفس بحاجة إلى تأديب وتهذيب وتعنيف وترغيب، وبحاجة إلى

التأدب بالآداب الإلهية، وبحاجة للتطهير من الرذائل والخبائث، ومن الضروري إجبارها وتنبيهها للتحرك في مسير الحق تعالى، وتوجيهها نحو الآيات والروايات التي تبشر الصالحين بالسعادة الأبدية، وترغيبها وتشويقها للخير والعمل الصالح، فهي موجود إلهي، ويجب تذكيرها ما أمكن بعشق الحق وتنفيذ الأوامر الإلهية، ويجب التوجه إلى عدم تجاوز غرائزها وميولها وشهواتها ورغباتها حدود العدالة والأوامر الإلهية، بل لابد أن تكون وسيلة لتحصيل الرشد ومقام القرب، لا وسيلة للسقوط ومقدمة للشقاء والهلاك الأبدي، فيجب القيام بالعمل بحيث لا تكون هناك لذة إلا للحق وشؤونه، ويجب الوقوف أمام إنجرارها للذات المادية المحضة، بل لابد من تربيتها على نحو تكون اللذات المادية في حدود الأوامر الإلهية، ولإجل اكتساب اللذة المعنوية، لتعي أنها منبع لإنعكاس جميع العوالم، ومرآة لجميع الحقائق.

أفضل العبادة مخالفة هوى النفس:

يقول عرفاء الإسلام:

إن الإنسان يحتوى على عنصر، وهو عبارة عن روح الشهوة والأكل والنوم، وهذا العنصر مصدر للهوى والهوس والشهوة، وهو ما يسمى بالنفس.

وإن النفس تحرض الإنسان للإنقياد للذات والشهوات الحسية، وهي منبع للأخلاق الذميمة والفاسدة والشريرة.

وإن النفس المتمردة وشركاءها كالدنيا والشيطان هي أكبر موانع الإنسان في طريق الإتصال بالحق.

يقول الهجويري: النفس منبع الشر وأصل السوء، وهي السبب في ظهور

الإخلاق الدنيئة والأفعال المذمومة، وهي على قسمين: الأول: المعاصي، والثاني: الأخلاق السيئة مثل الكبر والحسد والبخل والغضب والحقد وكل الصفات المذمومة عقلا وشرعاً، وبالرياضة يمكننا دفع هذه الأوصاف عن أنفسنا، مثل توبتنا عن المعصية، فإن المعصية من أوصاف الظاهر، وهذه الأخلاق من أوصاف الباطن، والرياضة من أفعال الظاهر، والتوبة من أوصاف الباطن، فما يرى في الباطن من صفات دنيئة يكون تطهيرها بصفات الظاهر السامية، وما يرى من صفات الظاهر يكون تطهيرها بصفات الباطن، وكل من النفس والروح وهما لطائف داخل القلب، كذلك عالم الشياطين والملائكة والجنة وجهنم هي داخل القلب، و هناك محل للخير ومحل للشر، كما أن العين محل للبصر، والأذن محل للسمع، واللسان محل للتذوق، وما يشبهها من الأعيان والأوصاف المودعة في قلب الإنسان.

إذن فمخالفة النفس هي رأس جميع العبادات، وكمال جميع المجاهدات، والعبد ليس له طريق إلا طريق الحق، لإن في موافقة النفس هلاك العبد، وفي مخالفته إياها نجاته.

يقول ذو النون:

التفكير مفتاح العبادة، وعلامة الوصول مخالفة النفس والهوى، ومخالفتها في ترك الأماني، ومن داوم التفكير بقلبه شاهد الغيب بروحه.

يقول **أبو سليمان الداراني**: أفضل الأعمال مخالفة رضى النفس، وقال: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة، وقال أيضاً: من بحث عن وسيلة لله لمخالفة نفسه نظرالله إليه وكتبه من أهل الجنة.

وقال **الحارث المحاسبي**: يستحق الشخص الذي يروض نفسه ويهذبها الوصول إلى المقامات.

وقال **أبو الحسن الخرقاني**: إن لكل شيئ غاية إلا في ثلاث، فلا غاية لها على الإطلاق، غاية كيد النفس، وغاية درجات المصطفى ﷺ، وغاية المعرفة.

يقول أبو السعيد أبو الخير في تفسير الآية: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾**[1]: أي من لم يكفر بنفسه لن يؤمن بالله، وطاغوت كل شخص نفسه.

كتب صاحب «**اسرار التوحيد**»: كان شيخنا يتحدث يوماً فالتفت إلى أحدهم وقال: إن جميع هذه الوحشة من النفس، فإذا لم تقتلها قتلتك، وإذا لم تقهرها قهرتك وغلبتك.

فواظب على وضع نفسك، فإذا لم تلزمها بأفضل الأعمال عند الله سبحانه، ستعرض عن الطاعة، ويستحيل بعد ذلك إعادتها إلى دائرة طاعة الحق.

وليس المقصود من العبارات من قبيل: «**موتوا قبل أن تموتوا**»[2]، موت الجانب الناسوتي والمادي للإنسان، ولا يمكن توقع ذلك، بل المقصود أن تنقاد النفس للسالك ويكون أمرها بيده ليطهرها ويخلصها من صفاتها الرذيلة، وبالتسليم والتوكل والتوجه الكامل لله، والمراقبة المستمرة، والمجاهدة الكبيرة يستبدل الصفات الرذيلة بالملكات الفاضلة.

ويقول الامام الخميني رحمه الله في هذا المجال:

١- البقرة ٢: ٢٥٦.

٢- بحار الانوار ٦٦: ٣١٧،باب٣٧،حديث٣٤.

ولا يحصل الخلاص من هيمنة الشيطان الذي هو مقدمة للإخلاص بحقيقته إلا أن يكون السالك طالباً لله في سلوكه. ويضع حب النفس وعبادتها ـ الذي هو منشأ المفاسد كلها وأمُّ الأمراض الباطنية ـ تحت قدميه، وهذا لا يتيسر بتمام معناه في غير الإنسان الكامل، وبالتبع لخُلَّص أوليائه، وأما سائر الناس فغير ميسّر لهم هذا الخلاص، ولكن على السالك ألاّ ييأس من الألطاف الباطنية لله سبحانه، فإن اليأس من روح الله رأس كل برودة وفتور ومن أعظم الكبائر. والذي يمكن من الإخلاص لصنف الرعايا هو أيضاً قرّة العين لأهل المعرفة، فعلى سالك طريق الآخرة لزوماً حتمياً أن يخلّص معارفه ومناسكه من هيمنة الشيطان والنفس الأمارة، مهما بلغ من الجهد وأن يغوص في حركاته الباطنية، وتغذياته الروحية، ولا يغفل عن حيل النفس والشيطان وحبائل النفس الأمارة وإبليس، وأن يسيئ الظن بجميع حركاته وأفعاله بشكل كامل، ولا يترك نفسه على رسلها آنا ما، فربما تتغلب على الإنسان وتصرعه، إذا تسامح معها، وتسوقه إلى الهلاك والفناء، لأن الأغذية الروحانية إذا لم تكن خالصة من تصرف الشيطان، وكان له دور في إعدادها فمضافاً إلى أنه لا تتربى بها الأرواح والقلوب ولا تصل إلى الكمال اللائق بها، يحصل لها النقصان الفاحش أيضاً، ولعلها تجعل صاحبها يسلك مسالك الشياطين والبهائم والسباع. وبالتالي سيؤدي ـ ما كان سبباً للسعادة، ورأس مال لكمال الإنسانية والوصول إلى المدارج العالية ـ إلى نتيجة معكوسة، وسوق الإنسان إلى الهاوية المظلمة للشقاوة.

وهنا يجب القول: إن أفضل العبادة لكسب رضا الحق مخالفة الهوى وهوس النفس، وينال بها أفضل الجزاء عند الله سبحانه كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى* فَأَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾[١].

ونهي النفس هنا هو عبارة عن الرياضة الذي جرت على لسان أولياء الله، ونقرأ توضيح هذه الآية في أثار الدرويش محمد الطبسي: المراد من الرياضة هو منع النفس الحيوانية من الإنقياد والمطاوعة للقوة الشهوية والغضبية وكل ما يتعلق بهاتين القوتين، ومنع النفس الناطقة من متابعة القوى الحيوانية لرذائل الأخلاق والأعمال، مثل الحرص على جمع المال، والجاه، وتوابعها من الحيل والخديعة، وغلبة التعصب، والحقد والحسد والفجور، والإنهماك في الشرور، وإعادة النفس الإنسانية لطاعة العقل العملي، على نحو يوصله إلى الكمال الممكن بالنسبة إليه.

وأعلم أن النفس إذا تابعت القوة الشهوية سميت «بهيمية»، وإذا تابعت القوة الغضبية سمت «سبعية»، وإن جعلت رذائل الأخلاق لها ملكة سميت «شيطانية»، وسمى الله تعالى هذه الجملة في التنزيل «نفساً أمارة بالسوء» إن كانت رذائلها ثابتة، وأما إذا لم تكن تلك الصفات ثابتة في النفس، بل تميل للشرتارة، وتميل للخير تارة أخرى، وعندما تميل للخير تندم لميلانها نحو الشر سميت بالنفس اللوامة.

وإن كانت النفس منقادة للعقل وطلب الخير والسعادة وتصبح ملكة لها تسمى بالنفس المطمئنة.

والغاية من الرياضة ثلاثة أمور:

١- النازعات ٧٩: ٤٠-٤١.

الأول: رفع موانع الوصول إلى الحق من الإنشغالات الظاهرية والباطنية.

الثاني: إطاعة النفس الحيوانية للعقل العملي فإنه يبعث على طلب الكمال.

الثالث: تثبيت النفس على على ما يهيئها كملكة من قبول فيض الحق إلى بلوغها الكمال الممكن لها.

الرياضة تعني استحالة وصول من أراد قلبه ملازمة الحق في أمر معين ولم يروض نفسه ويهذبها، لإن الرياضة هي هزيمة النفس وكسرها، ومنع النفس من الفتور في الخدمة.

ويجب على من يسلك طريق الدين أن يكون منصفاً، وينهى نفسه عن العيوب، ويتبرأ من عيوب الآخرين، ويرتبط بحضرة الخالق سبحانه وتعالى، ويعتبر نفسه مجرماً ومقصراً أمام الخلائق، ويوقف نفسه لطريق الحق، ويبتعد عن الريا والسمعة، وليكن نظرك للخالق في كل ما يصيبك من خير أو شر لا إلى الخلق.

ويقول رئيس حلقة العارفين أمير المؤمنين عليه السلام في بعض الأبيات الشعرية المنسوبة إليه:

دواؤك فيك ولا تبصر وداؤك منك ولا تشعر

وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

أتزعم إنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واعلم إن ألم جسمك وروحك بسبب نقصك، وأنت عبد الذات، وأنت اللذة الجسمانية، وأنت الهوى النفساني، وأنت الجاهل، وأنت المغرور، ولا بصيرة لك.

أنت كتاب الله المبين، الذي كتب بقلم القدرة الإلهية في جميع آيات القدرة والعلم والحكمة وحقائق الإيجاد، الذي يكشف كل حرف من أحرف هذا

الكتاب حقيقة من حقائق الوجود العينية، ويكشف بك سراً من أسرار العالم. ومع هذا تزعم أنك جرم صغير، وحفنة من التراب، كلاّ إن الامر ليس كذلك، بل أنت روح الوجود القدسي الإلهي، الذي انطوى فيه العالم الأكبر، واجتمعت فيه الحقائق الكلية لعالم الخلقة.

اللذة وألم النفس:

النفس عالم محير، وبحر لا ساحل لهُ، لها كيفيات وحالات لا تعد، واللذة والألم كيفيتان من كيفيات النفس، وعندما تواجه الأمور المادية تميل إليها، وتتحمل الآلام والمشقة ـ مهما بلغت ـ في سبيل كسبها، لإنها توصل إلى الهدف المادي، وعندما تتصل النفس بالهدف المادي تلتذ به، وأما إذا لم تصل إلى مطلوبها المادي تشعر بالضيق والألم، كذلك إذا فقدت ما كانت تملكه بسبب حادث ما تصاب بالحزن والألم، وفي بعض الأحيان تبتلى بالمرض من شدة الغصة وألم الفراق.

والأمر نفسه يتجلى في الجانب المعنوي للنفس كذلك، فالله سبحانه وتعالى هو هدف ومقصد النفوس الزكية وأهل المعرفة، وأصحاب النفوس العالية ولإجل الوصول إلى مقصودهم الحقيقي مستعدون لتحمل الألم والمشقة مهما بلغت، ومستعدون لتقديم أرواحهم للقاء المحبوب ورضاه، وهؤلاء يشعرون بقمة اللذة والسعادة في مسيرهم في هذا الطريق، وفراق معشوقهم يكون أشد ألماً عليهم.

نعم إن إدراك هذه اللذة والألم المعنوي مرتبط بمعرفة الإنسان بحقائق العالم العالية، ومالم يتمسك برداء الأنبياء والأولياءﷺ للولوج في واد عرفة فلن يدرك

هاتين المقولتين.

إن ألم ولذة الغافلين عن المعارف، والذين لاهدف لهم سوى الأمور المادية لا يتعدى الحدود الحيوانية، ولا قيمة لمعاناتهم ومشقتهم المنحصرة بالأمور الحسية، ولن يجنوا منها إلا الحرمان من رحمة الله الخاصة، والخلود في عذاب جهنم في ذلك العالم.

اللذة تعني إدراك الأمور التي فيها كمال للنفس والوصول إليها سواء كان كمالاً حقيقياً أو وهمياً وخيالياً مثلاً إدراك الإنسان ووصوله إلى طعامه أو جمال الصوت والصورة، أو الرياسة، أو السلطة، أو الوصول إلى آماله وخيالاته.

والألم أو انعدام اللذة يقابل اللذة، أو هو ضد اللذة، ومعناه إدراك الأمور المنافرة والمضادة لكمال النفس.

وعلى كل حال فإنّ معنى الألم يؤخذ من اللذة من باب التقابل، سواء كان تقابل التضاد أو تقابل الملكة وعدمها، مع العلم أن الألم واللذة كيف نفساني، والذات الواجبة منزهة عن ذلك، وبما أن الألم واللذة صارت معلومة وهي إدراك الملائمات والمنفرات، نقول إن إدراك الإنسان يقسم إلى ثلاثة مراتب كلية: الإدراك الحسي، والخيالي أو الوهمي، والعقلي، وبناءً على ذلك تكون مراتب اللذة والألم ثلاثة أيضاً:

اللذة والألم الحسي: حيث تحصل اللذة بسبب ورود الكيفيات المحسوسة على القوى الحسية، مثل الحلوى بالنسبة للذائقة، واللون الأخضر والورود بالنسبة للباصرة، والنعومة بالنسبة للامسة، والرائحة الزكية بالنسبة للشامة، والصوت الجميل بالنسبة للسامعة، والألم على خلاف ذلك.

اللذة والألم الخيالي والوهمي: وتحصل اللذة بسبب تخيل الآمال السعيدة، أو الأماني الحسنة، وغلبة الوهم، وحصول السرور، مثل تخيل أن له سيرة حسنة، أو شهرته في المجتمع ومعروفيته، والمقبولية العامة، أو أنه فاتح العالم، ومتغلب على خصومه، والألم على ذلك أيضاً.

اللذة العقلية: وهو خاص بالنفس الناطقة القدسية، والنفس الإلهية الكلية هي عبارة عن: إدراك الحق والنيل بالحق، ودرك حقائق الأشياء كما هي، وبالخصوص المعرفة بالحق الأول، ومشاهدة الحسن المطلق اللامتناهي الإلهي، والإلتذاذ بطاعته وعبوديته، والتفكير في أوصاف جلاله وجماله، وقدرته وحكمته، ورحمته اللامتناهية، والإستغراق في الشهود.

وأعلم أن النفوس تنقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب اختيارها للذة والألم من المراتب الثلاثة:

النفوس الدانية: هم أناس كل همهم ومطمح نظرهم وغايتهم إدراك اللذات الحسية، إلى الحد الذي يؤثرون فيه بكل ما يعارضها من لذات الوهم والخيال ومقدمة عليها. فمثلاً: لو دعيت لذات الحواس الخمس الظاهرة المهيأة إلى مجلس فإنها ستزيح جميع لذات الشرف والوجاهة وشؤونها التابعة للوهم والخيال بشكل كلي، ومجالس عشق اللذات الحسية وجاذبيتها تشد تلك النفوس وتسحبها إليها.

النفوس المتوسطة: هم أناس مقصدهم العالي هو الحصول على لذات الوهم والخيال، يعني الميل للرئاسة والشهرة، وبقية الموهومات والخيالات الغالبة عليهم، إلى الحد الذي إذا تعارضت مع اللذائذ الحسية فانهم يؤثرونها على

اللذات الحسية ويقدمونها عليها، بخلاف القسم الأول، بحيث لو كانت مواقعهم الاجتماعية ووجاهتهم تتعرض للخطر في أي مجلس تهيأت فيه اللذات الحسية لايحيدون عنها أبداً، لأن لذات الشرف والوجاهة وحيثياتها الكافية ألذ وأشرف من اللذات الحسية.

نعم إذا لم تتعارض اللذات الحسية مع الوهمية، وأمكن الجمع بينهما فستنجذب النفس لكليهما وتستفيد من كليهما، وكذلك الأمر لو تعارضت اللذات الوهمية مع اللذات العقلية، فإن تلك النفوس محكومة باللذات الوهمية، ومحرومة من لذات المقام العالي لعقولهم.

النفوس العالية: هي نفوس مقصودها الأصلي وغرضها النهائي كسب اللذات العقلية والكمال المعنوي الأبدي، وتوظيف الهمّة للحصول على العلم، والمعرفة الإلهية، وحقائق عالم القدس المجردة، والعالم الخالد، وكلما تعارضت هذه اللذة مع اللذات الحسية والوهمية الباطلة صرفت نظرها كلياً عن اللذات الوهمية والحسية التي لا قيمة لها، وفي مقام اللذات العقلانية لا ترى لتلك اللذات أية قيمة تذكر، فهي لم تنجذب أصلاً لتلك الأمور العابرة والفانية، و السريعة الزوال، بل هي في بحر جواهر اللذات العقلية مستغرقة في العلم والمعرفة، ومجذوبة للحق والحقيقة، ومشتاقة لتكميل وتهذيبها، ومشغولة بالسر والعلانية مع المعشوق الحقيقي والمحبوب الأزلي.

نعم وإن كانت اللذات الحسية والوهمية لا تعارض اللذات العقلية إلا أنها تساعدها إلى حد ما للوصول إلى اللذات العقلية. وفي الحقيقة إن هذين القسمين من اللذة هما مقدمة، ومقصودان بالعرض، ومرادان بالتبع، بحيث لا تؤدي إلى

إحداث أقل ضرر في اللذة العقلية، وتساعدها وتقويها للتوجه إلى تلك اللذات وإلا تركها واختار اللذة العقلية.

ومن المعلوم أيضاً إن الطبقة الأولى من النفوس محكومة ومجذوبة للمحسوسات، ويمكن إذا تعارضت اللذات الحسية مع الوهمية فلذات الحس مقدمة، ولكن إذا تعارضت اللذة الحسية مع اللذة العقلية واختاروا اللذة العقلية،فهذه النفوس تصبح أعلى من النفوس المتوسطة، و يحسب اصحابها من صلحاء وسعداء العالم، وأما إذا قدّمت اللذات الحسية على اللذات العقلية، ففي هذه الصورة ستحرم تلك النفوس من المعنى الإنساني، وستكون كالحيوانات بل أسوأ من الحيوانات، يقول القرآن الكريم:

﴿أولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1].

أما الطبقة الثانية يعني النفوس المتوسطة، فمن الممكن أيضاً أن توفق عند التعارض بين اللذات الوهمية واللذات العقلية إلى إختيار اللذات العقلية، وتصرف النظر في هذه الحالة عن اللذات الوهمية، وتضحي بها من أجل اللذات العقلية، في هذه الصورة تدخل النفوس المتوسطة هذه في الطبقة العالية، وتكون علاقة مشابهة ومرافقة مع النفوس العالية لأنبياء الله وأوليائه:

﴿وَحَسُنَ أولَئِكَ رَفِيقاً﴾[2].

وأما لو أختارت هذه النفوس ـ في بعض الأحيان ـ عند تعارض اللذات

١- الاعراف ٧: ١٧٩.

٢- النساء ٤: ٦٩.

الوهمية مع العقلية الأوهام والخيالات، وانغرت بالأمور التي لا ثبات لها و الباطلة بالذات، فانها ستحرم من فيوضات العقبى، و من السعادة الحقيقية، وستكون من النفوس الشيطانية، بل هم شياطين الأنس، ويتحدون مع الشيطان ويحشرون معه، ولن يكون مصيرهم إلا الشقاء والظلمات النفسية.

إن أكثر نفوس البشر نفوس حسية، يعني نفوس دانية محكومة بالحس والمحسوسات، والنفوس المتوسطة هي الإنسان الوهمي، ونسبة هؤلاء محدودة جداً، مع أن عدد الطبقة المتوسطة بالنسبة للعالية كثيرة جداً.

وأما طبقة الإنسان العقلي، أي الإنسان حقيقة، فهؤلاء قليلون جداً، كما قالوا عليهم السلام:

«المُؤْمِنُ أعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الأحْمَرِ»[1].

فهؤلاء جواهر نادرة، وأفراد قليلون طوال مراحل التاريخ، وصلوا إلى المقام الشامخ، وحصلوا على المنازل الرفيعة.

يقول ابن سينا:

«جل جناب الحق أن يكون شريعةً لكل وارد، أو يَرِدُ عليه إلا واحداً بعد واحد»[2].

والقصة قصيرة، فإن فضيلة الإنسان وشرافه الحقيقي مرتبط بالصفات والملكات العالية التي كانت مع الأنبياء والحكماء، وإن النبع الحقيقي والسبب الأصلي في النفس هو معرفة الله، ومحبت جمال الحق والكمال المطلق، وتعظيم

١- الكافي ٢: ٢٤٢، باب في قلة عدد المؤمنين،حديث ١. بحار الانوار ١٤: ١٥٩، باب ٣٨.

٢- الصوارم المهرقة: ٢٦٦.

الروح، وقوة النفس الناطقة و سموّها، وكلما كانت النفس عالية، و المعشوق اسمى والمشتاق إليه أكبر ستتجلى فيه هذه الصفات بشكل أكثر.

والخلاصة: أن هناك تناسب مباشر بين مراتب معرفة الله وجميع الصفات الكمالية، فكل من كانت معرفته وعلمه وإيمانه أكمل كانت أوصاف كماله أكثر.

ولا يجب إغفال هذه النكتة أيضاً: وهي أنه مع معرفة الله لابد من التحكم بالنفس، وتجنب الشهوات غير الضرورية، ومجاهدة الهوى وهوى النفس، فإن المعرفة بدون هذه الحركات الإيجابية لن تثمر ولن تعطي نتيجة. لإجل أن الإمام الصادق عليه السلام ربط ذلك فجعل من حصّن القلب عن الغفلة ونفسه عن الشهوة وعقله عن الجهل فقد دخل في ديوان المتيقظين، وأعظم الشهوات وأخطرها المعجب بنفسه والأناني، فمن آثر بنفسه وصل إلى الله.

النفس في الروايات:

تشير الروايات الواردة عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام إلى هذه الحقيقة وهي: أن النفس إذا لم تزك فهي منشأ لجميع المفاسد، وعندما تتزود بالتربية الإلهية فهي نبع للسعادة والراحة، وهنا لابد من عرض بعض الروايات التوضيحية لما ذكر من الآيات القرآنية:

في وصيته لأبي ذر قال النبي صلى الله عليه وآله:

«عَلَى العَاقِلِ أنْ يَكُوْنَ لَهُ سَاعَاتٌ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيْهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَتفَكَّرُ فِيْمَا صَنَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلَيْهِ»[1].

١- معاني الأخبار: ٣٣٢، حديث١. بحار الانوار ٦٨: ٣٢٣، باب ٨٠، حديث٧.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ لَمْ يَتَعَاهَد النَّقْصَ مِنْ نَفْسِهِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْهَوَى، وَمَنْ كَانَ فِي نَقْصٍ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ»[١].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام

قال:«ألاَ فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحَاسَبُوا فَإنَّ فِي الْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفاً، كُلُّ مَوْقِفٍ مَقَامُ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٢] ـ[٣].

و عن أبي حمزة الثمالي قال: كان علي بن الحسين عليهما السلام: يقول:

«ابْنُ آدَمَ لا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَكَ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِكَ، وَمَا كَانَتْ المَحَاسَبَةُ مِنْ هَمِّكَ، وَمَا كَانَ الخَوْفُ لَكَ شِعَاراً، وَالحُزْنُ لَكَ دِثَاراً، ابْنُ آدَمَ إنَّكَ مَيِّتٌ وَمَبْعُوثٌ وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَي الله عَزَّ وَجَلَّ، وَمَسْؤُولٌ فَأَعِدَّ جَوَاباً»[٤].

فيما أوصى به أمير المؤمنين ابنه الحسن صلوات الله عليهما:

«يَا بُنَيَّ لِلْمُؤْمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيْهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيْهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيْهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَلَذَّاتِهَا فِيْمَا يَحِلُّ وَيُحْمَدُ، وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ بُدٌّ مِنْ أنْ يَكُونَ شَاخِصاً فِي

١- الامالي للشيخ الصدوق: ٣٩٣، المجلس ٦٢،حديث٤. بحارالانوار ٦٧: ٦٤، باب٤٥،حديث٣.

٢- السجدة: ٥.

٣- الامالي للشيخ الطوسي: ١١٠،المجلس ٤، حديث١٦٩، بحارالانوار ٦٧: ٦٤،باب٤٥حديث ٤.

٤- الامالي للشيخ الطوسي: ١١٥، المجلس ٤،حديث١٧٦. بحار الانوار ٦٧: ٦٤،باب٤٥،حديث٥.

ثَلاثٍ: مَرَمَّةٌ لِمَعَاشٍ أوْ خُطْوَةٌ لِمَعَادٍ، أوْ لَذَّةٌ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»[١].

و عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَسَنَّ لَكُمْ سُنَناً فَاتَّبِعُوهَا وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ حُرُمَاتٍ، فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَعَفَى لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةٌ مِنْهُ، مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلا تُكَلِّفُوهَا»[٢].

وجاء في رواية لرسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْيَسِ الكَيِّسِينَ وَأَحْمَقِ الحُمَقَاءِ؟ قَالُوا بَلَى يَارَسُوْلَ الله، قَالَ: أَكْيَسُ الكَيِّسِين مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوتِ، وَأَحْمَقُ الحَمْقَى مَنْ اتبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَ، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي»[٣].

و قال رجل: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: كَيْفَ يُحَاسِبُ الْرَّجُلَ نَفْسَهُ؟ قَالَ عليه السلام: إِذَا أَصْبَحَ ثُمَّ أَمْسَى رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ: يَا نَفْسُ إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَضَى عَلَيْكِ لا يَعُودُ إِلَيْكِ أَبَداً، وَاللهِ سَائِلُكِ عَنْهُ فِيْمَا أَفْنَيتِهُ، فَمَا الَّذِي عَمِلْتِ فِيه؟ أَذَكَرْتِ اللهَ أَمْ حَمَدتِيهِ؟

١- بحار الانوار ٦٧: ٦٥،باب ٤٥،حديث ٦.

٢- الامالي للشيخ الطوسي: ٥١٠،مجلس ١٨،حديث ١١١٦. بحار الانوار ٦٧: ٦٧،باب ٤٥ حديث ١٢.

٣- ميزان الحكمة ٣: ١١٦٤،حديث ٣٨٣٧.

أقَضَيْتِ حَقَّ أخٍ مُؤْمِنٍ؟ أنَفَّسْتِ عَنْهُ كُرْبَتَهُ؟ أحَفَظْتِيه بِظَهْرِ الْغَيْبِ فِي أهْلِهِ وَوَلَدِهِ؟ أحَفَظْتِيهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مُخَلَّفِيهِ؟ أكَفَفْتِ عَنْ غَيْبَةِ أخٍ مُؤمِنٍ بِفَضْلِ جَاهَكِ؟ أأعَنْتِ مُسْلِماً؟ مَا الَّذِي صَنَعْتِ فِيهِ؟ فَيَذْكُرُ مَا كَانَ مِنْهُ، فَإنْ ذَكَرَ أنَّهُ جَرَى مِنْهُ خَيْرٌ، حَمَدَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَهُ عَلَى تَوْفِيقِه، وَإنْ ذَكَرَ مَعْصِيَةً أوْ تَقْصِيْراً اسْتَغْفَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَزَمَ عَلَى تَرْكِ مُعَاوَدَتِهِ وَمَحَا ذَلِك عَنْ نَفْسِهِ، بِتَجْدِيدِ الصَّلاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ، وَعَرْضِ بَيْعَةِ أمِيْرِ الْمُؤمِنينَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَبُوْلَهَا، وَإعَادَةَ لَعْنِ شَانِئيهِ وَأعْدَائِهِ، وَدَافِعِيهِ عَنْ حُقُوقِهِ، فَإذَا فَعَلَ ذَلِكَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَسْتُ أنَاقِشُكَ فِي شَيئٍ مِنَ الذُّنُوبِ مَعَ مَوالاتِكَ أوْلِيَائِي، وَمُعَادَاتِكَ أعْدَائِي»[1].

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«مَا كَانَ عَبْدٌ لِيَحْبِسَ نَفْسَهُ عَلَى الله إلا أدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ»[2].

وروى علي بن أبي طالب عليه السلام عن أبي جحيفة أنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أتجشأ، فقال صلى الله عليه وآله:

يَا أبَا جُحَيْفَة اخْفِضْ جُشَاكَ، فَإنَّ أكْثَرَ النَّاسِ شَبَعاً فِي الدُّنْيَا

١- بحار الانوار ٦٧: ٧٠،باب٤٥حديث١٦.

٢- بحار الانوار ٦٧: ٤٢،باب٤٥حديث١٦.

أطْوَلُهُم جُوعاً يَوْمَ القِيَامَةِ، وقال أيضاً: نُورُ الحِكْمَةِ الجُوْعُ، والتَّبَاعُدُ مِنَ الله الشَّبَعُ، وَالقُرْبَةُ إلَى الله حُبُّ المَسَاكِينِ وَالدُّنُوُّ مِنْهُم، لا تَشْبَعُوا فَيُطْفئُ نُورُ المَعْرِفَةَ مِنْ قُلُوبكُمْ، وَمَنْ بَاتَ يُصَلّي فِي خِفَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ بَاتَ وَحُوْرُ العِيْنِ حَوْلَهُ، وقال: لا تَمِيتُوا القُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَإنَّ القُلُوبَ تَمُوتُ كَالزُّروعِ إذَا كَثُرَ عَلَيْهِ المَاءُ»[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ غَلَبَ عِلْمُهُ هَوَاهُ فَهْوُ عِلْمٌ نَافِعٌ، وَمَنْ جَعَلَ شَهْوَتَهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَرَّ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»، وقال ﷺ: **«يَقُولُ الله عزَّ وَجَلَّ: أيُّمَا عَبْدٍ أطَاعَنِي لَمْ أكَلْهُ إلَى غَيْرِي، وإيُّمَا عَبْدٍ عَصَانِي وَكَلْتُهُ إلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ لَمْ أبَالِ فِي أيٍّ وَادٍ هَلَكَ»**[2].

وجاء في بعض الأخبار أن رجلا يدعى «مجاشع» دخل على رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله كيف الطريق إلى معرفة الحق؟ فقال ﷺ: **«مَعْرِفَةُ النَّفسِ»**، فقال يارسول الله: كيف الطريق إلى موافقة الحق؟ قال: **«مُخَالَفَةُ النَّفْسِ»**، قال يارسول الله: فكيف الطريق إلى رضا الحق؟ قال: **«سَخَطُ النَّفْسِ»**، فقال يارسول الله فكيف الطريق إلى وصل الحق؟ قال: **«هَجْرُ النَّفْسِ»**، فقال يا رسول الله فكيف الطريق إلى طاعة الحق؟ قال: **«عِصْيَانُ النَّفْسِ»**، فقال يارسول الله فكيف

١- بحار الانوار ٦٧: ٧١،باب٤٥حديث٢٠.

٢ - بحار الانوار ٧٧: ٧١،باب٤٥حديث٢١.

الطريق إلى ذكر الحق؟ قال: «نِسْيَانُ النَّفْسِ» فقال يارسول الله: فكيف الطريق إلى قرب الحق؟ قال: «التَّبَاعُدِ عَنِ النَّفْسِ» فقال يارسول الله: فكيف الطريق إلى أنس الحق؟ قال: «الوِحْشَةُ مِنَ النَّفْسِ» فقال يا رسول الله: كيف الطريق إلى ذلك؟ قال: «الإسْتِعَانَةُ بِالْحَقِّ عَلَى النَّفْسِ»[١].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنْ أعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ»[٢].

و عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال:

«قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: طُوبَى لِمَنْ تَرَكَ شَهْوَةً حَاضِرَةً لِمَوْعُودٍ لَمْ يَرَهُ»[٣].

عن أبي جعفر الصادق عليه السلام قال:

«إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: بِجَلالِي وَجَمَالِي وَبَهَائِي وَعَلائِي وَارْتِفَاعِي لايُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَايَ عَلَى هَوَاهُ إلا جَعَلْتُ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ، وَهَمَّهِ فِي آخِرَتِهِ، وَكَفَفْتُ عَنْهُ ضَيْعَتَهُ، وَضَمِنت السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رِزْقَهُ، وَكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تَجَارَةُ كُلِّ تَاجِرٍ»[٤].

---

١ - عوالي اللئالي ١: ٢٤٦، الفصل العاشرحديث ١.

٢ - نهج البلاغة ٤: ٤٧، الحكمة ٢٠٨. بحار الانوار ٦٧: ٧٣،باب٤٥حديث٢٧.

٣- الخصال للشيخ الصدوق: ٣،حديث٢.

٤- الخصال للشيخ الصدوق: ٣،حديث٥.

و قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ»[١].

و جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً:

إنَّ رَسُولَ اللهِ عليه السلام كَانَ يَقُولُ:«إنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»،وَأعْلَمُوْا أنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ الله شَيْئٌ إلا يَأتِي فِي كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ الله شَيْئٌ إلا يَأتِي فِي شَهْوَةٍ، فَرَحِمَ اللهُ رَجُلاً نَزَعَ شَهْوَتَهُ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسَهِ، فَإنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أبْعَدُ شَيْئٍ مَنْزِعاً، وَإنَّهَا لا تَزَالُ إلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى.

وأعْلَمُوا عِبَادَ الله، أنَّ المُؤْمِنَ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إلا وَنَفْسُهُ ظَنُوْنٌ عِنْدَهُ، فَلا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا، وَمُسْتَزِيْداً لَهَا، فَكُوْنُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ وَالمَاضِينَ أمَامَكُمْ، قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا طَيَّ المَنَازِلِ»[٢].

و عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إذَا رَغِبَ وَإذَا رَهِبَ وَإذَا اشْتَهَى وَإذَا غَضِبَ وَإذَا رَضِيَ حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ»[٣].

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

١- نهج البلاغة ٤: ١٠٤، الحكمة ٤٤٩.

٢- نهج البلاغة ٢: ٩١،الخطبة ١٧٤.

٣- من لا يحضره الفقيه ٤: ٤٠٠، من الفاظ رسول صلى الله عليه وآله حديث ٥٨٦٠.

«إنَّمَا الْمُؤْمِنَ إذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي إثْمٍ وَلا بَاطِلٍ، وَإذَا سَخَطَ لَمْ يُخْرِجْهُ سَخَطُهُ مِنْ قَوْلِ الحَقِّ، وَالَّذِي إذَا قَدَرَ لَمْ يُخْرِجْهُ قُدْرَتُهُ إلَى التَّعَدّي وَإلَى مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقّ»[١].

النفس ومقاماتها الأربعة:

أشار الفيلسوف الكبير المرحوم الحاج ميرزا أبو الحسن الرفيعي رحمه الله في مقالة مهمة حول مسألة علاج النفس من التلوث، من اللازم على الملتحقين بطريق العرفان الإطلاع عليها، مع أن هذه المقالة بحاجة إلى توضيح وتفسير، ولكن توضيحها خارج عن عهدة الأقل، وسنكتفي بذكر أصل المقالة:

إعلم إن القوة العملية في النفس الإنسانية هي الموجه لبدن الإنسان للوصول إلى أوج السعادة والكمال، بالسير الإجباري والحركة المعنوية للمراتب الأربعة التي سنشرحها فيما بعد، وأخذه من حضيض النفس الحيوانية إلى ذروة علياء الإنسانية:

المرتبة الأولى: وتسمى «**التجلية**» وهي قيام النفس بمراقبة قوى البدن وأعضائه مراقبة كاملة، والإنقياد لأحكام الشرع والنواميس الإلهية، والإلتزام بإطاعة الأوامر الشرعية، واجتناب نواهيه بنحو أكمل حتى تطهر الصورة الظاهرية للبدن،ثم تتدرج النفس حتى تدخل في ضمن دائرة الانقياد لتحقيق التسليم لإرادة الحق، ولإجل الحصول على هذه المرتبة تحتاج إلى علم الفقه وفق المباني الجعفرية و الذي يتكفل بهذا الأمر على الوجه الأكمل.

١- الكافي ٢: ٢٣٤، باب المؤمن وعلاماته،حديث ١٣. بحار الانوار ٦٤: ٣٥٥، باب١٤،حديث٥٧.

المرتبة الثانية: وتسمى «**التحلية**» حيث تقف النفس على مضار ومفاسد الأخلاق الرذيلة على مستوى المجتمع والفرد، وتبذل الجهد لإخراج هذه الصفات بالتوجه إلى العواقب الوخيمة التي تترتب عليها في الدنيا والإخرة، على وفق قوانين ومقررات فن علم الإخلاق، مثل الكبر والحسد والحرص والشهوات وسوء الظن بالخلق والأنانية، وباقي صفات الرذيلة المدرجة في كتب الأخلاق، وهذه الأعمال في المعالجات الروحانية والطب الإلهي تشبه المعالجات الجسمية والطب الطبيعي في تناول المسهلات والأدوية لرفع المكونات الفاسدة وإزالة الآلام.

المرتبة الثالثة: وتسمى «**التحلية**» وهي تأتي بعد حصول مرتبة التخلية ورفع الموانع الموجودة في النفس، حيث تتعرف على الأخلاق الحسنة والحميدة لإكتسابها والتزين بها، والتي لها تأثير عظيم ومهم على مستوى نظام المجتمع والفرد، وإذا لم تتحقق هذه النظافة الباطنية والطهارة المعنوية سيبقى باطن الإنسان ملوثاً ونجساً، حتى وإن كان ظاهر الجسم نظيفاً طاهراً، وهذه العملية في الطب الروحي والمعالجة النفسية تشبه ما يحصل في الطب الجسمي حيث يتناول الطعام ويأخذ أدوية مقوية لتزويد الجسم بالطاقة وتقويته.

المرتبة الرابعة: فبعد حصول المراتب الثلاثة المذكورة وتحققها ببركة صفاء الروح وطهارتها المغروسة في الإنسان تظهر جاذبية المحبة لحضرة الحق، وهي ناتجة من الإنجذاب القهري لعالم الحقيقة، والبرود والفتور تجاه العالم المجازي، عالم الفناء و الممكنات، ثم تتدرج المحبة حتى تشتد وتشتعل في الروح وتضيئ، وينسى (السالك) نفسه ويفنى، وهذا المقام في المرتبة الرابعة من

كمال القوة العملية يسمى «**الفناء**» ومقام الفناء في الله سبحانه وتعالى يقسم إلى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الفناء في الأفعال: وهي أن العارف السالك يرى المؤثرات وجميع المبادئ والأسباب والعلل المجردة والمادية والقوى الطبيعية والإرادية باطلة ولا تأثير لها،وأنه لا مؤثر غير الحق تعالى، ولا إرادة نافذة في الكائنات إلا قدرة الحق تعالى، وإن عوامل هذا العالم زائلة ولا قيمة لها في دائرة القدرة الإلهية اللامتناهية، وعندها يصل إلى حالة اليأس التام من جميع الخلق، والرجاء التام بالحق سبحانه وتعالى، بحيث يرى حقيقة الآية الكريمة: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنْ اللهَ رَمَى**﴾[1] بعين الشهود وبدون شائبة وظن وخيال، ولسان حاله يترنم بالذكر الكريم:«**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، وفي هذا المقام يرى بعين الحقيقة أن قدرة أعظم القوات وأكثرها تسلطاً في عالم الإمكان تعادل قدرة البعوضة الضعيفة، وهذه درجة الفناء.

الدرجة الثانية: الفناء في صفات الحق، وبيان هذا المقام إن جميع أنواع الكائنات المختلفة لكل واحد منها في حده اسم تعيّني، مثل المَلَك، والفلك، والإنسان، والحيوان، والإشجار، والمعادن، وتتصور وتشاهد في نظرأهل الحجاب على صورة الكثرة والتعدد والغيرية، وهي في نظر العارف الإلهي واحد، يعني أنها جميعاً من العرش الأعلى المجرد إلى حدود الأرض في نظرهم كمعرض للصور، وكل ما في سقفه وجدرانه إنعكاس لما رسمه قلم التجلي

---

١ - الانفال ٨: ١٧.

للعلم الإلهي وقدرته وحياته ورحمته ولطفه ومحبته وعنايته، شع عليها نور جمال الحق وجلالها.

فهو عندما ينظر إلى البحر والبحار وإلى الصحاري والبراري والأفلاك والأرض والعالي والداني ينظر إليها بشكل متصل ومترابط وواحد، وعلى نغمة وسياق متناسق يحكي عظمة عالم الربوبية، وفي هذه المقام يصل إلى حقيقة التوحيد والكلمة الطيبة«**لا إله إلا الله**» يعني أن جميع صفات الكمال منحصر بالحق تعالى، وفي غير الحق ليس إلا ظل وانعكاس لصفات الكمال، ويسمى بمقام «**الطمس**».

الدرجة الثالثة: مقام الفناء في الذات، ويقال لها الفناء في الأحدية، وفي هذا المقام أسماء وصفات كلّية، فمن صفات اللطف مثل: الرحمان، الرحيم، الرازق، المنعم، ومن صفات القهر مثل: القهار المنتقم المنضوية في غيب الذات الأحدية، ولا يبقى في روحه تعيّن إلا مشاهدة الذات الأحدية، واختلاف المظاهر عند صاحب هذا المقام الذي يرى بعين الحقيقة ترتفع، فاختلاف مظاهر جبرائيل وعزرائيل، وموسى وفرعون، ومحبة الحق وغضبه، والبسط والقبض، والعطاء والمنع، والجنة والنار، عنده على حد سواء، وكذلك الصحة والمرض، والفقر والغنى، والعزة والذلة، عنده سيان، وفي هذا المقام يقول الشاعر العارف الإلهي: لا تغتم بالوعيد بجهنم أو التخليد فيها فما دمت في ديار المحبوب فلن يخرجوك منها.

ولعلها هي إحدى مراتب الإستقامة المأمور بها في الصحيفة الإلهية، والممدوحة في علم الإخلاق، والمحمودة في فن العرفان، وهذا المقام الشامخ

هو الفناء في الذات، ويقال له «المحق» حيث يتلاشى جميع الأغيار في جميع الإتجاهات وبشكل كلي، ويتحقق حينها ويظهر التوحيد الصافي والخالص، وهذه المرتبة هي آخر المنازل والسفر إلى الله جلت عظمته، ويقال لها بلسان الحقيقة «ياهو يامن ليس إلا هو»، لان طالب الحق إذا وصل هذا المقام لا يبقى لهويته وهوية الممكنات شيئ يذكر، بل يتلاشى ويضمحل في تجلي حقيقة الحق سبحانه وتعالى:

﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَومَ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[1]،[2].

نعم، إذا جاهد نفسه عن الإنجرار للشهوات، شهوة الطعام والشراب، وشهوة الجاه والمقام، وشهوة الغرور والأنانية، وشهوة حب المال وعبادة الدنيا، وعن كل شهوة ليست في محلها، وصل إلى المقامات العالية وتزين بصفات الحق تعالى، بل لم يبق أثراً لنفسه، ولا شيئ موجود غير الله.

وهذا هو المقصود من تأكيد القرآن المجيد والروايات على صيانة النفس وحفظها عن الشهوات، لأن طريق كمال الإنسان وسعادته في هذا. ولأجل ذلك فكل من وصل إلى مقام القرب، فمن هذا الطريق وصل، ومن بقي بعيداً عن مقام الحق فذلك بسبب الشهوات واتباع الهوى. ولأجل هذا أرشدنا الإمام الصادق عليه السلام إلى هذا الطريق فقال:

١- غافر ٤٠: ١٦.

٢- ياد نامه علامه طباطبائي: ٥٨٣.

«مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنْ الْغَفْلَةِ، وَنَفْسَهُ عَنْ الْشَهْوَةِ، وَعَقْلَهُ عَنْ الْجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيْوَانِ الْمُنْتَبِهِيْنَ».

حقيقة العقل:

إن العقل هو أعظم نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان، وبالعقل يمتاز الإنسان عن جميع الموجودات.

العقل نور إلهي، وحقيقة ربانية، ووجود روحاني، وسراج منير، وفاتح لطريق جميع الخيرات للإنسان.

والإنسان بالعقل أصبح إنساناً، وبالعقل تزين بالآدمية، وبالعقل اكتسب قواعد التربية، وبالعقل سار على خط العبادة والعبودية.

العقل هو شمس مملكة الوجود، وأفضل أساس للموجود، والطائر الذي يطير بالإنسان إلى عالم الغيب والشهود، وأعظم علة للصعود، والموجود المحمود في حضرة الحق.

العقل قوة معنوية، وروح ملكوتية، وهو الذي يضفي على الجسم الناسوتي قيمة، وعلى الروح اللاهوتية أهمية.

فالعقل هو الذي يميز الحق عن الباطل، والنور عن الظلمة، والصحيح من غير الصحيح، والطهارة عن النجاسة، والعزة عن الذلة، والدنيا عن الآخرة، والطريق اللاهب عن الهاوية، والظلام عن النور.

والعقل هو مناط التكليف، ومعيار المعرفة للحلال والحرام، ومعتمد الإنبياء والأولياء عليهم السلام، والشمعة المضيئة في عالم الخليقة.

منزلة العقل في وجود الإنسان:

لولا العقل لما كان هناك فرق بين الإنسان والحيوانات، بل يكون أضل وأسوأ من الحيوانات في العمل والنشاط، فالإنسان بدون العقل لا مكان له في عالم الخلقة، ولا سبيل له إلى الله.

العقل قوة النفس العالية وبها امتاز الإنسان عن الحيوان وتفاضل، ووظيفة هذه القوة العالية القدر إدراك الكليات مستقلاً، أو تجريدها من الجزئيات والإستفادة منها في العلوم الإرتكازية المكنونة في خلقة الإنسان، لإجل إدراك المجهولات، والسيطرة على قوى النفس للإستفادة منها، والحيلولة دون استغلالها بشكل سيئ.

إذن فالدور المهم للعقل هو الإستدلال، والإستنباط و المرتبة العالية للإستدلال، فإدراك المجهولات في صالح الفرد والمجتمع والمراقبة على حسن استعمال القوى وأدائها.

والحيوان لا يستفيد من الإستدلال، ولهذا ليست له القدرة على التغلب على طبيعته، كما أننا نشاهد أن الغريزة والذكاء هي المرشد في حياته، والمجنون هنا فاقد للعقل، فحركاته وسكناته ليست تحت السيطرة، فيرتكب كل ما فيه ضرر وخسارة للمجتمع، حيث يعمد المجتمع إلى وضعه في الإقامة الجبرية لمعالجته ومراقبته، ومن هنا قالوا: أن لفظ العقل مأخوذ من العقال، وهو الحبل الذي يوثق به البعير ليبرك، فهو يعقل فلتان الغرائز وهوسها ويقيدها.[١]

١- علم الأخلاق: ٦١.

وعلى كل حال فعقل الإنسان من أعجب قوى النفس، ولم تستطع آلاف الكتب والمقالات إلى الآن أن تكشف ناحية من نواحي بحر الرحمة الإلهية الذي لا ساحل له.

يقول صاحب كتاب «**سر خلقة الإنسان**» في مقالته التاسعة:

إن ما يثير الدهشة أنه لم يشاهد بين جميع الأنواع الحيوانية المختلفة التي ظهرت على سطح الكرة الأرضية، والأعم من الموجودة فعلاً، أو المنقرضة أوالتي أبيدت أي نشاط لقوى عقلية غير الشعور الحيواني، ولم نجد أثراً لأي حيوان أستطاع فيها أن ينحت قطعة صخر، أو أن يعد من الواحد إلى العشرة، أو أن يفهم معنى الأرقام، إلى أن ظهر الإنسان.

وقد أظهرت مجموعة من المخلوقات في عالم الخلقة الكبير درجة من الشعور العالي،أو الذكاء، أو الحس الدقيق، ميزها عن بقية المخلوقات، حيث يقوم الزنبور الأحمر لإصطياد الجرادت بحفر حفرة في رمال ناعمة يكمن فيها، فإذا اقتربت الجرادة منها ينقض عليها ويرميها فيها، ثم يقوم الزنبور بوضع البيض في مكان مناسب على جسم الجرادة، وعندما تخرج الصغار من البيض تبدأ بالتغذي على لحم الجرادة، من دون أن تقتله دفعة واحدة، لإنها في هذه الصورة ستتلف هي أيضاً. والزنبور يقوم بهذا العمل في نهاية الدقة والصحة في كل مرة، وإلا لن يكتب لنسله البقاء.

ولم يستطع العلم إلى يومنا هذا تفسير هذا العمل، ولا يمكن حمل هذا الفعل العجيب على الصدفة والإتفاق.

وبعد أن يحفر الزنبور حفرة في الأرض، يدخل فيها بكل سرور، حيث يفقد

حياته هناك، وهو لم يكتشف سر هذا العمل، ولا يعلم ماذا سيصنع صغاره بعد ولادتهم أبداً، بل لا يعلم أنه سيكون له صغاراً، بل لا يعلم حتى عن مجيئ نفسه وعن حياته وموته شيئاً.

ويقوم النحل والنمل بتشكيل مستعمرات وحكومة، ويتولى إدارتها أنواع من الجنود والعمال والخدم، ومن ضمن هذه المجموعات هناك قسم وظيفته جلب الحبوب إلى الخلية وتخزينها في مخازن خاصة وادخارها، فهناك يتغذى منها سائر النمل عندما تشح مصادر الغذاء في فصل الشتاء، حيث يقوم قسم آخر يمتلك فكاً كبيراً وقوياً يقوم بطحن تلك الحبوب وتخزينها في غرف مخصوصة أعدت لتهيئة الغذاء لبقية المجاميع. وهذه الوظيفة خاصة بمجموعة من العمال بحيث لا يأتي فصل الخريف إلا وقد تم طحن جميع الحبوب، وفي هذا الفصل تقتضي المصلحة العامة الإقتصاد في التموين قدر الإمكان، وبما أن عدد مجموعات الطحن في حالة التكاثر والإزدياد يقوم أفراد من الجنود بإعدام عدد منها من باب الإقتصاد في الصرف.

وهناك قسم من النمل يقوم بشكل طبيعي وفق فهمه وشعوره الحقيقي بإعداد مزارع خاصة لزراعة الفطر لتتغذى عليها، ويقوم أيضاً بترويض بعض الديدان التي اصطادها كما هي الحال في الحيوانات الأهلية كالبقر والماعز، حيث يمتص عصارتها لتتغذى عليها، كما يعمل النمل على أسر أفراد و تسخيرها للخدمة. وبعض النمل يقوم ببناء الأعشاش، حيث تقطع أوراق الأشجار بشكل منظم، ويقوم العمال بوضعها وحفظها في مكانها، وتوضع البيوض بينها كما في دودة القزّ، فتفرز الصغار لعاباً من جسمها لتلتصق بأطراف الورقة لتشكل ترابطاً

متسلسلاً، وبهذا الترتيب تشكل صغار النمل سلماً على أطراف بدنها لا تستفيد منه، في مقابل مصلحة عامة تقدمها خدمة لمجتمعها.

فكيف يمكن تصديق أن الذرات التي لا روح فيها، والتي تشكل النمل قادرة على القيام بهذه العمليات الغامضة والعجيبة؟ ألا يجب الإعتقاد أن في الأمر عقل وشعور يدفعها إلى القيام بهذه الأعمال؟[1]

نعم، العقل هو الله، وتلك المجموعات لا تستفيد من العقل، والإنسان هو الكائن الوحيد من بين الحيوانات الذي تنمو فيه قواه الدماغية إلى حد يستطيع معها التعقل والإستدلال، ولأجل قابليته للتعقل أعطي العقل، وإلى ما قبل ظهور الإنسان لم تخلق يد القدرة أي مخلوق أرضي لديه عقل يفكر قابل للتغير والرشد، ولأجل هذا يمكن تصور مجيئ يوم يتجلى فيه جانب من العقل الكلّي، ليجعل منه أشرف المخلوقات، ويعطيه قدرة غير محدودة، ويجعله قريناً له في الأبدية.

---

[1]- انظروا الى النّملة في صغر جثّها، و لطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، و لا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها، و صبّت على رزقها، تنقل الحبّة إلى حجرها، و تعدّها في مستقرّها. تجمع في حرّها لبردها، و في وردها لصدرها. مكفول برزقها، مرزوقاً بوّفقها، لا يغفلها المنّان، و لا يحرمها الدّيان، و لو في الصّفا اليابس. و الحجر الجامس. و لو فكرّت في مجاري أكلها، في علوها و سفلها، و ما في الجوف من شراسيف بطنها، و ما في الرّأس من عينها و أذنها، لقضيت من خلقها عجبا، و لقيت من وصفها تعبا. فتعالى الّذي أقامها على قوائمها، و بناها على عائمها. لم يشركه في فطرتها فاطر، و لم يعنه على خلقها قادر. و لو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلّتك الدّلالة ألاّ على أنّ فاطر النّملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كلّ شيء، و غامض اختلاف كلّ حيّ. و ما الجليل و اللّطيف، و الثّقيل و الخفيف، و القويّ و الضعيف، في خلقه إلّا سواء.

نعم، العقل هو الذي ميز الإنسان وفضله على بقية الموجودات، وهذا العقل هو الذي ترك آثاراً مثيرة للدهشة والحيرة منذ القدم إلى يومنا هذا. فهذه الكتب والمكتبات العامة، والفنون المختلفة، والتمدن الحضاري، والمصانع العظيمة، والعلوم الواسعة وغيرها كلها من آثار العقل.

العقل هو أعلى و اسمى واسطة بين الحق والخلق، ولأجل هذا أصبح الإنسان مورداً لعناية الله، ولائقاً لقبول الفيض الخاص من حضرة المحبوب.

كلام العلامة المجلسي حول العقل:

يقول العلامة المجلسي رحمه الله في ترجمة العقل وتوضيح هذا الجوهر الغالي لعالم الخلقة: والذي ظهر لنا من تتبع الأخبار المنتمية إلى الأئمة الأبرار عليهم السلام هو أن الله خلق في كل شخص من الأشخاص المكلفين قوة واستعداد لإدراك الأمور من المضار والمنافع وغيرها، على اختلاف كثير بينهم فيها، وأقل درجاتها مناط التكليف، وبها يتميز عن المجانين، وباختلاف درجاتها تتفاوت التكاليف، فكلما كانت هذه القوة أكمل كانت التكاليف أشق وأكثر، وتكمل هذه القوة في كل شخص بحسب استعداده بالعلم والعمل، فكلما سعى في تحصيل ما ينفعه من العلوم الحقة وعمل بها تقوي تنامت القوة.

ويجب القول مع كل هذه التعاريف للعقل، وظهورجميع هذه الآثار من هذا الموجود القيم، وماله من أهمية أن العقل ينقسم إلى قسمين: كلي وجزئي:

أما العقل الكلي، أو الكل، وبعبارة أخرى، الله هوالعالم المطلق، والإنسان ذو عقل جزئي، وجميع الإشتباهات ناشئة من أن العقل يرى استقلاليته في درك جميع الحقائق، والعلاقات بين الأشياء، ويريد أن يقدم بهذا العقل الجزئي وجهة

نظره بالنسبة لجميع الحقائق، ويجعل عقله معياراً لجميع الأمور. مع أن ميدان نظر العقل الجزئي محدود، و محدودية العقل تحول دون الوصول إلى الحقائق والواقعيات، لهذا فمن الضروري على العقل الجزئي من طلب المساعدة من العقل الكلي، أو العقل المطلق، وهذا المساعدة تتحقق من خلال التمسك والتعلق بالأنبياء والأئمة عليهم السلام، فارتباط الإنسان بالوحي ينجيه من المشاكل الدنيوية الناشئة من العقل الجزئي، ويضفي على حياته الهدوء والسلامة والبعد عن الأخطاء، وتعينه على تأمين السعادة الأخروية.

والعقل الجزئي هو مورد لكلام العرفاء دائماً، هذا العقل الذي اعتمد عليه في إيجاد ظهور التيارات والمذاهب إلى الآن، وإيجاد الطرق والحلول للبشر، هذا الموجود الشريف يتعرض للتضليل بشكل متزايد يوماً بعد يوم.

فماذا يقول الوحي عن سبب تمرد الكثير من أبناء آدم عليه السلام وعصيانهم؟

يقول الوحي: كما أنك تحتاج إلى عون ومساعدة في الأمور المادية، فكذلك الأمر بالنسبة للأمور المعنوية،حيث يقول: تعال واربط عقلك بالعقل المطلق للعالم حتى تنال السعادتين، سعادة الدنيا والآخرة.

فإرسال الكتب السماوية، وبعثة أنبياء الله العظام عليهم السلام، وإمامة الأئمة عليهم السلام كل ذلك لأجل تقديم العون والمساعدة للعقل البشري، ليصل إلى مرحلة البلوغ الواقعي، فالإبتعاد عن الوحي ودين الله هو في الحقيقة إبتعاد عن السعادة والكرامة.

ولا شك أن العقل الجزئي إن لم يرتبط بالوحي فإنّ كثيراً من الأمور التى تقع في طريق سعادة الإنسان سوف تبقى مجهولة، لا تعرف أصولها ومناشئها، وحينها

لايتوقع من الإنسان الشيئ الكثير في سلوك طريق الكرامة، فالذين لا تربطهم بالوحي أية رابطة يصبح الجهل حجاباً غليظاً أمام عقولهم الجميلة، ونظرتهم للأمور سطحية، محرومون من النظر الثاقب والواسع، وآلة تحت تسلط الهوى والهوس وشياطين الإنس والجن، وجاهلون بأسباب السعادة والشقاوة، فهم في هذه الصورة جهلة مع ما لديهم من العقل الجزئي والعلم، فالإمام الصادق عليه السلام يقول:

«وَعَقْلَهُ عَنْ الجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيْوَانِ الْمُنْتَبِهِيْنَ».

فعلاج العقل من الجهالة، أو بتعبير آخر علاج النظرة المحدودة للعقل غير مسير إلا بارتباطه بالوحي لا غير. فالإغترار بالعقل في أي درجة كان، وفي أي أمر حصل هو أمر خاطئ وغير مناسب. لأنه لا طريق للوصول إلى الصراط المستقيم واكتساب الحق إلا من خلال الإتصال والإرتباط بالنبوة والولاية، وإلا خسرنا الدنيا والآخرة.

العقل والفكر في القرآن:

جاء العقل في القرآن المجيد بمعنى قوة الفهم والإدراك، والقوة التي توصل إلى الحقيقة، ووسيلة لمعرفة الحقائق، فقال تعالى:

﴿أفَتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

١- البقرة ٢: ٧٥.

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[3].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[5].

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[6].

١- آل عمران ٣: ٦٥.

٢- آل عمران ٣: ١١٨.

٣- الانعام ٦: ٣٢.

٤- يوسف ١٢: ٢.

٥- الأنبياء ٢١: ١٠.

٦- الأنبياء ٢١: ٦٦-٦٧.

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ* وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

تشير الآيات المذكورة الى أن الإنسان لديه اللياقة والقابلية لدرك الأمور المعنوية والمواضيع الإنسانية، وخصوصاً مع القوة العظيمة لعقله، حيث يستطيع درك المعاني السامية والسماوية لأهم كتب عالم الخلقة والهداية «وهو القرآن المجيد» ومن خلالها يستطيع تأمين سعادة الدنيا والآخرة، نعم هذه أهمية العقل وقيمته.

وأشارت بعض الآيات إلى قدرة العقل وعظمته في درك حقائق عالم الخلقة، لأن العقل هو الرابط بين الإنسان وعالم الوجود، ويستطيع البشر بواسطة هذا النور المشع أن يستشكف ويتعرف على العالم وأجزائه، ومن خلال هذا الطريق يدرك عظمة الله سبحانه وتعالى التي لا حد لها ولا نهاية.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

١- الملك ٦٧: ٨ـ١١.

مِنْ كُلِّ دَابَةٍ وَتَصْرِيْفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيْهِ تُسِيْمُونَ* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيْلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَسْمَعُونَ* وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنَ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً

١- البقرة ٢: ١٦٤.

٢- الرعد ١٣: ٤.

٣- النحل ١٦: ١٠ـ ١٢.

للشَّارِبِيْنَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيْكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾[٢].

يؤكد القرآن المجيد في الكثير من الآيات أن العقل هو مبدأ ومنشأ الفكر والتفكير، ويدعو الإنسان بأن تكون حياته بجميع جوانبها توأماً مع الفكر والتفكير، لإن الإنسان يصل إلى طريق السعادة الدنيوية والأخروية من خلال التفكير في حقائق الأمور وعواقبها.

﴿يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيْهِمَا إثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ قُلْ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُوْنَ﴾[٣].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوْداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

١- النحل١٦: ١٠ ـ ١٢.

٢- الروم ٣٠: ٢٤.

٣- البقرة ٢: ٢١٩.

هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِيْنَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾[2].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيْهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾[3].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ

١- آل العمران٣: ١٩١.

٢- الاعراف ٧: ١٧٥ـ ١٧٦.

٣- الرعد ١٣: ٣.

٤- النحل ١٦: ٤٤.

يَتَفَكَّرُوْنَ﴾[1].

يقول العارف محمد الطبسي في توضيحه حول التفكر في القرآن المجيد:

إعلم أن المعنى المقصود من التفكر هو سير الإنسان من المبادئ إلى المقاصد، ولا يستطيع أي شخص الإنتقال من المرتبة الناقصة إلى المرتبة الكاملة إلا من خلال هذا السير، ولأجل هذا فأول الواجبات هو التفكر والتأمل والنظر.

وأعلم أن السير الواجب من المبادئ ينطلق من الآفاق والأنفس، والسير الإستدلالي بالآيات لكليهما يعني اكتشاف الحكمة الموجودة في كل ذرة من ذرات كل واحد من هذين العالمين، واكتشاف العظمة وكمال المبدع فيهما، ومشاهدة نور إبداعه في كل ذرة منهما:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

التفكر هو رؤية الأسباب قائمة بالحق، وأفضل الأعمال التفكير والورع، وأعلم أن كل حديث لم يكن عن حكمة فهو عين الآفة، وكل كلام لم يكن عن فكرة فجميعه شهوة وغفلة، وكل نظرة لم تكن عن عبرة فجميعها لهو ومذلة.

العقل والفكر في الروايات:

كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

١- الروم ٣٠: ٢١.

٢- فصلت ٤١: ٥٣.

«أَصْلُ الإنْسَانِ لُبُّهُ، وَعَقْلُهُ دِيْنُهُ، ومُرُوَّتُهُ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ، وَالأيَامُ دُوَلٌ، وَالنَّاسُ إلَى آدَمَ شَرْعٌ سِواءٌ»[١].

ولا يمكن أن يكون الحسب والنسب هو أساس للتفاخر والمباهاة،والإفتخار بالواقعيات والحقائق الباقية فقط.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«خَمْسٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَثِيرٌ مُسْتَمْتَعٌ، قيل: وما هُنَّ يَابْنَ رَسُوْلِ اللهِ؟ قَالَ عليه السلام: الْدِّيْنُ وَالْعَقْلُ وَالحَيَاءُ وَحُسْنُ الخُلْقِ وَحُسْنُ الأدَبِ، وَخَمْسٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لَمْ يتهن بالعَيْشُ: الصِّحَّةُ وَالأمْنُ وَالغِنَى وَالقَنَاعَةُ وَالأنِيسُ المُوافِقُ»[٢].

قال الرضا عليه السلام:

«صَدِيْقُ كُلِّ امْرِئٍ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ»[٣].

أوصى أمير المؤمنين عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام:

«يَابُنَي لا فَقْرَ أشَدُّ مِنَ الجَهْلِ، وَلا عَدَمَ أعْدَمُ مِنَ العَقْلِ، وَلا وحْدَةَ أوْحَشُ مِنَ العُجْبِ، وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الخَلْقِ، وَلا وَرَعَ كَالكَفِّ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَلا عَبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ فِي صِنْعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. يَابُنَي: العَقْلُ خَلِيْلُ المَرْءِ، وَالحِلْمِ وَزِيْرُهُ، وَالرِّفْقُ

١- الامالي للشيخ الصدوق: ٢٤٠، المجلس ٤٢، حديث ٩، بحار الانوار ١: ٨٢ باب ١ حديث ٢.

٢- بحار الانوار ١: ٨٣ باب ١ حديث ٣.

٣- الكافي ١: ١١، كتاب العقل والجهل، حديث ٤، علل الشرائع ١: ١٠١، باب ٨٨ حديث ٢.

وَالِدُهُ، وَالصَّبْرُ مِنْ خَيْرِ جُنُودِهِ، يَابُنَيّ: إِنَّهُ لابُدَّ للعَاقِلِ مِنْ أنْ يَنْظُرَ فِي شَأنِهِ، فَلْيَحْفَظَ لِسَانَهُ، وَلِيَعْرفْ أهْلَ زَمَانِهِ، يَابُنَيّ: إنَّ مِنَ البَلاءِ الفَاقَةِ، وَأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَرَضُ البَدَنِ، وَأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَرَضُ القَلْبِ، وَإنَّ مِنَ النِّعَمِ سِعَةُ المَالِ، وَأفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ صِحّةُ البَدَنِ، وَأفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ تَقْوَى القُلُوبِ..»[١].

قال رسول الله ﷺ:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْش إنَّ حَسَبَ المَرْءِ دِيْنُهُ، وَمُرُوَّتُهُ خُلْقُهُ وأصْلُهُ عَقْلُهُ»[٢].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً أبْغَضُ إلَيْهِ مِنَ الأحْمَقِ لأنَّهُ سَلَبَهُ أحَبَّ الأشْيَاءِ إلَيْهِ وَهْوَ عَقْلُهُ»[٣].

وسلب العقل هنا بسبب سوء اختيار العبد، لأن الله سبحانه وتعالى قد وهبه قوة العقل في البداية ولكنه لم يستخدمها في حياته.

عن الفضل بن عثمان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

«مَنْ كَانَ عَاقِلاً خُتِمَ لَهُ بِالجَنَّةِ إنْ شَاءَ اللهُ»[٤].

قال رسول الله ﷺ:

١- الامالي للشيخ الطوسي: ١٤٦. بحار الانوار ١: ٨٨، باب١، حديث١٣.

٢- الكافي ٨: ١٨١، خطبة لأمير المؤمنين حديث٢٠٣.

٣- علل الشرائع ١: ١٠١، باب ٨٨ حديث ١٦، بحار الانوار ١: ٨٩، باب١حديث ١٦.

٤- ثواب الاعمال: ١٤، ثواب العاقل، بحار الانوار ١: ٩١، باب١حديث١٩.

«مَا قَسَمَ اللهُ لِلْعِبَادِ شَيْئاً أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ، فَنَوْمُ العَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ سَهَرِ الجَاهِلِ، وَإِفْطَارُ العَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ صَوْمِ الجَاهِلِ، وَإِقَامَةُ العَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ شُخُوصِ الجَاهِلِ، وَلا بَعَثَ اللهُ رَسُوْلاً وَلا نَبِيّاً حَتّى يَسْتَكْمِلَ الْعَقْلَ وَيَكُوْنُ عَقْلُهُ أَفْضَلُ مِنْ عُقُولِ جَمِيعِ أُمَّتِهِ، وَمَا يَضْمِرُ النَّبِيُّ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنْ إجْتِهَادِ المُجْتَهِدِينَ، وَمَا أَدَّى العَاقِلُ فَرائِضَ الله حَتّى عَقَلَ مِنْهُ، وَلا بَلَغَ جَمِيعُ العَابِدِينَ فِي فَضْلِ عِبادَتِهِمْ مَا بَلَغَ العَاقِلُ، إنَّ العُقَلاءَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ الَّذينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1]»[2].

قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا بَلَغَكُمْ عَنْ رَجُلٍ حُسْنُ حَالِهِ، فَانْظُرُوا فِي حُسْنِ عَقْلِهِ، فَإِنَّمَا يُجَازَى بِعَقْلِهِ»[3].

روي عن ابن عباس أنه قال:

«أَسَاسُ الدِّيْنِ بُنِيَ عَلَى العَقْلِ، وَفُرِضَتِ الفَرائِضُ عَلَى الْعَقْلِ، وَرَبُّنَا يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ، وَيُتَوسَّلُ إِلَيْهِ بالعَقْلِ، وَالعَاقِلُ أَقْرَبُ إِلَى

١- الرعد ١٣: ١٩.

٢- المحاسن ١: ١٩٣، باب العقل، حديث١١. بحار الانوار ١: ٩١، باب١حديث٢٢.

٣- الكافي ١: ١٢،كتاب العقل والجهل،حديث٩. بحار الانوار ١: ٩٣،باب ١حديث٢٤.

رَبِّهِ مِنْ جَمِيعِ المُجْتَهِدِينَ بِغَيْرِ عَقْلٍ، وَلَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ بِرِّ العَاقِلِ أفْضَلُ مِنْ جِهَادِ الْجَاهِلِ أَلْفَ عَامٍ»[١].

قال النبي ﷺ:

«قَوامُ المَرْءِ عَقْلُهُ، وَلا دِيْنَ لِمَنْ لا عَقْلَ لَهُ»[٢].

قال الامام الصادق عليه السلام:

«إذَا أرَادَ اللهُ أنْ يُزِيْلَ مِنْ عَبْدٍ نعْمَةً كَانَ أوَّلُ مَا يُغَيِّرُ مِنْهُ عَقْلُهُ»[٣].

قال أبو محمد العسكري عليه السلام:

«حُسْنُ الصُّورَةِ جَمالٌ ظَاهِرٌ، وَحُسْنُ العَقْلِ جَمَالٌ بَاطِنٌ»[٤].

قال النبي ﷺ:

«لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ، وَآلَةُ المُؤْمِنِ وَعُدَّتِهِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ، وَمَطِيَّةُ المَرْءِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ، وَغَايَةُ العِبَادَةِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ رَاعٍ، وَرَاعِي الْعَابِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ، وَبِضَاعَةُ المُجْتَهِدِينَ العَقْلُ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ،

١- روظة الواعظين: ٤، المجلس في ماهية العقول. بحار الانوار ١: ٩٤، باب١حديث٢٨.

٢- روظة الواعظين: ٤، المجلس في ماهية العقول. بحار الانوار١: ٩٤، باب١حديث٢٩.

٣- مستدرك الوسائل ١: ٢٠٨، باب في وجود طاعة العقل،حديث١٢٧٥٧. بحار الانوار ١: ٩٤، باب١حديث٢٩.

٤- بحار الانوار ١: ٩٥،باب١حديث ٣٧. أعلام الدين: ٣١٣.

وَعِمَارَةُ الآخِرَةِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ سَفَرٍ فُسْطَاطٌ يَلْجَئُونَ إلَيْهِ، وَفُسْطَاطُ المُسْلِمينَ العَقْلُ»[1].

وقد أهتمت الروايات بشكل كبير في بيان عظمة العقل ومقام الفكر والتفكير مما استدعى علماء الدين العظام أن يفردوا أبواباً مستقلة في كتبهم تحت عنوان كتاب «**العقل والجهل**» ومن أراد الإطلاع عليها مراجعة المجلد الأول من كتاب «**بحار الأنوار**»، وكتاب «**الكافي**».

فالعقل في كل الأحوال يحتل مرتبة عالية في عالم الخلقة، حيث يقع على رأس شجرة عالم الخليقة، ومن أفضل ثمارها، وهو حقيقة يوفق الإنسان بواسطتها لإدراك الحقائق، وهو الذي يمتاز به الإنسان على الموجودات، وهو الذي أكد عليه المذهب الشيعي من خلال القرآن والسنة، وهو الذي يوصل صاحبه إلى المقام العالي للكمال إذا استلهم علومه المفيدة من القرآن المجيد والروايات، ويرشد صاحبه إلى خير الدنيا والآخرة، وهو ملاك التكليف، وهو مناط المسؤولية، وخلاصة العلاقة بين الإنسان والله، وبين الإنسان والعالم، وبين الإنسان والإنسان.

فيجب على كل إنسان ـ أكثر من أي واجب آخر ـ أن يزيل غبار الجهل عن وجهه الجميل، وأن علاج الجهل يتم بواسطة الإرتواء من العلم، سواء كان من العلم الديني، أو من العلوم المادية اللازمة له في الحياة الدنيا، ليكون من زمرة

١- مستدرك الوسائل ١١: ٢٠٦،باب في وجوب طاعة العقل،حديث١٢٧٥٠.بحار الانوار ١: ٩٥،باب ١ حديث ٤٤.

المنتبهين، وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنْ الْغَفْلَةِ، وَنَفْسَهُ عَنْ الشَهْوَةِ، وَعَقْلَهُ عَنْ الْجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيْوَانِ الْمُنْتَبِهِيْنَ».

نعم، بإستخدام العقل يمكن معرفة الله، وباستخدام العقل يمكن الحصول على العلوم، وبإستخدام العقل يمكن تقييم عواقب الأعمال، وبإستخدام العقل يمكن إستئصال جذور الجهل من الوجود.

وكما لاحظتم في الآيات والروايات أن العقل هو أفضل مركب، وأحسن واسطة، وأكثر الأنوار إضاءة لإيصال الإنسان إلى كل الأسماء، وجميع الحقائق، وخصوصاً مسألة التوحيد وهي من أهم المسائل.

«ثُمَّ مَنْ رَعَى عِلْمَهُ عَنْ الْهَوَى»

مكانة العلم في حياة الإنسان:

العلم نور، وسراج ينير الطريق، ومركب سريع في طريق الرشد والكمال، والعلم فخر الإنسان وامتيازه، وشرف الإنسان وكرامته بالعلم والمعرفة، يقول القدماء: الجاهل أعمى، والإنسان الأعمى يضل الطريق، وهو معرض للبلاء دائماً.

العلماء زهور بساتين المجتمع، ومنزلة العلماء في المجتمع كمنزلة الروح من الجسد، العلم هو العيون والأجنحة التي يطير بها الإنسان في سماء الحياة، ومن أكبر الذنوب ـ في نظر العقل والشرع ـ حرمان النفس من العلم، وإن من أفضل الطرق لتمضية الوقت هو الإستغراق في العلم والتمسك به، فغذاء الجسم المواد المادية، وغذاء العقل العلم، فلو منع البدن من الغذاء هلك، وكذلك لو حرم العقل من العلم فسينجرللسقوط والهلاك.

وجميع الآثار الرائعة التي نشاهدها في جميع جوانب الحياة هي من نتاج العلم، فجميع الفنون والكتب والمكتبات العامة والمعابد والمساجد والطرق وتسخير الهواء والأرض والبحر وغيرها هي من نتاج العلم. والعلم سبب لرشد الدماغ، وصفاء للنفس، ويقظة للروح، وحياة للقلب، ومن الطبيعي وجوب تحصيل كل علم مفيد في الحياة، والإنشغال به.

والعلم والمعلم والمتعلم محترمون عند جميع المذاهب والمدارس الفكرية، والفكر الإسلامي يولي العلم والمعلم والمتعلم احتراماً كبيراً أكثر من أي مدرسة أخرى، والفرص متاحة للإنسان في تحصيل العلم والتعلم، وإن لم يسع في تحصيل ذلك فهو عين الخيانة، فالعلم علة لبروز الإستعداد وظهور الآثار العجيبة من وجود الإنسان، والمجتمع الواعي يكون في مأمن عن الوقوع في الأخطار الكثيرة عادة، وذلك بسبب وضوح طرق مواجهة عوامل الخطر والضرر.

والعلم شمس الحياة، ونورها المشع، والعلم من أطيب الفواكه التي تذوقها الإنسان منذ اليوم الأول لخلقته إلى يومنا هذا.

إن البقر والحمير تسمن وتعظم من خلال الشرب، ولكن الإنسان يسمن ويعظم من خلال الإستماع إلى العلم، ولو فرضنا أن الحياة كالبناية في عمارتها، فالعلم هو بمثابة القواعد والأسس.

خطر العلماء غير العاملين:

إن هذه القيمة والأهمية التي تعطى للعلم والعلماء منوطة باستخدامه في مساره الصحيح، لإن العالم وعاء للعلم، فلو كان باطنه ملوثاً، وروحه خبيثة، وقلبه نجساً، ونفسه مظلمة، فأين سيستخدم هذا العلم وكيف؟! فماذا يتوقع أن يفعل إنسان شرير، أو انسان غير متربي، أو إنسان خسيس، أو إنسان ضال لا نورله، تقع في يده أسلحة غير قتل البشر وتدمير حياتهم وحرق اليابس والأخضر. والعلماء عندما يكونوا بعيدين عن طريق الهداية والصلاح، وعن التربية والمعرفة، وعن صفاء الباطن، وروحانية الروح، ومعنويات القلب فإنهم سيقدمون بواسطة هذا العلم على ارتكاب نفس ما يرتكبه القاتل في حياة المجتمع الفكرية والإجتماعية

والعائلية. بل إن العالم الضال والمتبع لهواه أشد خطورة وأسوأ حالاً من القاتل والظالم، ولأجل ذلك نقل عن أولياء الإسلام:

«إذَا فَسَدَ العَالِمُ فَسَدَ العَالَمُ».

ومما يؤسف له في أيامنا هذه أن أكثر العلماء مبتلون باتباع هوى النفس، وهوى النفس نافذ في جميع زوايا حياتهم، وآثارهم من أعمال وأخلاق حاكية عن عبوديتهم لهوى النفس، كأفضل محبوب وأعز معشوق.

إن أكثر رجالات الدولة في العالم هم من المتعلمين من ناحية العلوم المادية، ونواب مجالس الدول المتحضرة ونصف المتحضرة هم من المتعلمين، ورؤساء الأحزاب الشيوعية وسائر المراكز الإشتراكية هم من المتعلمين، أكثر العسكريين أصحاب الرتب العالية من المتعلمين، وأكثر رجالات الكنسية والحاخامات من المسيحية واليهودية من أهل العلم، البابا في الفاتيكان هو العقل المفكر لعلماء الدين المسيحيين، بعض علماء الإسلام من وعاظ السلاطين ـ الذين يعتمد عليهم أسوأ الحكام في الدول الإسلامية في تثبيت سلطتهم ـ لديهم شيئ من العلوم الإسلامية، ولكن لا أثر للجوانب الإنسانية في أعمالهم وأخلاقهم، إن هؤلاء جميعاً من الغرب والشرق جرّوا الويلات والفساد والدمار على العالم بجميع أبعاده، حيث لم يتوانوا في ارتكاب أي ظلم، أو القيام بأي مجزرة بحق المجتمعات الأخرى، وذلك بسبب هيمنة هوى النفس وتسلطه عليهم، فعلمهم وعواطفهم واحساساتهم ومشاعرهم وأخلاقهم ونفوسهم وقلوبهم كلها منقادة للهوى، وأدوات تحت تصرفه.

ولم ينف القرآن الكريم والروايات وجود علماء من عبدة هوى النفس، وعبر

عنهم بالعلماء، ولكن لم يعطهم أية قيمة تذكر، فما قيمة أي مقام إذا كان محجوباً بالهوى، وما قيمة الظالم؟ وما قيمة الطاغية والظالم والمستعمر وعملاء الإستعمار والإستبداد وقدرهم؟ فهل يمكن إحصاء جرائم وظلم وخيانة وطغيان هذه المجموعة؟ وأقسم بالله أنه لو أراد الجن والأنس مجتمعين تدوين آثار ما ارتكبه علماء عبدة الهوى إلى يوم القيامة لما تمكنوا من ذلك!!

علماء هوى النفس:

عندما يصبح العالم أسيراً لهوى النفس، يصبح هدفه من العلم والمعرفة تحصيل المكاسب الشهوية وملء البطون لنفسه ومن يحيط به، من غير فرق عنده بين العلوم، سواء كانت من العلوم الدينية أو العلوم المادية!! ومستعد لكتمان الحق متى ما توافقت مع أهدافه، و كتمان الحق من أكبر الذنوب، إن العالم الأسير لهواه يشهد بالزور، وشهادة الزور من أخطر المعاصي، يفتي بقتل الأبرياء والمظلومين، وبعض الأوقات تتسبب فتوى واحدة من إبادة آلاف من البشر وأسرهم وتشريدهم! ويكون سبباً في منع هداية الآخرين، ويسعى في ايجاد العواقب والموانع في طريق الهداة، فالعالم المتبع لهواه يصد عن الحق ويحرفه، فيجعل الباطل حقاً، والحق باطلاً.

عالم الهوى مستعد لأمضاء وتبرير وتغطية أي جريمة وجناية يرتكبها الجناة والطواغيت والمستعمرين، وأصحاب الفتن وعملائهم، فهو جسر لتحقيق انتصاراتهم.

القرآن وعلماء السوء:

يكشف القرآن المجيد في آيات كثيرة عن حقيقة هؤلاء المفسدين، ومثيري

الفتن، ووعاظ السلاطين، حتى يتعرف المجتمع على أعداء الله الواقعين المتلبسين بلباس العلم، ويحذرونهم وينصحونهم، وإذا لم يرتدعوا يتم القضاء على هؤلاء الثعالب المتلبسين بلباس وداعة الحمل.

يحدثنا القرآن الكريم عن علماء اليهود والنصارى الذين يكتمون الحق اتباعاً للهوى فيقول:

﴿الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيْقاً مِنْهُمْ لَيَكْتِمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إن اليهود والنصارى يعلمون أن نبي الإسلام العزيزﷺ جاء لنجاة الإنسان من خزي الدنيا وعذا ب الآخرة، يعلمون إن هذا الشخص هو نفسه الذي بشرت به كتب التوراة والإنجيل و الزبور، يعلمون أنه يجب عليهم الإيمان به، ولكن بما أن الإيمان به سيفوت عليهم زعاماتهم، ويدمر مصالحهم في نهب خيرات الناس لم يعتقدوا به ولم يؤمنوا، وصدوا الآخرين عن الإيمان به.!!

يعتبر القرآن الكريم اعتداء بعض اليهود والنصارى على أموال الآخرين هو اعتداء على الله سبحانه وتعالى وإباحتهم لذلك، في الوقت الذي يعلمون فيه بحكم الحق تعالى، وأن حكمه على خلاف ذلك، فيقول:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِيْنَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً

١- البقرة ٢: ١٤٦.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

يحدثنا القرآن المجيد عن تحريف الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل وتغييرها وتبديلها بأيدي قطاع الطريق، الذين يريدون منع الإنسان من سلوك طريق الرشد والكمال، وهم يعلمون أن هذا التحريف ليس من الله، بل هو نتيجة لهيمنة هوى النفس على قلوبهم وعقولهم حيث يقول القرآن عنهم:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

ويقول القرآن الكريم عن الذين يصدون عن سبيل الله، ويضعون الموانع والعراقيل في طريق هداية الناس وكمالهم، وهم مجموعة من اليهود والنصارى ويعلمون أن الله ليس بغافل عما يخططون له ويكيدون:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

ويحدثنا القرآن الكريم عن قادة الدول الظالمة، وعن شركاء الظلم والجور،

١- آل عمران ٣: ٧٥.

٢- آل عمران ٣: ٧٨.

٣- آل عمران ٣: ٩٩.

وعن هؤلاء العارفين بالفنون المادية والعلوم الدنيوية، ولكن بسبب بعدهم عن طريق الهداية والتربية إستخدموا علمهم و فهمهم ضد المظلومين والمستضعفين، والإعتداء على حقوق الناس بأي وسيلة كانت:

﴿يَعْلَمُوْنَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُوْنَ﴾[1].

وهذه الغفلة هي التي جرّت هؤلاء إلى طريق الفساد والجريمة والظم والجور، والإعتداء على حقوق الناس !!

ويشدد القرآن الكريم النهي على العلماء الذين يلبسون الحق بالباطل، ويعتبرها جريمة كبيرة حيث يقول:

﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

ويقول القرآن الكريم في حق هؤلاء العلماء الذين يعرفون الأخلاق الحسنة والسيئة منها، ولكن لا يعملون وفق ما يعلمون:

١- الروم ٣٠: ٧.

٢- البقرة ٢: ٤٢.

٣- آل عمران ٣: ٧١.

﴿يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُوْلَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾[١].

هذا قسم من الآيات القرآنية التي كشفت عن الصورة البشعة لعلماء السوء وعباد الهوى، وأنهم منشأ الفساد في جميع جوانب الحياة.

وعندما يتأمل الإنسان وبالخصوص أهل العلم في الآيات القرآنية يرى لزاماً عليه المحافظة على علمه ومعرفته من تلوث هوى النفس وتأثيرها لأجل العبودية لله، وعندما يقع العلم تحت تأثير الهوى وسيطرته يصبح الإنسان مفترساً، ويقل نظيره حتى في الحيوانات، وقد وردت عدة روايات مهمة ومفصلة في هذا المجال سنشير إليها مع توضيح أوسع عند شرح الباب الثاني والستون من كتاب «**مصباح الشريعة**».

علماء السوء والفساد:

نحن نعيش في القرن الواحد والعشرين وبدل أن نسميه قرن العلم والتمدن والتكنولوجيا والصناعة، وقرن الذرة والفضاء، يجب أن نسميه قرن الفساد والإنحطاط، قرن السقوط والشقاء. والبلاء الذي سببه علماء العلوم الظاهرية والمفكرين الماديين على المجتمع البشري خلال هذين القرنين لم يسبق له مثيل في تاريخ الحياة البشرية، في الوقت الذي كان بإمكانهم أن يجعلوا من هذه الإكتشافات والإختراعات سلماً للوصول إلى عالم المعنى، وكان بإمكانهم مع كل هذه الأسرار المحيرة للعقول التي اكتشفت في عالم الطبيعة أن يعرفوا

١- الانفال ٨: ٢٧.

للبشرية الخالق وطريق الوصول إليه، لإن ميدان العدل والحكمة منبسط على جميع أنحاء الكرة الأرضية. ولكن ما نتج عن هذه العلوم والمعرفة عكس ذلك، وبسبب الغرور والتكبر الذي أصابهم أغرقوا المجتمع الإنساني بالفساد.

أبدى صاحب كتاب «**الأصول الأساسية في فنون التربية**» الذي عاش في الغرب لفترات طويلة نظره في هذا الموضوع بكل حرية وشفافية، وأظهر أن علماء العلوم المادية في جميع أنحاءأوربا وأمريكا مصابون بهوى النفس والرذائل الأخلاقية، وأنهم منشأ الكثير من المفاسد، حيث يقول في هذا المجال:

إن الوظيفة الأساسية للفنون والعلوم الطبيعية المادية الإيجابية هو الوصول إلى تحقيق مقصدين كبيرين:

المقصد الأول: هو إن الإنسان يسعى من خلال اكتشاف قوى الطبيعة وقوانينها في رفع احتياجات الحياة البشرية المادية بشكل سهل ومناسب، حتى لا يضطر الإنسان إلى صرف أكثر أوقات عمره في تهيئة مستلزمات حياته من الطعام واللباس والمسكن، كما كان يحدث مع الإنسان البدائي الوحشي، بل السعي لتوفير الوقت في هذه المجالات والاستفادة منها في كسب المعلومات وتنمية إحساساته اللطيفة، والإستفادة من آثار الصناعات الظريفة، وتغذية الروح بالحقائق العلمية والعقلية العظيمة، حتى يتمكن من العيش في ظلال من الراحة والرفاه والأمن والأمان، ويقطع مراحل متعددة في طريق الترقي والكمال.

المقصد الثاني: هذه العلوم والفنون كما أن وظيفتها الأساسية كما ذكر، فهي تساعد الروح الإنسانية على درك الحقيقة المطلقة بدون تشكيك من خلال اكتشاف الحقائق والقوانين والحكام النسبية الحاكمة في عالم الطبيعة والإنسان،

وتساعده على الإقتراب من فهم الأحكام والقوانين الباطنية والمعنوية لعالم الخلقة والتعرف عليها، وبعبارة أخرى إنه من خلال بيان عظمة القدرات المادية الموجودة في الطبيعة الفانية والمتغيرة يصل إلى معرفة عظمة وقدرة عوالم العلوم المعنوية والروحية غير الفانية، وتوقظ في قلوب البشر الإحساس بالعظمة والإجلال اتجاه تلك العوالم والحقائق، لتتذوق الأرواح والنفوس البشرية شيئاً من حلاوة تلك الحقائق العالية.

ونستطيع الآن بشيئ من التأمل والتعمق أن نعرف كيف عجزت تلك الفنون والعلوم عن تحقيق المقصود الأساسي منها، وأسباب فشلها، ونستعرض ذلك بشكل مجمل فيما يلي:

أولاً: لقد أدت الفنون الطبيعية المادية من خلال الإختراعات والتقدم التقني إلى زيادة الإحتياجات المادية لحياة الإنسان بشكل كبير، حيث يستغرق الفرد المتوسط الحال والكاسب في الدول الغربية في أوروبا أوقاته اليومية في قضاء حاجاته اليومية بكل جهده وطاقته التي لا تعرف التعب، ولكنها لم تتمكن مع كل هذه التكنولوجيا والتقدم من تأمين معيشة متوسطة للفرد بدون آلام و قلق. ويمكن أن تكون معيشة الطبقة المتوسطة في الدول الأوروبية المتمدنة وأمريكا نموذجاً جيداً لبيان هذه الحالة، لأننا نرى كيف يعمل الناس ليلاً ونهاراً كالأسرى المساكين في القرون الماضية، الذين يقومون بأصعب الأعمال وأكثرها خطورة وخوفاً، ومع كل هذه التضحيات والفداء وصرف أوقات شبابهم الغالية لا يعيشون حياة هنيئة ومرفهة، ولا يشعرون باطمئنان لحياة أفراد عائلاتهم، ولا يشعرون باطمئنان ازاء مستقبل حياتهم. فهل هذه المعيشة الحيوانية كافية لتأمين

الحياة المستقبلية.

إن جميع القوانين والأنظمة ووسائل تأمين المعيشة، وحفظ الحقوق، مثل الضمانات والإتحادات النقابية، وضعت كلها لتوفير الراحة والإطمئنان للعمال، وبما أن هذه القوانين وضعت لتلبية بعض الضرورات، وخالية من الفيوضات، والمحبة القلبية، وليست نابعة من الحس البشري المفعم بالمحبة، فهي غير كافية بتاتاً في تسكين الآم ومصائب هذه الطبقة من الناس المادية والروحية.

ثانياً: إن علماء الفنون الطبيعية والعلوم المادية بدل أن يوظفوا الحقائق والقوانين العلمية المكتشفة في الطبيعة لإرشاد النوع الإنساني إلى حقائق وفضائل ما فوق البشر، أقدموا على ما يلي:

أولاً: توظيف إكتشافاتهم وإختراعاتهم الفنية في التعالي والتكبر والغرور، والإستغلال المادي، منكرين الحقائق العليا والعلوم المعنوية، وتصوروا أن حدود العلم تنتهي باكتشافاتهم، واختراعاتهم، وأن الحقيقة منحصرة بهم، وموجودة بين أيديهم فقط.

ثانياً:أنهم بمجرد اكتشافهم للقانون الطبيعي لنشوء البشرية وارتقائها وتكاملها، كما أشار داروين إلى ذلك، تصوروا أن كل ما في هذا الوجود هو المادة فقط، ولا وجود لشيئ أو عنصر أو جوهر أو روح غير المادة، والمادة هي بنفسها تكونت وتركبت بصور مختلفة، ومن خلال الحركة الذاتية الموجودة في الطبيعة تكونت هذه العوالم والحالات المتنوعة، فلا وجود لخالق، ولا للروح، ولا لعوالم أخرى، إضافة إلى عدم الحاجة إليها.!!

وعلى هذا الأساس أخرجوا من قلوب عوام الناس وعامة العمال الشعور

المذهبي والأخلاقي والإعتقادي، والإيمان بالخالق، والحياة الخالدة، ووجود الروح الإنسانية وأبديتها وبقائها.

هذه الطبقة التعيسة إضافة إلى قضائها ساعات مرة في حياتها، ومعاناة شديدة في مواجهاتها للمصائب والإبتلاءات، وتحملها أيام الجوع والبطالة، ومآسي الثورات الدموية، وآلاف القضايا المؤلمة في الحياة الإجتماعية المادية- التي أنتجها أصحاب المناصب العلمية والفنية- فهي تفتقد الأمل في الخلاص، والتوكل والإيمان، وتعيش حالات اليأس والقنوط، وتذوق عذابات جهنم في هذه الدنيا، إضافة إلى زيادة حالات الحقد والعدواة والحسد في قلوبهم تجاه الطبقة الراقية والمرفهة، وأصحاب الثروات ورؤوس الأموال.

و على هذا المنهج تمكن علماء الفنون الطبيعية ومروجو التقدم الفني والتقني ـ من حيث يعلمون أو لا يعلمون ـ من سلب القوة الروحية المفعة بالحيوية من الناس المساكين، واستبدالها بالإحساسات الحيوانية والنفسية مثل الشهوة والحقد والآنانية والعدوان والبطالة والإنفلات واللادينية، وترسيخ عبادة المادة وتهيجها في قلوبهم.

ثالثاً: وقع أرباب العلوم والفنون المادية في خطأ كبير عندما اكتشفوا بعض القوانين الطبيعية وأسرار الحياة المتعلقة بـ الإنسان،الحيوان،النبات، ووفقوا الى إجراء مجموعة من التجارب والعمليات المادية لإختراع بعض الأسباب والوسائل التكنيكية والميكانيكية، فتصوروا أن معيار الحقيقة ينحصر في الذكاء والعقل الناقص، وهو منبع المعرفة!! وتوهموا أن العقل الناقص للبشر هذا هو مظهر لقوة الخالق وقدرته كلها، وأن مدركاته واكتشافاته هي حقائق مطلقة، وأن

نجاة الشعوب والنوع الإنساني يمكن في الإنقياد لأوامر العقل الناقص المحدود الأفق وأحكامه، وأنهم هم القادة الحقيقيون المنقذون للبشر.

وقد أدى هذا الغرور الإنساني والتكبر النفسي لإنكار ضرورة القيم الدينية والأخلاق الفاضلة، فاعتبروا أن الدين أفيون الشعوب، والأخلاق وسيلة للخداع، والإيمان والوجدان رواية اسطورية. ونشروا هذه التعليمات والإعتقادت التخمينية في أوساط عامة الناس، وزرعوها في قلوب الشباب و اليافعين بالخصوص من أبناء القرن التاسع عشر والعشرين، وتمكنت منهم بحيث نجد اليوم نتائجها المدمرة والموحشة في كل مكان من أنحاء العالم بشكل مؤسف ومحير.

تتكون عقائد وتعاليم عبدة المادة من ثلاثة مذاهب علمية وفلسفية وهي: الدارونية في بريطانيا، والفلسفة الوضعية في فرنسا، والماركسية في المانيا، وهي التي هيأت الظروف والأرضية المناسبة في القرن التاسع عشر والعشرين لأسباب احتضار التمدن الغربي. حيث قامت هذه المذاهب العلمية والفلسفية وفق اصطلاحهم بوضع العقل البشري الناقص مكان قوة الإيمان والمحبة على عرش السلطة والتسلط، ودعوا الناس لعبادته كما تعبد الأصنام، ومعبودهم هو الذهب والفضةالثروة والسلطة كما عبد عجل السامري.واليوم نجد أن الحضارة الغربية هي معبد لعبادة الذهب والمادة، وتعتبر جمع الإنسان للذهب والثروة غاية، وهو الطريق الوحيد للنجاة، وأن حياته عبارة عن كسب الثروة والذهب بأية وسيلة كانت حتى لو كانت غير مشروعة، وأن التضحية بالعفة والشرف والحمية والناموس في هذا الطريق ليس كاشفاً عن الذكاء والعقل فقط بل هو عين

الشهامة والشجاعة والعبادة.[١]

الحروب الصهيونية:

عندما نحلل موضوع الحروب الصليبية بدقة كاملة ومحايدة لا نجد لها سوى إراقة دماء الملايين من الأبرياء، وتدمير آلاف البيوت والمساكن، ونهب أموال الملايين من المظلومين، وحرق اليابس والأخضر، ولا تتناسب مع أي منطق أوفلسفة إلهية أو اجتماعية، بل تعود أسبابها ومنشؤها إلى انحراف وخيانة العالم المسيحي العابد لهواه، حيث كان يدعي أن تربة النبي عيسى عليه السلام في حوزة المسلمين، و يوجب على المسيحيين ويسميهم بالمؤمنين القيام ضد المسلمين ويسميهم كفاراً للإسترداد تربة النبي عيسى عليه السلام، ولم يتوان المسيحيون في ارتكاب أيّة جريمة في حق المسلمين بناء على فتاويه، وفتاوي من جاء بعده من البابوات حينها.

كل هذا مع علمهم أن القرآن المجيد هو الكتاب السماوي للمسلمين، الذي ذكر مريم في مقام العصمة والطهارة، وذكر النبي عيسى عليه السلام بأنزه صورة وأفضل حالة، حتى أنه نفى قتله بكل صراحة ووضوح، ولا يوجد لدى المسيحيين أي دليل على قتله، وما يدعوه من وجود قبر له في بيت المقدس لا صحة له ولا أصل، ولكن و بسبب اتباعهم الهوى، والحفاظ على مناصبهم، وجنيهم المال، وتحقيقاً لأهدافهم أفتوا بإباحة دماء المسلمين ونهب أموالهم تحت عنوان انقاذ قبر النبي عيسى عليه السلام من أيدي المسلمين، وبدون شك فإن كشف حقائق

١- الاصول الاساسية لفنون التربية: ٢٠٧.

الحروب الصليبية وخلفياتها التفصيلية تحتاج إلى كتب مستقلة، ومانريده في هذا القسم هو بيان الأضرار المترتبة على العلم الملوث باتباع الهوى وعبادته، حيث نكتفي بذكر ما كتبه الكاتب «آلبرماله» وهو مسيحي المذهب حول إقرار متوحشو الحروب الصليبية، حيث يقول: «قام البابا أروربان الثاني ـ وهو فرنسي الجنسية ـ بجولة في أوروبا لحشد الرأي واستثارة الهمم الصليبية، فدعا لمؤتمر لإصلاح أمور أهل العلم في كليرمونت بفرنسا، الذي كان يفترض أن ينهي أعماله في ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥م قدم شرحاً مفصلاً في حضور جمع كثير من القساوسة ورجالات الدين ورؤساء المراكز في جنوب فرنسا عن الأذى الذي يتعرض له زوار الأرض المقدسة، ودعاهم فيه إلى حمل السلاح وإنقاذ تربة عيسى....» .

وبعد نهاية مؤتمر كليرمونت قام البابا آوربان بجولة للمراكز في جنوب فرنسا يحث فيها الناس إلى الحرب ويرغبهم فيها، وأرسل الرسائل إلى عموم الأساقفة ودعاهم إلى تحريض الناس للحرب الصليبية، وقد استجابوا له، حيث وعد كل من يشارك في هذه الحملة بمغفرة كل معاصيه وذنوبه، ويعفى من كل عقوبة، وأن كل يشارك في هذه الحملة يصبح كل ماله وعقاره ومتاعه وأولاده وزوجته مصونة وفي حماية الكنيسة، وكان من ضمن مساعديه أحد البابوات في شمال فرنسا وكان راهباً يسمى «بطرس» في منطقة آميان، ويلقب بالناسك، حيث كان يلهب المسيحيين حماساً للمشاركة في الحروب الصليبية.

وبناء على رواية «كايبر دون جان»: أنه قام الحكام والفرسان بجولات في المناطق والأرياف لكسب الرأي العام وحشد الفقراء وتشويقهم وترغيبهم،

فاستجاب الكثير لهم، فقاموا بترك بيوتهم ومزارعهم وكل ما يملكون، أو يبيعونها بثمن بخس بكل سرور وارتياح، فيأخذون معهم ما يستطيعون حمله في السفر، ويبيعون ما ثقل منه بسرعة وحماس للإلتحاق بالركب، وقام الفقراء باستخدام الثيران في جر العربات وحمل أطفالهم وما يحتاجون إليه من مؤن، وكلما مروا على محتلمة أو قصر كان الأطفال يسألون هل هذا بيت المقدس؟!!

ولم تمض على دعوة آوربان الثاني في كليرمونت ثلاثة أشهر حتى ألتحق بها نحو أربعين ألف من الرجال والنساء، فشدوا رحالهم صوب الشرق بقيادة بطرس الناسك حتى عرفت بـ «حملة الرعاة»، وعندما اجتازوا نهر الرون التحقت بهم مجموعات أخرى شبيهة بحالهم من ألمانيا، وطوال الطريق كانوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي وسكان القرى، ويعيثون فيها الفساد.

وفي النهاية عندما وصلت الجيوش الصليبية بيت المقدس بعد قطع مسافات طويلة، وارتكاب جرائم لا حصر لها، حاصروها فترة من الزمن، ثم دخلوها، فأكثروا فيها القتل ، واراقة الدماء لكل من يلاقيهم !!

وقد كتب جود فري إلى البابا يقول: إذا أردت أن تعرف ماذا حل بأعدائنا الذين وقعوا في أيدينا، فيكفي أن تعلم بأننا لا نستطيع شق الطريق في رواق سليمان داخل المعبد وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن الدماء وصلت إلى الركب.

وكل الروايات تشهد على المجازر و المذابح التي ارتكبت، حيث قتل هناك عشرة آلاف مسلم، حتى انّ الدماء كانت تغطي أقدام المارة الى الكعبين، ولم يبق أحد من الكفار، ولم تسلم النساء والأطفال الرضع من ذلك، ولما أنتهوا من القتل جاء دور النهب والسلب، فكل من اكتفى من القتل وإراقة الدماء بدأ بالسطو على المنازل والبيوت وأخذ كل ما وقعت عليه عيناه، سواء كان غنياً أو

فقيراً ويعتبره ملكاً له، وهذا الرسم كان سارياً وكأنه قانون يجب أن يطبق شعرة بشعرة!![1].

محاكم التفتيش العقائدي:

نجد في موازاة رشد العقل الإنساني تطور العلم في جميع الجوانب، حيث دأب العقلاء والمفكرون بشكل حثيث في كشف الحقائق، وأن أوروبا سلكت طريق التحقيق في المسائل العلمية على أثر ما وصلت اليه العلوم الإسلامية ـ وفق ما ذكره المحققون الأوروبيون في نظرياتهم، ولكن هذا التقدم العلمي والمعرفي لم يكن في صالح الكنيسة وقادتها، لإن وعي الشعوب ويقظتهم تضع حداً لحكومتهم الشيطانية المتلبسة بلباس الدين وإنهائها، وقد اعتاد بعض البابوات والقساوسة منذ القدم على كتمان الحق أولاً، وثانياً أصبح تحريف الحقائق من طبيعتهم، وهؤلاء لم يتوانوا في ارتكاب هاتين الجريمتين عند ظهور الإسلام، وعندما بدأ عصر النهضة العلمية في أوروبا وانتشارها، قرروا مواجهة العلم والعالم ومخالفته، والقضاء على كل ما يخالف كتبهم الدينية التي حرفوها بأنفسهم، فلو لم يكتموا الحق ويحرفوا الحقائق لما كان هناك تعارض مع العلم ومخالفة، ولكان وضع التاريخ على خلاف ماهو عليه الآن.

لقد أدت مواقفهم إلى تشويه صورة الدين، والنفور منه بشكل مطلق، حتى أساء أكثر الناس على الأرض النظر في موضوع الله والقيامة والأخلاق، ولم يكن الإسلام في مأمن من هذه المخاطر والجرائم حتى من قبل المسلمين، لقد قاموا

١- تاريخ العصور الوسطى ٢: ٢٥٠.

بأعمال واتخذوا مواقفاً في العالم أظهروا فيها أن الدين يعارض العلم والتقدم والتمدن، هذه العقيدة هي نتيجة ظلم الكنائس التي سرت إلى الدول الإسلامية أيضاً، حتى أدى إلى ابتعاد المجتمع الإسلامي عن الإسلام. فتصور بعض المسلمين أن طريق الوصول إلى الحضارة والتمدن هو بالإبتعاد عن الدين، ولم تترك جاذبية هذه العقيدة لهم أي مجال للتفكير حول ماهية الدين الذي يمكن أن يكون مانعاً من العلم والتقدم، هل هو الدين المحرف أم الدين الخالص والسليم من التحريف؟.

إن الإسلام ـ وفق القرآن الكريم والروايات الصحيحة ـ يرى العلم والإستقلال والحرية والشرف والحياء سبباً للوعي والتقدم والتطور، وبها يتحقق خير الدنيا والآخرة، ولكن الدين المحرف هو المانع من التقدم والتطور مئة بالمئة، وهو علة التعاسة والشقاء!!

غير أنّ البابوات والقساوسة اعتادوا على ارتكاب الجرائم والخيانة والتحريف، ومارسوا الشهوات والتسلط على رقاب الناس، لإن هوى النفس هو الحاكم على عقولهم، بل إن عبادة الهوى هو دينهم وديدنهم، وكما يقول عنهم القرآن: أن لامعبود لهم ولا معشوق سوى هوى النفس، مع أنهم لا يعلمون إلا بعض الحقائق، ولكن الهوى هو الذي منعهم من العمل بما يعلمون.

وبسبب هذا الهوى والهوس أنشئت محاكم التفتيش العقائدي بعنوانهم ممثلين عن الله ومالكي رقاب عباد الله، فأحيل العلماء الواعين وأصحاب الفكر إلى المحاكم، وبسبب معارضة علومهم لما هو موجود في الكتب الدينية المحرفة لدى تلك المحاكم، ومخالفتها لعقائد الكنيسة، وتمت محاكمتهم.

وجاء في كتاب «**أحداث مهمة في تاريخ العالم**»:

إن من أكثر الأمور سوءً وفضاعة هو في ذلك اليوم الكئيب والخطير الذي يشعر فيه الإنسان بشغف ونشاط وحيوية في تعريض إنسان للتعذيب والتنكيل، وأن يكون لديه إحساس بالرغبة والعطش في قتل الإنسان.

هل يمكن أن يكون الإنسان أسيراً للفرح والسرور؟ وهل يمكن أن يكون الإنسان مسروراً برؤية إنسان آخر مكبل بالأغلال والسلاسل؟ وهل يمكن أن تكون شريعةـ بحسب الإصطلاح ـ مذهب أن تعلم البشرية كيفية القتل وإراقة الدماء، وأن تقوم بحرق العلماء والمفكرين بألسنة اللهب المتوهجة في مراسم خاصة لذلك؟

وتم في عهد انكيزيسيون صلب خمسة ملايين جسد بسبب اتهامهم بالتفكير وعدم خضوعهم لأوامر البابا، وفي خلال السنوات من ١٤٨١- ١٤٩٩م تم رمي ١٠٢٠ فرداً في النار تنفيذاً لأحكام محاكم التفتيش العقائدي، وتم تمزيق ٦٨٦٠ جسداً من النصف عقاباً وتنكيلاً، وفارق الحياة الدنيا حوالي ٩٧٠٣٢ فرداً من أثر التعذيب الشديد والقاسي، وكان الناس يعتقلون جماعات جماعات بأعذار واهية ويتم رجمهم.

والحق ما قاله الكاتب الفرنسي فولتير: بأن الإنسانية في حدها الأعلى مدينة للدين الإسلامي في القيم السامية والكرامة والحرية، في الوقت الذي فرض فيه المسيحيون دينهم بالسيف والتعذيب والحرق بالنار!!

وكتب كاس مينسكي في كتاب «**تاريخ العصور الوسطى**»: تحول إعدام الرافضين لعقائد الكنيسة وفكرها في إسبانيا إلى إحتفال جماهيري، حيث

يحرقون الرافضين لهم في ميادين المدن وهم في مرآى من الملوك وأشراف المدينة، حيث يساقون إلى منصات الإعدام والقساوسة، وقد اكتسب "تركو ما دوم" شهرة مرعبة ومخيفة بقذفه ثمانية آلاف فرد في النار أثناء ترؤسه لمحاكم التفتيش العقائدي.

وعاش الناس في جنوب فرنسا حالة من الرعب والوحشة ثمانية عشر عاماً منذ أن بدأ ديوان التفتيش العقائدي عمله بقيادة البابا غريغوري التاسع، وقام بإرسال مأمورين إلى مختلف النواحي في الجنوب، مع تفويضهم كامل الصلاحيات بحبس كل من يظنون به، بحيث لو أنكر أي متهم فان لهم الحق في تعذيبه وإنزال أشد العقوبات لأخذ الإعتراف منه، وإذا اعترف يستتاب، ثم يحكم عليه، وأما لو امتنع عن القيام بمراسم التوبة، أو أنه -تاب سابقاً ثم عدل عنها يتم رميه في النار حياً بأمر من ممثلي البابا.

وكان في زمن سان لويى أحد المأمورين في مقاطعة شامباني في فرنسا مسؤولاً عن ملاحقة المتهمين، أصدر أمراً في جلسة واحدة بحرق ١٨٣ فرداً كافراً. وفي ليلة من ليالي بارتيملي الموحشة في التاريخ حدثت مجزرة دموية مأساوية رهيبة راح ضحيتها آلاف من النساء والرجال والأطفال، وقد وثق المؤرخون هذه الحادثة المؤلمة في كتاباتهم التي تعكس فضاعة هذه الفاجعة. حيث قرر الكاثوليك في فرنسا في هذه الليلة ـ بعزم وجدية ـ القضاء على مخالفيهم ومعارضيهم من مذهب البروتستانت. حيث سدوا آذانهم أمام أنين النساء العجائز، وصياح الأطفال، واستغاثة الأمهات، وأصدروا الأحكام بكفرهم وقتلهم، وعندما يمر الإنسان على ما حدث في تلك الليلة من الفجائع يقول:

ما هذا الجنون الوحشي الذي عجنت به قلوب البشر؟ هذا الحدث المفزع

الذي وقع في ليلة ٢٣ و ٢٤ من شهر أوغسطس، حيث كانت أجراس الكنائس تدق إشارة شؤم ومصيبة لبدء مجزرة سان باتيملي والناس نيام، وقد انجرت تلك المجازر في الأيام التالية في ولايات أخرى، ويخمن المعاصرون لهذه الواقعة أن عدد القتلى تجاوز ثلاثين ألف قتيل. واستمر القتل العام للهيوجوتت وحرق البيوت ونهب الأموال ثلاثة أيام، حتى غطت جثث القتلى من الرجال والنساء والأطفال الأزقة!!.

وقد أدخلت هذه الأحداث السرور والفرح على البابا في روما مما دفعه إلى إعطاء الأوامر لروما بإقامة الإحتفالات وإضاءت أنوار الزينة شكراً للإنتصار على الكافرين.

فهل تعتبرون هؤلاء البابوات والقساوسة والأساقفة الذين قدموا الفتاوى لإرتكاب هذه الجرائم، وأعطوا الأوامر للإحتفال وإضاءت أنوار الزينة لأجل قتل الآلاف من النساء والرجال والأطفال وحرقهم جهلاء؟

ولا شك أن الجواب كلا بشكل قاطع وصريح، لإن هؤلاء كما يقول عنهم القرآن الكريم كانوا عالمين بالتوراة والأنجيل، ويعلمون أن الناس كانوا على حق، ولكن الهوى قد حجب علومهم، ولأجل هذا قال الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية: «مَنْ رَعَى عِلْمَهُ عَنْ الْهَوَى» أي يجب أن يكون العلم خالياً من الهوى.

العلماء عبدة الهوى أساس حكم بنـي أمية:

لا يوجد أحد لايعلم أن حكام بني أمية من أخبث البشر، ولا يوجد أحد لا يعلم ما أرتكبته هذه الوحوش الضارية من جرائم ومظالم، ولا يوجد أحد لا يعلم أن حكام بني أمية قد نجسوا قسماً مهماً من تاريخ الحياة البشرية، فقد أقدموا على

قتل أطهر شخصيات التاريخ وأعزها بأبشع الطرق وأفجعها، أو رميهم في غياهب الطوامير، وتعذيبهم وتركهم بلا ماء ولا طعام.

أسس معاوية الحكم الأموي بالإعتماد على علماء السوء من عبدة الهوى، وكان يمرر جميع جرائمه ويشر عنها تحت غطاء فتاوى علماء الخسة والوضاعة من أمثال: سمرة بن جندب، وأبو هريرة، وعندما يتعرض للنقد والإستفسار من قبل المسلمين جراء ما يرتكبه من ظلم وجرائم يستعين بهؤلاء العلماء لتبرئته من تلك الجنايات، وبالتالي يقوم هؤلاء في مقابل أخذ حفنة من الأموال رشوة باستغلال عنوان صحبتهم لرسول الله ﷺ فترة من الزمن بوضع مجموعة من الأحاديث تتناسب مع رغبة وتوجهات و سياسات حكومة معاوية لتبرئتها ونسبها إلى رسول الله ﷺ، ونشرها في أوساط الناس البعيدين عن العلم والتحقيق، واستغلال إيمانهم برسول الله ﷺ وتسليمهم لما ينقل عنه، حتى يوهمون الناس بأن أعمال معاوية وتصرفاته مطابقة للأحكام الإسلامية والسنة النبوية، وحكومته حكومة دينية تخلف حكم لرسول الله ﷺ وذلك لتثبيت سلطته وإعطائها الشرعية. وقد إستفاد معاوية وأزواج بناته من عبدة الهوى من العلماء لإرتكاب الجرائم والجنايات التي لا مثيل لها في التاريخ من ناحية الكم والكيف، ولا نبالغ إن قلنا إن نجاسة هؤلاء العلماء وخستهم وعذابهم في الآخرة أكثر وأشد من معاوية. هذه الأعمال كان لها دور كبير في تثبيت الحكومات الأموية وتقويتها، واستخدامها وسيلة للقضاء على عباد الله الصالحين.

وقد وصلت حالات الرشوة لوضع الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ حداً أغرت بعض العاطلين عن العمل وأتباع الهوى بعد سمرة بن جندب وأبي هريرة

بالتفكير في وضع الأحاديث، ليكون ذلك مصدراً لرزقهم ومعيشتهم، وبعد أنتشر وضع الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ بين الناس أصبح من الصعب معرفة الإسلام الصحيح، والتميز بينهما!!.

ولقد عانى الواعون في سبيل الله لمعرفة الإسلام المحمدي من الإسلام الأموي وتمييزه، من خلال توجيهات القرآن الكريم والأئمة الطاهرين عليهم السلام الكثير من المتاعب والصعاب، فلا عذاب ولا ألم إلا وتحملوه، ولا سجن إلا ودخلوه، ولا تعذيب إلا وقد تعرضوا له، ولا شهداء أعزاء إلا وضحّوا بأنفسهم في سبيل حفظ الإسلام الطاهر، والحق أنه لولا وقوف أئمة الشيعة عليهم السلام وأصحابهم الأوفياء وصمودهم لم يستطع أحد معرفة الإسلام الصحيح ولن يتعرف عليه إلى يوم القيامة.

يعتقد المنصفون من أهل السنة أنه مع كل المعاناة والمشقة التي حصلت لأصحاب الكتب الأساسية لأهل السنة في تشخيص الأحاديث الصحيحة إلا أن هناك أحاديث في هذه الكتب لا تتوافق مع الإسلام الصحيح، وأيادي الوضع فيها ظاهرة.

هناك ثلاثة من العلماء الأوائل لأهل السنة من أصحاب الكتب الستة المعروفة بذلوا جهوداً مضنية في تهذيب الأحاديث المقبولة عندهم، مثلاً:

- محمد بن إسماعيل البخاري١٩٤ـ ٢٥٦ق قضى ألف ليلة مسيقظاً حتى تمكن من رد ٥٩١٠٠٠ من أصل ٦٠٠ ألف حديث، واختار ٩٠٠٠ حديثاً، وبها دون جامعه.

- مسلم بن الحجاج القشيري المتوفى٢٦١ق رد ٢٩٣٠٠٠ حديثاً من أصل

٣٠٠ ألف حديث، وأختار تسعة آلاف حديثاً في تدوين كتابه الصحيح.

أحمد بن حنبل ٢٤١ق رد من بين مليون حديث ردّ ٩٦٠ ألف و انتقى أربعين الف حديثا، هي التي دونها في مستنده[١].

والمهم في هذا الموضوع أن الشيعة عندما يريدون تقييم الروايات المقبولة الموجودة في كتب أهل السنة وفق الشروط الإلهية والقرآنية لتشخيص الأخبار والأحاديث الصحيحة والمقبولة لا يبقى منها إلا الجزء اليسير، ومن هنا يعلم مدى البلاء الذي حل بالإسلام من وراء ما جنته أيدي هؤلاء العلماء العابدين للهوى؟!

فقد قاموا من خلال وضع الأحاديث بتلميع صورة معاوية الذي لم يدرك من الإسلام إلا اسمه، وعرفوه بأنه يجسد الإسلام الصحيح، وهو الإنسان اللائق بخلافة رسول الله ﷺ، وأنه من المسلمين المجتهدين وقالوا: بأنه لو أخطأ فهو خطأ في الإجتهاد، والخطأ في الإجتهاد عند الله ليس ذنباً ولا معيب فيه.

كتب جورج جرداق في كتابه «**صوت العدالة الإنسانية**»: إن أبرز الأمويين لخصائص أمية في الإسلام إنما هو معاوية بن أبي سفيان، وأول ما يطالعنا من صفات معاوية إذا درسناه درساً دقيقاً، أنه لم يكن على شيئ من إنسانية الإسلام، وخلق المسلمين في ذلك العهد الطيب من عهود الناس. فإذا اعتبرنا الإسلام ثورة على قديم العرب في أكثر مذاهبهم ومنها الإثرة الخاصة، والعمل للمصلحة الفردية الخالصة، والنظر في أحوال الجماعة على أنها قطعان يغزى بها وتغزى، وعلى أنها مصدر قوة وثروة لصاحب الوجاهة والنفوذ والمال، تأكد لنا أن معاوية لم يكن على شيئ من الإسلام، وإذا اعتبرنا الإسلام من جانب آخر، ديناً

١- ابن خلكان ١: ٤٥٥. فهرست ابن نديم: ٢٣٠.

يتجه بأوامره ونواهيه اتجاهاً مباشراً إلى الخلق الفردي والمسلك الشخصي، ويسعى في صلاح الأفراد عن طريق ربطهم بإدارة السماء، وإنذار الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة، تأكد لنا كذلك أن معاوية لم يكن على شيئ من الإسلام، وقد شهد على نفسه بذلك، فإنه كان يلبس الحرير، ويشرب في آنية من الذهب والفضة، حتى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشارب فيهما لتجرجر في جوفه نار جهنم». فقال معاوية بلامبالاة: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً!!

ونجد توصيات معاوية التي تكشف عن ممارساته اللاإسلامية عندما أرسل المجرم بسر بن أرطاة إلى المدينة ليشغب على علي عليه السلام، وزوده بهذه الوصية:« سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس، وأخِفْ من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن له دخل في طاعتنا!».

وكذلك عندما سير سفيان بن عوف الغامدي إلى العراق للشغب على علي عليه السلام وزوده بهذه الأقوال: «إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق تُرعب قلوبهم، وتُفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر. فإقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، واحرب كل ما مررت به من القرى، وأخرب الأموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب». وقد زود معاوية السفاك الضحاك بن قيس الفهري بمثل هذه الوصايا أيضاً حين أرسله في غارة على بعض ولايات علي عليه السلام، ونفذ الضحاك هذه الوصايا كما نفذها غيره، فنهب وقتل وأكثر من الإعتداء والإفتراء.

وكان معاوية «رفيقاً حليماً كريماً» ساعة تجمعه المصلحة الخاصة بمن ينتفع

به...فيقبل منه كل قول، وكل عملٍ شريطة أن يسنده في تثبيت ملكه وإن جار، وعند ذلك قد يعطيه مصر وأهلها!! وكان يضيق حتى ليملك على مصر وأهلها كل حق في الحياة، ويعطيهم هدية «منه» لشريك له!!

والذي يمعن النظر في سياسة معاوية يهوله هذا المقدار من قوى الشر والإحتيال التي تألف منها أسلوبه في أخذ الناس، وفي ما سمّاه أنصاره «بناء الدولة» فهو أسلوب «ميكافيللي» خالص لا ينقصه شيئ من تفاصيل الميكافيلية المجرمة، فالنهب والترويع والتقتيل من سياسة معاوية المدروسة. ومنها الوعد والوعيد، وكذلك الفتك بالأبرياء والأحرار، واصطناع الخونة والمأجورين وأهل الإجرام، ومنها استخدام الدعاية في تمثيل السماء أرضاً، والأرض سماءً، ومنها الإحتيال على كل قيمة إنسانية قصد الكسب والإستفادة، ومنها مساومة أصحاب الضمائر السود على حساب الحق والعدل، ثمنها الإستئناس بمعونة السفاحين الذين نذروا أنفسهم لخدمة «الأمير» وما تقوم خدمتُه إلا بالمهارة في نهب أموال الشعب، وكبت حرياته، وسوق أبنائه عبيداً مطيعين لصاحب السلطان.

إن جميع الجرائم التي ارتكبت في عهد معاوية في كفة، وموضوع نقل الحكومة لإبنه من بعده في كفة أخرى!! ثم إنه ما استوثق له الأمر حتى جعل يسجل الناس وما يملكون وراثة لإبنه الخليع يزيد، وهو من أجل هذا "التسجيل" كان يلبس ويخلع من الأردية والأغطية ما يوافق مصلحة هذا الإبن» وفي النهاية تم تسليط هذا المجرم الشارب للخمر اللاهي بالكلاب والقرود قاتل النفس على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، وإن جميع الجرائم والمجازر التي إرتكبها معاوية وخليفته يزيد كانت بمعونة علماء عبيد الهوى!!

وكان خلفاء معاوية من أمية أكثر الخلق ضلالاً به، وأسيرهم على نهجه، ومنهم من أضاف إلى سيئاته دون أن يصيبهم أيسر نصيب من حظ معاوية في الظاهر من الحسنات، لذلك قاسى الناس في أيامهم الصعاب، وحملوا قسراً على أن يتركوا أرزاقهم وأعناقهم للأمويين وعمالهم، وكانوا عمّالاً فجرة خالصين، وقد ساموا سكان البلاد التي احتلوها أو ولوا عليها كل خسف وكل عذاب، وأذاقوا غير العرب من الشعوب التي أسلمت كل هوان وكل مذلة، واستعبدوهم أشد استعباد، وحطوا من شأن أهل الذمة على غير ما يوصي به الإسلام، وكان يوصي بهم خيراً وبسائر الخلق، وقتلوا من العرب كل من لا يريد أن يطعمهم لحمه، ويشربهم دمه راضياً مختاراً، وسلطوا على جميع الناس من ينوع عليهم الضرائب، ويزيدها ثم يحصلها بأشد ألوان العنف، وأبشع صور القسوة.

فعبد الملك بن مروان مثلاً حكم أوتقراطياً لا يرى لأرواح الناس وأموالهم أي قيمة هانت به الأرواح «أمر بردم العيون والآبار في البحرين ليفقر أهلها فيلينوا للحكام»، وجعل على الحجاز والعراق ذلك السفاح الحقير الذي اسمه الحجاج بن يوسف.

وذكر المؤرخون إن يزيدين عبد الملك بن مروان سكر يوماً سكراً شديداً وعنده حبابة إحدى جواريه، فلما طرب قال: دعوني أطير! فقالت حبابة: على من تدع هذه الأمة؟ قال: عليكِ!!

ولا نغفل أخيراً عن أسلوب بني أمية المستهجن عندما أصدروا الأوامر الأكيدة لشتم أفضل خلق الله وأقدسها علي بن أبي طالب وبنيه عليهم السلام على منابر الأمصار، وتشويه صورته وذمه.

كل هذه الممارسات قام بها حكام بني أمية مع علماء عبدة الهوى بشغف، لأن هؤلاء العلماء حاشية للسلطان ومن وعاظه، فيقومون بشرعنة كل الجنايات والجرائم التي يرتكبها حكام بني أمية وأنها من الأمور الإسلامية.

وعندما نلقي نظرة على حياة الخلفاء العباسيين وعمالهم نجد أيضاً أنهم لم يكونوا أقل من حكام بني أمية ظلماً وطغياناً وخروجاً عن القوانين، بل قد كانوا أسوأ من بني أمية في بعض المواقف، فما عليك إلا أن تجهد نفسك بمراجعة التاريخ لتكتشف مدى وحشية جرائمهم وخساستهم، ولترى أنهم أستفادوا في تغطية جناياتهم بفتوى علماء الهوى وبتبرير من علماء السوء والبلاط أكثر من بني أمية.

وضع الأحاديث

ومما يزيد الأمر سوءً أن علماء الهوى ولأجل تحقيق أهداف حكام بني أمية وبني العباس قاموا بوضع الأحاديث إعتماداً على أحاديث وضعها أسلافهم الخونة، وبهذه الأحاديث المزورة والكاذبة التي نشروها بين صفوف المسلمين وشرح بعضها، استغلوا عدم إطلاع أكثر الناس عن الإسلام، وإبقائهم على حالهم، لكي يتم كسب رضاهم على حكم بني أمية وبني العباس وتسليمهم لهم، ولو خرجت بعض الأصوات المعارضة من الناس قاموا بتوجيهه، ومن خلال هذه الأساليب والممارسات وجهوا أخطر ضربة للإسلام والإنسانية في مقابل قبض حفنة من الدينار والدرهم.

ونشير هنا إلى مجموعة من الأحاديث الموضوعة المنسوبة إلى أولياء الدين وزعمائه من خلال كتاب «**عوامل التحريف**» الذي كتبه أحد أفضل

المتخصصين في الحديث والتاريخ الذين قل نظيره، والذي شهد علماء الشيعة والسنة له في الفضل في هذا المجال:

نماذج من الأحاديث الموضوعة:

إن هؤلاء وعلى خلاف المنطق والقرآن والعقل نقلوا مجموعة من الروايات من أكثر الكتب اعتباراً لديهم، وعلى لسان أبرز الرواة، حيث يتحدث مضمونها: أنه لا يجوز رفع السيف في وجه إمام المسلمين وخليفتهم مهما صدر منه من ظلم وجور وإجحاف وفسق، ولا يجوز مخالفته ولا الخروج عليه.

- فنقلوا عن حذيفة نقله عن النبي عليه السلام يقول:

«يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطع للأمير وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع»[1].

- ونقلوا عن ابن عباس عن النبي عليه السلام قوله:

«من رأى من إمامه شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات: مات ميتة جاهلية»[2].

- وفي روايات أخرى نقلوها عن ابن عباس:

١- صحيح مسلم ٦: ٢٠باب الأمر بلزوم الجماعة.

٢- صحيح مسلم ٦: ٢٠باب الأمر بلزوم الجماعة.

«ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا ميتة جاهلية»[١].

ويقول أحد كبار علماء أهل السنة في ذيل هذه الأحاديث في باب تحت عنوان «لزوم طاعة الأمراء»: يرى عموم أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: إن فسق الحاكم وظلمه وسلبه لحقوق الناس لا يوجب انعزاله، ولا يمكن خلعه، ولا يجوز القيام عليه مع أنه ليس ميسراً، بل الواجب تقديم النصح له والتوصيات، وتخويفه من عقاب الله ويوم القيامة، لوجود أحاديث عن النبي ﷺ في هذا الموضوع تمنع من الخروج ضد السلطان الحاكم، وخلاصة هذه الروايات هي حرمة الخروج على أولي الأمر والحكام بإجماع كل المسلمين ولو كان فاسقاً، ظالماً[٢].

ووفق هذا الرأي يصبح الخروج على يزيد بن معاوية شارب الخمر، اللاعب بالكلاب، القاتل، المجرم، وكذلك الخروج على عبد الملك الذي رمى جنوده الكعبة بالمنجنيق ودمروها، ومحاربة الوليد الذي جعل القرآن الكريم هدفاً لسهامه، والخروج على الحكام الخونة من بني العباس في ذلك الوقت، والخروج على الحكام الظلمة في زماننا كذلك ليس فقط غير جائز بل هو محرم!!

فتباً لهذا المنطق، ولعنة الله على واضعي هذه الأحاديث ومدونيه وناشريه ومفسريه والعاملين به.

١- صحيح مسلم ٦: ٢٠باب الأمر بلزوم الجماعة.

٢ - عوامل التحريف: ٥٨.

العلماء عبدة الهوى في القرن العشرين:

إن الذين أشعلوا نار الحرب العالمية الأولى، وقتلوا ملايين الناس الأبرياء فيها، هم من خريجي الجامعات والكليات.

والذين أضرموا نار الحرب العالمية الثانية وأبادوا بنار الأنانية والهوس فيها ما يقارب ثلاثين مليون إنسان، ودمروا آلاف البيوت ومدارس الأطفال والمستشفيات على من فيها هم المتعلمين في الجامعات والكليات.

وأولئك الذين قدموا من فرنسا إلى الجزائر، وقتلوا ما يقارب مليون إنسان خلال سبع سنوات لا جرم لهم سوى المطالبة بالتحرر من شر الإستعمار، ووضع آلاف الرجال والنساء في السجون، وتعذيبهم بأشد أنواع العذاب، هم الحاصلون على شهادات التخرج من جامعات فرنسا المتمدنة والمتحررة، والمؤسسة لميثاق الحرية وحقوق الإنسان!!.

أولئك الذين رحلوا من بريطانيا وأغاروا لمدة أربعمئة سنة تقريباً على مناطق أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وقتلوا شعوبها المحرومة والمستضعفة وقطعوهم قطعة قطعة، هم من علماء الإقتصاد والسياسة وعلم النفس وغيرها من العلوم.

إن قتلة أمثال أمير كبير، والسيد جمال الدين الأفغاني، وآلاف الشخصيات الحريصة التي نهضت وقامت لأجل نجاة شعوبها وأممها، هم وللأسف الشديد من علماء العلوم المادية والتجريبية.

كل هذه الجنايات الخطيرة والغارات الوحشية، وكل هؤلاء الظالمين والمعتدين الخطرين المتخرجين من جامعات الدنيا لا يمكن أن تحصيها مئات الكتب الضخمة.

إن زعماء الدولة الغاصبة والخائنة اسرائيل الذين استمروا في قتل الشعب المسلم رجالاً ونساءً وأطفالاً لمدة خمسين سنة، إضافة إلى قصف الأحياء السكنية بالقنابل وتدميرها، وتعذيب الأهالي أسوأ مما حصل في القرون الوسطى، هم المتخرجين من جامعات الغرب بتخصصات علمية مختلفة!!.

إن هذه الجنايات الفظيعة التي لا تصدق لا تختص بعلماء الغرب، بل إن أعمال الشيوعية الشرقية وعلماءها تشير إلى أن تضييعهم لحقوق الناس الأبرياء ليس بأقل من الغربيين.

عندما نقرأ بدقة كتاب «أسرار موت ستالين» الذي يعد من الكتب المهمة للكاتب آن. ع آتورخانوف العضو السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، نصل إلى نتيجة مفادها: إن ستالين والمحيطين به ـ الذين يعتبرون أنبياء النهضة الشيوعية ـ يصدرون الأوامر بقتل كل شخص أو جماعة بمجرد احتمال عدم موافقتهم لستالين، وفي خلال مدة قصيرة قامت حكومته بإعتقال ما يقارب عشرين مليون شخصاً، وإعدامهم مباشرة.

صفات العلماء الربانيين:

ليس من اللائق أن نتحدث في هذه الصفحات النورانية من كتاب العرفان الإسلامي عن حياة هؤلاء الجناة السوداء، لذا من المناسب أن نذكر بعض النماذج النورانية لهؤلاء العلماء الإلهيين البعيدين عن الهوى والهوس لأجل أن يتضح أن العلم إذا استقر في نفس الإنسان وقلبه وروحه الخالية من الهوى ماذا يثمر من خير في الدنيا وعالم الآخرة.

خبر المعصية كان سبباً لموت عالم:

رحل الحاج ميرزا محمد حسين اليزدي عن الدنيا في عام ١٣٠٧هـ ودفن في الجانب الغربي من مقبرة الحافظية في شيراز، وكان من أكابر علماء الشيعة ومفكريهم، ومن زهاد وعباد عصره.

هو إنسان قد هذب نفسه، وتكشف أعماله الطاهرة أن لا وجود للهوى والهوس في كيانه، وكان يلتزم بالآداب الإسلامية في جميع جوانب حياته وعلاقاته وأخلاقياته.

وقد تم تعيين محافظ لمنطقة فارس في زمانه، ودعا المحافظ الجديد كبار القوم والوجهاء ورؤساء الناس الى الاجتماع في يوم الخميس للإطلاع على أوضاع المحافظة وبالخصوص مدينة شيراز، وكانت الدعوة في حديقة حكومية، وشارك في هذه الجلسة مجموعة من تجار سوق شيراز المعروفين بالتدين، وبعد الإنتهاء من تناول وجبة الغداء، بدأت فرقة يهودية بالغناء، فطغى جو من الفسق والفجور أجواء الجلسة، فنقلت قصة هذا المجلس والمشاركين فيه وأجوائه إلى الحاج ميرزا محمد حسين، وبعد الإنتهاء من صلاة العصر من يوم الجمعة صعد المنبر، وكان يبكي من شدة الغم والحزن بصوت مرتفع، وقال: كيف يمكن لأشخاص لهم علاقات جيدة بأهل العلم، ومعروفين بالتدين والإلتزام يشاركون في مجالس تفتقد إلى الضوابط الدينية، يحيى فيها اللهو واللعب، فهل المشاركة في هذه المجالس، وعدم تركها، وعدم النهي عن المنكر عمل صحيح؟

آه منكم لقد جرحتم قلبي وأشعلتموه ناراً بعملكم هذا، لقد أصبت بالهم والغم عند سماع هذا الخبر الكئيب، ولو مت فدمي في رقبتكم، وبعد أن نزل من

المنبر ذهب إلى البيت واشتد به المرض!!

فعاده الطبيب وقال: إنه بحاجة إلى تغيير الجو الذي هو فيه، فنقل إلى حديقة سالاري خارج مدينة شيراز. وفي ذلك الحين زار شيراز مرتاض من الهند، ويقال أنه متخصص في علم الرمل والاسطرلاب وأحياناً يتنبأ، فجاء أحد تجار السوق المتدينين من مريدي الميرزا إلى المرتاض وقال له: إني أواجه مشكلة في تجارتي فأريد أن أعرف هل تنحل مشكلتي أم لا؟ فبقي المرتاض يتأمل ساعة من الزمن، فقال التاجر: إن كنت لا تعرف فلا تعطلني، فقال المرتاض: إن ما جرى على لسانك ليس نابعاً من قلبك، فقال التاجر: إذن إي شيئ هو؟ فقال: إن أزهد أهل هذا الزمان مريض، وتريد أن تعرف إلى ما سيؤول وضعه؟ فهو لن يبقى في ضيافتكم أكثر من ستة أشهر، فبقى الحاج ستة أشهر ثم ودع الدنيا.

فأقسم عليك بالله أن تقيس بين هذا الرجل الذي قضى عمره في محاربة الهوى، وعاش حياة طاهرة، إلى حد أنه فارق الدنيا بمجرد سماعه خبر وقوع المعصية من بعضهم حسرة وغمّاً، وبين علماء السوء والخبث الذين ذكروا في الصفحات السابقة، لتعلم مقدار التفاوت ومن أين يبدأ وإلى أين ينتهي؟ عالم قضى عمره في طريق تهذيب نفسه، واستفاد من علمه في تربية الناس وهدايتهم، وعالم عابد لهواه أضاع حق الناس والشعوب، ولا يتوانى في القضاء على الأبرياء مهما كان عددهم تلبية لهوى النفس وهوسها.

فلا قيمة للإنسان المتلبس بهوى النفس المسيطر على قلبه عند الله سبحانه وتعالى وعند العقل والمنطق حتى ولو كان جبلاً من العلم والمعرفة، وبحراً من الحكمة، ومنبعاً للفنون، وذلك بسبب الإنحراف الذي يتجلى ويظهر على أعماله وأخلاقه، وأي إنسان عادي يبتعد عن الهوى والهوس وتنطبق جميع جوانب

حياته مع إرادة الحق فهو ذو قيمة عالية، وإذا كان عالماً واعياً يجب القول: فقيمته وفضله فوق القيم وفضائلها.

غض النظر عن المرجعية:

يقول الحاج السيد حسين كوه كمري أحد فقهاء الشيعة الكبار، وشخصية علمية مميزة، ولا شك أن لديه اللياقة والجدارة ليكون قائداً ومرجعاً للشيعة بعد الفقيه الأوحد المرحوم صاحب كتاب «**جواهر الكلام**»: ذهبت للقاء أحد العلماء، وكان قراري أن أذهب إلى المنزل بعد زيارة هذا العالم وبعدها أتوجه للدرس، ولكن لم يكن لدي الوقت الكافي فعرجت إلى المسجد الذي ألقي فيه الدروس على الطلاب، ووقت الدرس لم يحن والطلاب لم يحضروا بعد، فرأيت شيخاً بلباس مندرس وعمامة بالية يلقي دروساً على مجموعة من الطلاب، ولم ألتفت في البداية إلى درسه، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت أصغي الى ما يقول، فوجدت أنه يتضمن مطالب عميقة، ودقة عالية، فقررت أن أحضر غداً مبكراً وأدقق أكثر في درسه، فجئت فكان درسه مثيراً لإعجابي، وجئت في يوم آخر فرأيت أن دروسه في الفقه والأصول أكثر عمقاً ودقة من دروسي، فسألته عن اسمه ورسمه عند خروجه من المسجد؟ فقال: اسمي مرتضى، وعائلتي الأنصاري، من أهل دزفول، وعندما اجتمع جميع تلامذتي قلت لهم: أنا مسؤول أمام الله بأن أرشدكم لما هو في مصلحتكم ومنفعتكم، هناك شيخ باسم مرتضى الأنصاري قدم إلى النجف الأشرف حديثاً، ويعطي دروساً في الفقه والأصول، وهو في هذين العلمين لا نظير له، وأنا أعتقد أنه أعلم مني، فإذا أردتم أن

تستفيدوا أكثر فالتحقوا من اليوم بدرسه، وأنا أيضاً سوف ألتحق بدرسه مثلكم لأستفيد من بحر علمه!!

فالتحق الحاج السيد حسين من الغد بدرس الشيخ الأعظم مع أنه كان على أبواب المرجعية ولكنه عدل عن ذلك لأجل الله، حيث أصبح الشيخ الأنصاري مرجعاً للشيعة بعد صاحب الجواهر، وعندما راجعوه لأخذ فتاواه، أجابهم: كان هناك شخص يتباحث معي في يوم من الأيام هو أعلم مني، وهو موجود في إيران الآن، فكاتبوه واطلبوا منه الحضور إلى النجف للتصدي لمقام المرجعية، فكتبوا له رسالة، فأجابهم: إن كلام الشيخ حق، ولكني قد ابتعدت عن الحوزة والمباحثة فترة من الزمن، ولا شك أن الشيخ أعلم مني. وبناء على هذا أصبحت المرجعية والرئاسة المعنوية مسلمة له، لله دُرّ هؤلاء الرجال الطاهرين، أصحاب القلوب الصافية، والنفوس المهذبة، ماهذه الإنسانية التي صنعوها، فيا لها من شخصية إلهية عظيمة، لقد بلغ إيمان هؤلاء بالله وبيوم القيامة إلى الحد الذي كأنهم يرون يوم القيامة، فهم من شدة التربية والتهذيب ليسوا مستعدين أن يبيعوا آخرتهم الأبدية بأيام معدودة من هذه الدنيا الفانية، فياليتنا نحظى بشيئ من نسيمهم الطاهر، وياليتنا نوفق نحن أيضاً للحفاظ على الحق في جميع جوانبه، كما كان هؤلاء.

مخالفة النفس للهوى أساس الطهارة:

تشرفت بزيارة المرحوم الشيخ أبو الحسن الأنصاري حفيد بنت الشيخ في منتصف الليل في الأهواز، الشيخ أبو الحسن صاحب رسالة عملية، وتأليفات علمية قيمة، فسألته عن نوادر حالات جده الشيخ الأنصاري، فنقل لي حادثة

عجيبة:

يقول الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازي صاحب الفتوى المعروفة بتحريم التنباك: عندما أصبحت مجتهداً، رأيت عدم حاجتي لحضور أي درس، و عزمت السفر من اصفهان لزيارة مولى الموحدين عليه السلام في النجف الأشرف، فطلب كبار علماء النجف رؤيتي، فزرتهم جميعاً، فسألني الطلاب والأصدقاء: متى ستذهب لزيارة الشيخ الأنصاري؟ فقلت: سأذهب يوماً للمشاركة في درسه للإطلاع عليه، فذهب الميرزا للحضور في درس الشيخ، فأبى الشيخ التدريس احتراماً للميرزا، فأقسم السيد عليه، فأعطي الشيخ درسه كما جرت العادة في كل يوم من دون أن يبرز علمه، وبعد نهاية الدرس عاد الميرزا إلى بيته، فسألوه: كيف رأيت درس الشيخ؟ فأجاب: لقد غيرت رأيي بالنسبة للعودة إلى إيران، لأنني أرى احتياجي للمشاركة في درس الشيخ، فاستمر في درس الشيخ خمسة عشر سنة، حتى أصبح محل سر الشيخ، وفي يوم من الأيام طلبت والدة الشيخ من السيد الحضور في غياب الشيخ، وقالت: يابني إن الشيخ يقتر علينا كثيراً من الناحية الإقتصادية والمالية، فاطلب منه أن يوسع علي وعلى زوجته وأبنائه من هذه الأموال التي تصل إليه، فاستأذن الميرزا من والدة الشيخ واتجه إلى صحن أمير المؤمنين علي عليه السلام، وكان الشيخ يريد أن يصلي بالناس صلاة المغرب، فجاء السيد إلى الشيخ وقال: إن والدتك لديها عتاب عليك، وأنا أريد الصلاة خلفك، فهل أستطيع الصلاة؟ فأجابه الشيخ: نعم، ولكن فيما يتعلق بعتاب والدتي سأوضح لك الأمر بعد الصلاة، فأمسك بيد السيد وأخذه إلى الحرم المطهر لأمير المؤمنين عليه السلام وقال له: قبر من هذا؟ فأجاب السيد قبر أمير المؤمنين عليه السلام، فقال

الشيخ: أنا متصد لمقام المرجعية، يعني مقام أمير المؤمنينعليه السلام، وأن المال المطلوب للتوسيع على عائلتي موجود ومتوفر، إلا أنني أرغب أن تنفق والدتي وزوجتي وأولادي بمقدار ما هو ضروري أولاً، وثانياً أن تكون طبيعة حياتهم عادية أكثر من حياة بقية الناس، حتى لا تصاب قلوب الفقراء والمساكين بالحسرة والإنكسار، ويمكنهم القول: بأن مرجعنا يعيش كما نعيش، أما إذا طلبت مني أن أوسع على عيالي في الصرف فيجب عليك القبول بتحمل مسؤولية تقديم الجواب في محكمة العدل الإلهي، وفي حضور أمير المؤمنينعليه السلام، فقال السيد للشيخ: أنا لا أستطيع تحمل مثل هذه المسؤولية، فقال الشيخ: إذن فعتاب والدتي لا يقدح بعدالتي ولا مورد له.

فأنظر إلى تحرر السيد من الهوى فمع كونه مجتهداً إنضم في سلك طلاب الشيخ، وتتلمذ على يديه لمدة خمسة عشر سنة للإستفادة من فيض علومه، وأنظر إلى طهارة الشيخ وعدم قبوله لزيادة نفقة عياله عن الحد الضروري، والتوسعة عليهم.

فأنظر إلى أين تصل قمة الطهارة والفضيلة؟ هؤلاء من أي الجامعات قد تخرجوا؟ وما هي العلوم التي درسوها؟ وأين درسوها؟

إن قصص حياة هؤلاء تشبه الملائكة، فهل تتخيل أن يكون هؤلاء الأفراد مجردين عن جميع الأبعاد المادية؟ إن الله الرحيم سيتم حجته على الجميع يوم القيامة بهؤلاء العباد!!

«وَدِيْنَهُ عَنْ البِدْعَةِ»

الدين في اللغة له معان مختلفة، ومعناه في هذه العبارة: ارتباط قلب الإنسان بالله الرحيم، وبمجموعة القوانين المبنية على مصلحة الإنسان لتنظيم حياته في جميع الجوانب.

والمؤمن هو الشخص الذي يرتبط بحضرة الحق وكل ما يتفرع عنه من النبوة والقيامة والملائكة والكتاب ارتباطاً قلبياً، ويؤمن بهذه الأمور الواقعية، ويعمل بكل ما جاء به النبيﷺ من عند الحق من أوامر ونواهي.

إن منزلة الدين الواقعي في الحياة كمنزلة الروح من الجسد، والدين في حياة الإنسان يحتل المرتبة الأولى من الضرورات، فالدين هو الباعث على تفجّر الإستعدادات المعنوية والروحية للإنسان، ولو لم يكن هناك دين فلا قيمة للإنسان، فالدين هو الضامن لسعادة الدنيا والآخرة، والمؤمن لخير الدنيا والآخرة.

وإن آلاف المدارس العقلية والمنطقية ليس لها قدرة الوفاء بدور الدين في حياة البشر، وقد اتضح ذلك للبشر بشكل جلي غير قابل للإنكار لأي شخص منصف.

وقيل: إن العقل والوجدان بإمكانه أن يأخذ دور الدين في هداية الإنسان في

جميع الجوانب، ولكن مضت آلاف السنين على البشر الذين اعتمدوا العقل أو الوجدان فثبت لديهم أن العقل والوجدان لا يمكن أن يأخذ دور الدين. لإن العقل كان منشأ للأخطاء في كثير الأمور غير قابلة للجبران، والوجدان في مقابل عوامل هذه الأخطاء إما أنه التزم الصمت مع إدانتها، أو أن الوجدان قد فقد الإحساس كلياً فأدى إلى سقوط البشر في الضياع والتيه.

إن منشأ الدين وأصله سواء من خلال الفطرة أو من خلال البحث عن الحق المطلق موجود في ذات الإنسان، وهذا الأصل متحد مع حقيقته ومجبول فيه، وهي قابلة للإثارة والظهور والرشد من قبل السفراء الإلهيين. وبسبب قيام الأنبياء عليهم السلام بإيصال المعارف الإلهية الصافية إلى أسماع البشر، وترغيبهم بالعمل بها وإجراء حدودها والأوامر الإلهية تهيئة الأرضية المناسبة والتوفيق لتربية البشر، بحيث لا نجد مثيلاً لها في جميع المناهج والمدارس الفكرية.

إن المكاسب التي يحققها الدين للبشر في الجانب المادي والمعنوي لم تستطع أي مدرسة أو تيار توفيرها للإنسان، ويمكن الإدعاء بكل جرأة وشجاعة أن كل البرامج والمناهج الإيجابية والمباركة التي يصادفها الإنسان في حياته لها جذور وأصول في الدين الواقعي، ولا توجد نعمة بين جميع النعم التي أنعم الله بها على الإنسان قيمة تعادل نعمة الدين، والله سبحانه وتعالى لم يمن على الإنسان بأي نعمة سماوية كانت أو أرضية سوى نعمة إعطاء الدين وهداية البشر، وهذا يشير إلى الأهمية البالغة لهذه النعمة في حياة الإنسان.

فلو توفرت جميع النعم للإنسان في حياته من دون أن يكون للدين فيها نصيب فهو يعيش حالة من الكآبة والقلق، والقرآن الكريم يقول أن هذا الشخص لا يمكن أن يوصف بالإنسان.

الدين أساس الروح، وأصل الحياة، وعلة لشرف وتجلي جميع صفات الحق في الوجود الإنساني، وبمناسبة الحديث عن كلمة الدين في هذا القسم لابد من تحقيق هذا الموضوع بالمقدار الممكن والمتاح، وبيان أهميته في الحياة، ليتضح مدى الحاجة الضرورية للفكر الديني في حياة الفرد والمجتمع، وأن الفرد والمجتمع غير قادر على تأمين الخير والصلاح لحياته من دون الدين.

منزلة الدين في حياة البشر:

١- ميل الإنسان الغريزي للدين:

إن الإنسان لديه ميل على أساس الغريزة الموجودة فيه لمعرفة المبدأ والمحرك لعالم الخلقة والمنظم له، ومعرفة ما وراء عالم المادة، والظواهر الكونية، والقوانين والنظم التي تحكم عالم الخلقة، ويريد أن يرتبط به، ويسعى لفهم حقيقة حجاب الماديات، وماهو سر عالم الوجود؟ يفكر ولا يعلم ماهو حقيقة التفكير، يمشي ولا يعلم حقيقة حدوث ذلك من انقباض العضلات وانبساطها، وحركة العظام وما يتعلق بذلك، ويعي بشكل جيد أن إرادته غير مادية، وأن هناك ألوان من العلم غير التجربة وليست مادية، ولكنه عاجز عن درك حقيقة هذه الألوان، يتحدث عن نفسه بـ "أنا" ولكن لا علم له عنها.

يشاهد في محيط عالم الوجود أمواجاً عاتية من الحيرة، وكلما تأمل فيه وفكر زادت سلسلة الحيرة لديه، وتداخلت أفكاره، ويقول في نفسه: لا أدرك أن هناك ساحلا لأفكاري، فحيرتي في هذا الوادي لا نهاية لها.

وما يفهمه في هذا العالم أنه لا يفهم فقط، ويعلم بأنه لا يعلم، ويرى أن

طريق درك الحقائق مغلق أمامه، ويرى محدودية كمية العلوم المادية والتجريبية في هذا الطريق.

ومن هنا يعلم نهاية المطاف لقدرة الماديات وحكومتها، حيث يتساوى العالم وغير العالم، المبصر والأعمى، أنشتاين و ابن سينا مع دهقان الأعمى.

ولديهم عبارة لهذه النغمة وهي: أننا عاجزون عن درك كنه الذات الإلهية، وكيفية إيجاد عالم الخلقة، وطريق معرفة ما وراء العالم المادي، وماهو موجود خلف الحجاب. وأننا شئنا أم أبينا لابد من التسليم في النهاية وبشكل حتمي أمام حقيقة هذه الأسرار، وأن حس حب الإستطلاع في هذا الوادي لا يهدأ إلا بالإدراك الروحاني وباللطائف النابعة من فيض عقول الأنبياءعليهم السلام، ولا يمكن إرضاء هذا الميل وإروائه لمعرفة حقيقة هذا الموضوع إلا من خلال غيث الرحمة للمعارف النبوية، وأن حديث المصطفين من قبل الخالق، ونسيم هدايتهم قادر على تخفيف تلك الشرارة المحرقة، وتفتّح البراعم الروحية الموجودة في قلوب الباحثين في وادي الحيرة، وإيصالهم إلى شاطئ الإطمئنان والسعادة، لتحصل للإنسان القناعة الوجدانية.

نعم، إن الإنسان الضائع في بحثه، والشيئ الذي يجري وراءه ويبحث عنه مظهر من معاني الدين. فالدين لديه القدرة أن يخرج خاتم الراحة الفكرية والإطمئنان النفسي من قعر البحر المتلاطم للروح، و يعطي لحياة الإنسان جمالاً وحيوية.

نعم، نحتاج لرؤية الحقيقة إلى رؤية ليست بالعين، والطريق الوحيد لهذه الرؤية يتحقق بالإرتباط بالأنبياء فقط، لأن هذه الرؤية الحاصلة تفتح جميع أبواب الكمالات وأبواب الرحمة الإلهية أمام الإنسان.

٢- يقضي على القلق والإضطراب:

الدين يخلص الإنسان من طوفان القلق والإضطراب الناتج من التفكير في الحياة بعد النشأة المادية، ويهبه في ظل الإيمان الحقيقي الإطمئنان النفسي، والنشاط الروحي، والراحة من الهم.

تعاني روح الإنسان في بحر الحياة المتلاطم من الخوف و الرعب و الشك، والإضطراب من عالم ما بعد الموت، وكيف يكون حاله بعد انفصال الروح عن الجسد، ويعلم بأن الموت يلاحقه كظله، فيَسْأل ويَسْأل: من أين أتيت ولماذا أتيت؟ وإلى أين أنا ذاهب في النهاية، فأين وطني؟ فهل خلقت لأجل الأكل والشرب والملبس وممارسة الجنس؟ إذن فما الفرق بين الإنسان والحيوان؟

وهل كان خلقنا للحرب، وانتاج الأسلحة والقنابل الحارقة، وإبادة الآخرين ومحوهم، وجعل العالم في مأتم، فإذا كان كذلك، فحال الثعالب والكلاب أفضل من البشر، وأما إذا كان خلقنا نحن البشر لأجل عمارة الأرض وبنائها، إذن فلماذا نموت ونرحل؟ والبستاني الذي يصنع من حديقته روضة، فلماذا لا يكون له حظاً منها، ويدس رأسه في التراب المظلم؟

وإذا كان المقصود من الخلقة هو أن يقوم عدد من الجبابرة باقتناء الذهب والفضة والألماس بالظلم والعدوان، ويملؤون خزائنهم بالياقوت والألماس، أو الفرح بجمع الأموال التي لا حصر لها، فما هو الفرق بين الإنسان وتلك المعادن والأحجار؟

وإذا كان الهدف تمضية الحياة بالفرح والسرور، فلماذا تقلب الحالات والإضطراب، والمصائب والهموم والآلام؟

والإنسان في النهاية يرى ويفهم، ولا يستطيع بأي وجه أن يصل إلى مقصود حضرة الحق بهذا الفكر غير المستقر، ويعرف هدف الخالق أو يدركه، والطريق الوحيد في هذا المجال هو البحث في الدين والتدين، ويجب الإعتقاد أن بإمكان هذا الدواء أن يعالج همه وغمه، ويجبر طوفان الحيرة والإضطراب.

والدين الذي أساسه الإيمان بالله يعطي الإنسان الطاقة والشجاعة ليس فقط بأن لا يهاب الموت، بل ليصبح الموت عنده كتغيير اللباس، والتحرر من القالب، والتحليق إلى عالم الملكوت، ويقابل حوادث العالم بالبسمة، ويواجه المشاكل بذراعين مشرعتين، وقد كان هذا الإيمان وهذا الإدراك الواقعي للموت هو رمز توفيق الشعوب المؤمنة وتقدمها في كل عصر من عصور الأنبياء عليهم السلام.

٣- الدين أفضل ملجأ في الحوادث:

الدين هو حصن الإنسان المتدين وملاذه في الحوادث والمصائب، فحياة الإنسان ميدان للمشاكل والصدمات، وأن الإنسان ليس مختاراً في تحمل الشدائد الجسدية والروحية والعقلية، وفي وسط جميع هذه البلاءات فهو غير مختار في الإلتجاء والإتكاء على المبدأ المؤهل والحسن الذي يتضمن هذا المعنى.

ومهما بلغ الإنسان من الصبر والتحمل، وأظهر قدرته على التحمل وجلادته فإن صلابة الروح لا تسمح له أن يطلق لسانه ببث الشكوى والأنين، والحديث عن عدم الملاءمة، وإطلاق الآهات، ولا تسمح له بنشر الشرور الموجودة في الجميع في المحيط. فهو يرغب أن يكون لديه ملجا عظيماً ورحيماً، يلوذ به عند تعرضه للمصائب في أية لحظة، ويستعين به، ولا يمنّ عليه، ولا يبخل عليه، والحياة بدون وجود الملجأ والملاذ صعبة جداً.

والدين الذي أساسه الإيمان بالله هو أفضل الملاجئ والحصون، وأهم صديق ومعين في الخلوة والجلوة، والسر والعلن، والباطن والظاهر.

والإنسان الذي وقع في وسط المحيط الموحش والمتلاطم، وبدأ يضرب الماء برجله ويده عند الغرق فرأى الموت بعينه وذاق طعمه، والأمواج العاتية تلطم وجهه الناعم، وآلام ضغط الماء يتزايد على بدنه، عندها تتفجرحنجرته صراخاً " يا الله" بلا اختيار، ويطلب منه المساعدة للوصول إلى ساحل النجاة، حيث لا ملجأ ولا مأوى ولا رفيق ولا معين، في تلك اللحظات يحصل له الإيمان بقدرة الله من صميم قلبه، ويوجه استغاثاته وأنينه نحو سمائه العظيمة.

هذه الحقيقة وهذا الملاذ وهذا المعبود الواحد هو الدين، وخلاصة هذا الدين تعطي الإنسان الإطمئنان والجرأة والشجاعة والشهامة، كما يقول القرآن الكريم:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ويقول في آية أخرى:

﴿أَلا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

وعندما يشرق شعاع الدين في أي قلب تتجلى فيه المعنويات المضيئة، وتتفتح فيه الحقيقة، ويهيم في الحق للحد الذي تهون فيه الشدائد والمصائب، ولا يشعر بأي اضطراب وانشغال تجاهها أبداً، بل يعتقد أن ذلك من لوازم هذه الحياة، لإن صاحب الدين والمتدين الحقيقي لا يخاف ولا يفزع من الحوادث، وأن العزة والذلة من الله، ولديه اليقين بأن الحوادث الواقعة من عوامل الكمال

١- الفتح ٤٨: ٤.

٢- الرعد ١٣: ٢٨.

ولوازمه.

نعم، يجب أن يعلم المتدين أن الصقيع والبرد القارس والثلج والسيول تطهر الأرض من الميكروبات، و اعدادها لتفتح أزهار الربيع، وليصنع النحل العسل من رحيقها، وتقوم بتلقيح الأزهار، فالحوادث أيضاً من أسباب الحياة ولوازم رقيها.

فيجب على الموحد أن يتوسل بالله ويعتمد على الدين للتوفيق والثبات في الجهاد و مواجهة المكروهات التي تعترضه في حياته، فملاذ المتدين وملجأه هو الله و المبادئ الدينية، وهو المغيث له في الشدائد والمصاعب، والإعتقاد بأنه لا يوجد غير الله قادر على معالجة آلامه، وعند الإضطرار يتوجه إليه ويطلب العون والمدد منه سبحانه وتعالى.

وإن تعاسة أي شخص راجعة لعدم وجود أي ملجأ وملاذ له، والأسوأ من ذلك أن تلجأ بعض الموجودات الضعيفة والمسكينة ـ مع أنهم أحسن حالا ـ إلى الإتجاهات العديمة الجدوى.

على الإنسان المتدين أن يعرض احتياجاته إلى حضرة القادر المدبر، والخالق الرؤوف غير المحتاج وحده لا إلى أحد سواه، وأن يفتخر بالتسول أمام بابه، وليس على استعداد بأي قيمة كانت أن يغير وجهته عن رب الأرباب.

وأن يتذكر النماذج البارزة في الثبات والصبر والإستقامة الموجودة في المدرسة الإسلامية، إضافة إلى أئمة الدين الذين لا مثيل لهم في كل التاريخ، وهناك الكثير من الشواهد عن صبر أتباع هذا الدين في مواجهتهم للحوادث والمصائب مما يثير الاعجاب والإفتخار.

صبر المتدينين في المصائب:

يقول أحد رجالات الدين:

مررت بمقبرة يوماً فرأيت إمرأة جالسة بين القبور، تنشد بعض الأشعار بهذا المضمون:

صبرت والصبر جميل العاقبة، وهل عدم التحمل مفخرة كي لا أتحمل، صبرت على أمر لو نزل على جبل شيئ منه لتزلزل، سالت الدموع من عيني، فأرجعت الدموع التي سالت من حيث جاءت، إن بكائي واقع في أعماق قلبي.

فسأل الرجل تلك المرأة: ماذا أصابك لتقولي صبرت على ما لم يصبر عليه أحد مثلي!؟

فأجابت: قام زوجي يوماً بذبح خروف أمام أولادي، وبعد أن أنتهى من الذبح رمى السكين جانباً ثم خرج من المنزل، فقام أكبر أولادي بتقييد يدي أخيه الصغير ورجليه، وأجلسه على الأرض كما الذبيحة، وقال لأخيه: سوف أريك كيف ذبح أبي الخروف، فقطع رأس أخيه، وما أن وصلت اليهما إلا وقد مضى ما قد قضى، ومن شدة غضبي هجمت على ابني لأبرحه ضرباً، ففر هارباً إلى الصحراء مختبئاً، وما أن عاد زوجي إلى البيت واطلع على ما حدث، خرج فوراً وراء ولده بحثاً عنه، فوجده في الصحراء ميتاً بسبب افتراس الحيوانات المتوحشه، فحمل جنازته بصعوبة إلى البيت، فسقط أمام البيت وفارقت روحه الحياة، فهرولت مضطربة باتجاه زوجي وجنازة ابني، وفي هذا الأثناء مد طفلي الصغير يده إلى قدر الطعام المغلي فأراقه على نفسه فمات في الحال، وخلاصة الأمر لقد فقدت جميع أعزائي في يوم واحد، فقلت في نفسي: إذا كان صبري في هذه المصيبة الكبيرة وتحملي لهذه المأساة الأليمة لله سبحانه وتعالى

فسأكون مأجورة ومثابة، فآثرت تحمل المصيبة، وأخفيت دموعي الحزينة، وقلت: إن جميع الأمور بيد الله جل وعلا، وكل شيئ موكول لحضرته، ولا أمر لي فيما جرى علي.

٤- تطبيق الدين مع الإخلاص في النية:

عندما يطبق الإنسان المؤمن القوانين الدينية بنية خالصة فلا حاجة للقوى التنفيذية للإشراف على هذه القوانين. فالقانون الذي له جذور في سويداء قلب الإنسان وروحه قابل للتنفيذ بدون اشراف من القوى التنفيذية، والمتدين الواقعي لا يجيز لنفسه تخطي القوانين في أيه مرحلة كانت، والقانون الذي يكفل ذلك هو القانون الديني فقط، لإن القانون الديني يجعل روح المتدين مسلمة لتطبيق القانون وبسط نفوذه، ويرويه بدمائه، فالقوة التنفيذية للقانون الديني مخفية في كيان المتدين، والذي يدفعه لذلك هو عشقه لله، وخوفه من عقابه يوم الجزاء، وهذا الدافع لا يغيب عنه أبداً ولا يمحى.

٥- عدم الرياء عند أهل الدين:

يسعى الإنسان المتدين في ظل الأوامر الدينية إلى تحسين حياته وحياة الآخرين في الجوانب المادية والمعنوية، ويعلم أن الطريق لتأمين سعادة الدنيا والآخرة في المجاهدة في سبيل الله. ونشاطاته وفعالياته لا رياء فيها، وأعماله لم تتلون بألوان الحيل والمكر والخديعة، وأسلوبه في نشر الدين وتطبيق قوانينه لتحقيق سعادته وسعادة عائلته وسعادة مجتمعه أسلوباً عقلائياً، ويجتهد في عمله ليكون فرداً صالحاً مفيداً في كيان المجتمع.

٦- التدين يلبي احتياجات الباطن:

إن اعتناق الدين من الغرائز الإنسانية، والإنسان الذي يقبل هذه الحقيقة يلبي نداء الوجدان وإلهام نبي الباطن، والإنسان ظامئ بطبيعته إلى هذا النبع الزلال إلى الحد الذي إذا لم يجد طريق النبي أو الرسول ينحت له من الحجر أو الخشب إلهاً بشكل صنم ليعبده، أو يعتبره مظهراً للحق، ويقدم له القرابين لقضاء حوائجه، أو كما نفعل في الإستعانة بصنم الأموال لجلب الراحة والأمان.

٧- التدين موجب لشكر النعمة:

شكر المنعم واجب، بمعنى أنه عندما يحسن إنسان لشخص، يجب على هذا الشخص تقديم الشكر والثناء للمحسن، وهذا بمقتضى الإنسانية، حتى إن بعض الحيوانات لديها وفاء تجاه المنعم، ومع قبول هذا الأصل، فإن البشر يتمتعون بنعم الله التي لا حد لها ولا حصر، ويعلمون أن هذه النعم التي لا نهاية لها خارجة عن حد الوصف والقياس، وأن المنعم فيها يختلف عن الأفراد العاديين لأنهم جزء من التراب والعوامل المادية، فيجب عليك الإهتمام والإنشغال بتقديم الشكر والثناء له، وفي مقام اتيان هذه الفريضة، وأداء هذا التكليف الواجب يجب معرفة المنعم عليك، ولا وجود لمنعم غير الحق تعالى، ولا سبيل للحركة إلا نحو الله ومعرفته، وهذا هو معنى الدين والتدين.

٨- التدين يدفع الضرر:

دفع الضرر المحتمل واجب، ويوجد في الدنيا فريقين متواجهين، الموحدون والكفار، فالموحدون يؤمنون بالله وبالنشئة ما وراء الطبيعة وبيوم الجزاء، وأن هناك جزاء للأعمال الحسنة والأعمال السيئة، والكفار يعتقدون

بالمادة فقط، ولا يعتقدون بشيئ آخر غير الدنيا، ويحذر الصالحون في العالم وعلى رأسهم الأنبياء الإلهيون الكفار من هول يوم القيامة وفزعه، ومن لهيب نار جهنم، ومن ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، وقالوا: إن الله أعد للمسيئين والكفار والفجار والمنافقين في الآخرة عذاباً مهيناً.

وكان لكلام الأنبياء وهداة الإنسان إلى الصراط المستقيم حد أدنى من التأثير على الكفار والمنافقين، بحيث أنهم احتملوا وقوع العذاب، واحتملوا صدق كلام الأنبياء وسالكي الطريق، وبناء على هذا فدفع الضرر المحتمل واجب، وهذا الوجوب عقلي أيضاً، وعليه يجب على الشخص أن يقبل دعوةالأنبياءعليهم السلام، ويلبي نداءهم، وهذا الأمر والإهتمام بدفع الضرر: هو عبارة عن السير في طريق الدين، والإلتزام بقبول هذه الشريعة.

حاجة المجتمع للدين وقوانينه:

١- القانون لازم لإقامة القسط وبسط العدل الإجتماعي، ومن دون القانون لا يمكن أن يستمر المجتمع أو يبقى ولو لفترة قصيرة، ومن جهة يستطيع القانون في المجتمع تأمين الحكومة والعدالة الإجتماعية على أساس العقل والبرهان الصحيح الحق، وواضع هذه القوانين مطلع على التفاصيل الجزئية للحاجات الضرورية للمجتمع، وواقف على مصالح الأفراد الحالية والمستقبلية ومقتضياتها، ولديه بصيرة كاملة بجميع البرامج التي ترتبط بحياتهم، وبراء من كل ريب ورياء وأغراض شخصية وهوى وهوس.

هذا النوع من القوانين منحصر بالله تبارك وتعالى بدليل العقل، ويتم إبلاغها للناس من خلال دعوة الأنبياءعليهم السلام، حيث يدعون المجتمع لقبول القوانين الإلهيين

والإلتزام بها، هذه المجموعة من القوانين يبلغ الأنبياء عليهم السلام بها من خلال الوحي، وبواسطة الأنبياء يتم نشرها بين الناس، ويسمى هذا القانون دين.

ومن المسائل القطعية هو أنه يجب أن يعيش البشر في ظل القانون وفي حماية الحقوق، والقوانين والحقوق الموجودة اليوم في الدول كالقوانين البرلمانية، والأعراف والعادات، والتشريعات القضائية، والضوابط، ومختلف المقررات وبما أن هذه الموضوعات خارجة عن دائرة الدين فهي مشوبة بالأغراض السيئة، ووضعت بأفق محدود، مع عدم الإطلاع على مقتضيات أحوال البشر الحالية والمستقبلية، ومبنية على تحقيق المنافع والمصالح الشخصية للمتنفذين منهم، وجمع الأموال. ولا يقبل الأفراد بتطبيق هذه القوانين طوعاً ورغبة، وذات البشر وقلوبهم تميل للقانون الذي يتفق مع الفطرة والإحتياجات الواقعية، وهذا القانون منحصر بالقانون الإلهي، والمقررات الطبيعية، وهذا القانون في الحقيقة هو قانون الشريعة والدين.

٢- لا شك أن القانون في المجتمعات التي تحكمها حكومات استبدادية أو دكتاتورية يسنّ تخدمة السلطان أو الدكتاتور، والحكومات التي تحكمها أنظمة جمهورية أو برلمانية تكون مطالب الأكثرية من أفراد البرلمان تتخذ صفة القانون لتحكم الناس، والأمر الواضح الذي لا ترديد فيه هو أن المجتمع متعطش للقانون السليم والحسن، فالمجتمع يريد قانوناً يراعي حقوق جميع الأفراد ويحفظها، يلبي احتياجاته بأحسن وجه، وقادر على حمايته من الإعتداءات والتجاوزات، ، وأن لا يؤدي تطبيق هذه القوانين إلى تكبيده الخسائر والأذى، ولا يوجد قانون يؤمن هذه المعاني إلا في ظل الدين فقط لا غير،

إضافة إلى أن وضع القوانين العرفية والبرلمانية يصاحبه ضغوط معينة من قبل المتنفذين من الظلمة والطغاة وأتباع الهوى والهوس، لتمرير نواياهم السيئة في تحقيق مصالحهم ومنافعهم الشخصية بشكل قانوني، وتعرض على الناس بعنوان أوامر ومقررات يجب تنفيذها والإلتزام بها، وهذه القوانين الناقصة أو الباطلة هي التي أوقعت أكثر مجتمعات العالم في الفساد والضياع!!

٣- القانون كما أنه يلاحظ النشأة الدنيوية، يجب أن يراعي بشكل كامل النشأة الأخروية أيضاً، ويجب أن يكون واضع القانون مطلعاً على عالم ما وراء الطبيعة ومحيطاً به، حتى يتمكن من وضع قوانين للبشر خاصة لهذا العالم أيضاً، تزيل كدورات الروح، وتهيئها للحياة الأخروية، والأشخاص المرفهين الذين يعيشون في غطرسة من النعم والراحة بدون الإيمان بالله والآخرة في غفلة وسبات عميق، لا يستطيعون أبداً وضع قوانين هذه المرحلة، ووضع قوانين هذه المرحلة يختص بالدين ومنحصر به، وواجب صاحب هذه الشريعة الحق تعالى أن يشرع القوانين ويبلغها لعباده.

٤- البشر يرغبون في القانون لأن القانون مظلة لحفظ حقوق المساكين وحفظ مصالحهم ومنافعهم، والأشخاص الذين تتوفر لهم جميع متطلبات الحياة، ولا هم لهم فيها ولا راحة إلا بشرب الخمر، ولا يعرفون فيها إلا جمع المكاسب المادية، لا يستطيعون وضع قانون يعين حدود مصالح الأفراد العاجزين والمساكين، وأبناء الطبقات المحرومة والمعذبة، لإن وضع القوانين فرع التعقل، وهؤلاء غير قادرين على إدراك وضع الآخرين المأساوية، فكيف يسنون قانوناً سليماً يحافظ على حقوقهم ومصالحهم، وهذا النحو من سن القوانين ضمن دائرة

قدرة الله جل وعلا، والله سبحانه وتعالى يبعث الأنبياء برسالاته إلى الناس من باب اللطف، وأمرهم بإبلاغ القوانين التي تنفع جميع أفراد المجتمع بإسم الدين.

٥- القانون الإجتماعي يجب أن يكون قابل للتطبيق ـ على خلاف تصور البعض ـ في كل المجتمعات وفي كل زمان ومكان، أصوله ثابتة، وفروعه قابلة للتغيير بالنسبة للمكلفين باعتبار العناوين الثانوية، ولأجل هذا الهدف هناك قوانين وضعية من وحي الساعة يصل تعدادها أعداد النجوم، وأغلبها تثير الحيرة والإضطراب، ولا يمكن أن تكون مضمونة، والقانون الديني هو القانون الوحيد التي تتوفر فيه الشروط من ناحية الأصالة والإتقان.

٦- الدنيا ملك لله سبحانه وتعالى، وإن العالم والعالمين مظهر لقدرة الله وإرادته، وهو العالم بالسر والخفيات، وهو يعلم ماهو القانون المناسب واللازم لهذه الظاهرة ولعالم الخليقة، الذي يؤمن احتياجات مخلوقاته، والله الذي خلق هذا العالم هو الذي يعلم بالقانون الذي يلبي احتياجات الإنسان ويراعي مصالحه الدنيوية والأخروية، هذا القانون يسمى القانون الديني، ولا يتم إبلاغه إلا عن طريق الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

٧- يجب أن لا تكون تكلفة تطبيق القوانين الإجتماعية غير قابلة للتأمين، وتحتاج إلى مبالغ باهظة، وأن لا يكون موارد الصرف من بيت المال مختصاً بالقوة التنفيذية، ومنحصراً بالمسؤولين عليه، ويجب أن تكون موارد صرف بيت المال في الأمور الخيرية التي يعود منفعتها للمجتمع، ويجب أن يكون الضامن لتطبيق القانون هو نفس القانون والإعتقاد بذلك. ولا تتوفر مثل هذه المواصفات في قانون غير القانون السماوي، يعني الدين.

٨- إن القوانين الدينية في المجتمع هي التي تشكل المدينة الفاضلة، وهي

التي تخرج الإنسان من حضيض الذلة إلى قمة العزة والكمال، ويجعل الله سبحانه وتعالى البركة والعزة والرفعة في المجتمع الديني، والإسلام هو دين الله، الذي ينجي أتباعه الحقيقيين من الانزلاق في هاوية الهلاك و بؤس الحياة الإنسانية، ويأخذ بالناس إلى أوج العزة والفضيلة، ويضمن تحقيق العدالة الواقعية في المجتمع.

٩- إن تطبيقِ المقررات الدينية ينقذ المجتمع من شر الإستعمار وظلم الكفار وطمعهم، ومنِ شر الأصنام ذات الأرواح وغيرها التي صنعتها مراكز الإستعمار، إن الحكومة الدينية هي نموذج راق لظاهرة المدينة الفاضلة، إلى الحد الذي يكون فيها أفرادها في أمن و أمان من جميع الحيثيات.

١٠- إن القانون الديني كما أنه يؤمّن السعادة الدنيوية، فهو يؤمّن السعادة الأبدية الأخروية للأفراد أيضاً، إن الإعتقاد بالنشأة الآخرة يؤثر كثيراً في حفظ النظام العام، وممارسة الأفراد ضمن حدود حقوقهم.

١١- الدين من المظاهر الأساسية لتمدن المجتمعات، وإذا ما درسنا الحياة المدنية للمجتمعات نلاحظ أن هناك ثلاثة عوامل أساسية هي منشأ للنشاطات والفعاليات، وهي عبارة عن: العلم، الفلسفة، الدين.

وعرف علماء النفس والفلاسفة العلم: بأنه عبارة عن النتيجة الحاصلة من الجهود المنظمة والدائمة للفكر البشري، لتشكيل قاعدة أو نظامٍ أو أصل قانوني.

وعرفوه بأنه: العلم بظواهر الأشياء وخواصه الصورية التي تعتمد على الحس والتجربة، حيث يتم بيان خواص الأشياء عن طريق التجربة، وحدود التجربة المحسوسات و عواملها من الحواس الظاهرة.

وأما الفلسفة فقد عرفها أهلها بأنه عبارة عن: العلم بحقائق الأشياء بمقدار طاقة

البشر، الفلسفة أعلى مرتبة من العلم، وأينما توقف العلم حيث تعجز أجنحة العلم عن التحليق في القمم العالية، تحلق صقور الفلسفة في الآفاق باحثة عن زوايا وخبايا الحقائق وبطونها، لادراك حقائق الأمور على نحو أكثر وأعمق.

فالفلسفة لا تكتفي بالماديات كما هو الحال في العلم، فهي تنظر في كل شيئ تطاله يدها، ويرى أن البحث في عالم الخليقة وما وراء عالم الطبيعة ضمن دائرة صلاحيته وتصرفه، ولكن حركة الفلسفة في هذا الميدان الواسع كانت بطيئة، وأظهرت عجزها في كثير من الأمور، وأما الدين فهو أعلى مرتبة من الفلسفة وأسمى، حيث بين بعض المطالب الفكرية والإدراكية في المجتمع عجزت الفلسفة ضمن معادلاتها عن بيانها.

وبما أن الفلسفة عاجزة عن بيان حقيقة عالم الخلقة، والله، وما وراء الطبيعة، وحالات الإنسان ما بعد الموت، وعالم النشأة بعد الموت، إضافة إلى عجزها عن بيان عوالم الروح وبقائها، يبرز الفكر الديني المشرق لمعالجة جهل البشر بالنسبة لهذه الأمور، ليوضح الحقائق وما وراء الطبيعة بمقدار ما يتحمله الفكر البشري وإدراكه.

إن الدين ومن خلال البراهين والإستدلالات المتينة يوصل الإنسان إلى الإيمان والإعتقاد بأقوال الدين وفكره، وبأحكامه وقوانينه، ورسالاته وكتبه كلها الصادرة من الله.

وعندما يرى العالَم المدني أن الدين الحقيقي هو الحاكم في مؤسسات المجتمع منذ بداية تكونها، وأن أفراد المجتمع قبلوا به بوحي من الغريزة الذاتية، وتمسكوا به بقلوبهم وأرواحهم، ويرون أن التوسل به لازم وواجب لخلود حياتهم، وللحياة في عالم ما بعد النشأة، ويرون بوضوح أن نفوذ الدين الحقيقي

وحكومته أكثر من مظاهر التمدن البشري، وأينما يعجز العلم والفلسفة يأتي الدين لتقديم المعونة والمساعدة لهم، ويجب القول مع هذا الفرض المسلم و الأصل المبرهن: أن حضور الدين في المجتمع لازم وضروري، وهو أفضل دواء وعلاج للنظام العام، ولتأمين السعادة الواقعية في المجتمع.

١- يجب في قانون الحكومة الدينية أن يتضمن الجوانب المعنوية المشرقة، ويلحظ خصوصيات الروح وبقائها.

إن موضوع الجانب المعنوي وبقاء الروح أصل ثابت، وغير قابل للتغيير، ولا يمكن انكاره، وهو مؤثر في سلامة الدين وحجيته، ولا يمكن أبداً لحكومة أن تقوم بإسم الدين، وتدعو جميع البشر إلى لواء الوحدة والإتحاد والإعتصام، وأنها تمثل حكومة الله وقوانينه لتقديمها إلى أهل الدنيا، ولكن تكون فارغة من الأمور المعنويات، ولا تلحظ توجهات بقاء الروح، واحتياجات النفس الإنسانية الناطقة، ولا تملك جواباً لأنين الروح، ولا تستطيع إيصال العاشقين للمبادئ العالية إلى منازلهم، أي أن يكون دينها هو مجرد قوانين جامدة وبلا روح، ووظيفتها تعليم البشر ألف باء الأمور المادية، وتدعو الأفراد للطاعة والإنقياد لجني المكاسب المالية والدنيوية فقط.

الإنسان مركب من جسم و روح، وكما أنه بحاجة إلى رفع احتياجاته المادية والجسمانية، يريد أن يروي عطش روحه بما يروي الحياة المعنوية، ويعطر نفسه الناطقة بشذى النسيم، لتتغذى الروح بالروح المعطرة، وتحتاج في هذا المجال أيضاً إلى مركب السعادة لتحلق في سماء الحقائق والمعنويات، ولأجل هذا الهدف نحتاج إلى قانون يرتوي من نبع فياض بالمعنويات، لأن أقدام هؤلاء متورطة في المستنقعات الآسنة للمادية، التي تصدر منها الروائح الكريهة، الذين

لا هم لهم إلا الشرب من كأس الهوى والهوس.

والشخص الذي لا يعتقد بوجود الروح، في الوقت الذي تعتبر مسألة الروح من الأمور المسلمة، ولا يستطيع درك هذه الحقيقة غير القابلة للإنكار، كيف يمكنه وضع قانون يؤمن فيه مصالح الروح، ويضمن رعاية حقوقها.

إذن فخالق الروح وظاهرة المعنويات والنفس الناطقة، هو القادر على معرفة قيمتها لا غير، وهو العارف بمشربها واحتياجاتها في وضع القانون، حيث يشرع القانون الذي يخاطب الوجدان والروح والنفس، والقانون الوحيد الذي يراعي احتياجات الإنسان من حيث الكيف والكم، ومن حيث الزمان والمكان، هو القانون الديني الحق حصراً، ومصداقه الوحيد هو الإسلام.

٢- إن الأمن الواقعي للمجتمع الفاضل، وبقاءه الحقيقي يعتمد على ثلاثة أصول، وبدون هذه الأصول والتنسيق فيما بينها لن يرى المجتمع التطور والسعادة، ولن يبقى وصف الفضيلة فيه قائماً، وهذه الأصول هي عبارة عن:

- أولاً: الدين: إن المجتمع الذي لا يخضع للمقررات الدينية والقوانين السماوية، ولا يؤمن لأفراده الحماية، ولا يعين حدود حقوقه وواجباته هذا المجتمع لن يعرف الأمن والإستقرار، فالمجتمع بحاجة إلى قانون مؤسس على على العقيدة والإيمان الواقعي الصادق، وهذا القانون هو الأحكام الإلهية والأوامر السماوية.

- ثانياً: العلم: يجب أن يبتني الدين على الإيمان والعقيدة، وهذه العقيدة يجب أن تكون نابعة من العقل والعلم، والشخص الغارق في العمى والمقلد لا يقبل الدين، فيجب أن يبني دينه على أساس العقل والعلم الصادق، فالدين الذي له مكان في ساحة العقل، تتقوى أسسه بالعلم والمعرفة، وأن المجتمع السعيد و

مجتمع المدينة الفاضلة هو الذي يرفع راية العلم والمعرفة، ويدعو أفراده إلى ذلك ويؤكد على تحصيله، وأينما يكون العلم فاجمع نفسك حوله ـ كما تفعل الفراشةـ لتستضيئ من شعاعه، وتستهدي بنوره، حتى تعيش تحت ظل خيمة العلم والمعرفة، لهذا يجب أن تنبع القوانين الحاكمة من عين العلم والعقل ونداء الوجدان، والأوامر الإلهية، فذات الفرد والمجتمع بحاجة لهذا النوع من القانون، أي القانون المعتمد على العلم والعقل، وهذا القانون النابع من القرآن والسنة هو الإسلام.

- ثالثاً، العمل: يحتاج الدين والعلم إلى العمل، والفكر القيم ما اقترن بالعمل، وأن الدين والعلم بدون العمل كالبئر بلا ماء، والشجر بلا ثمر، والبذر في أعماق الأرض بدون نور الشمس، وهذا النوع من الفكر لا فائدة له ولا جدوى من ورائه.

ويجب أن ينضم العمل إلى الدين والعلم ليحلقا في سماء الحياة المعنوية والسعادة الفردية والإجتماعية، وبشكل مختصر: إن المجتمع يكون سعيداً عندما يكون قريناً للأصول الثلاثة، والأصل الأصيل من هذه الثلاثة هو الدين، والدين هو ملجأ للأصلين الآخرين، ولا شك أن الدين بهذه المواصفات لايبحث عنه إلا في قاموس الوحي.

٣- لقد أثبتت التجارب أن المجتمعات لا تستطيع البقاء بدون الدين، حتى أن بعض المجموعات في الدول الماركسية بعد الحرب العالمية الثانية اذ عنت لهذه الحقيقة، ورفعت بعض القيود إلى حد ما، حتى أن أصوات الأذان بدأت تصل الأسماع من خلال أجهزة المذياع في كل من طاجيكستان والقفقاز وتركمنستان، وثمة مجاميع من أهالي جمهورية روسيا السابقة والصين وبلغاريا

تشاهد في صفوف الحجاج، وفي أمريكا لا تفكير لهم إلا بالدولار، وأذهانهم مشغولة بجمع المال وكسبه أكثر من التوجه إلى الله، ومع ذلك تجد الكنائس تغص بزوارها أيام الأحد، وتصرف ملايين الدولارات للجمعيات الدينية، وأخيراً بدأت حركة باتجاه الإسلام، وبعد التحقيق والمطالعة في مبانيه تزينوا بزينة هذا الدين الإلهي.

ومما لا شك فيه أن سحب الظلام والضلال سترتفع عن أفق الحياة البشرية عندما تصبح الحكومة الدينية بمعناها الواقعي هي المظلة التي يستظلون بها، وتكون نظرة جميع البشر لهذه القوانين السماوية نظرة إحترام وتعظيم، وأن يلتزموا بها في مقام العمل، وهذا الزمان ليس ببعيد، وقد أخبر القرآن الكريم والروايات بشكل قاطع عن هذا الزمان.

حقيقة الدين:

الدين هو حبل الإتصال بين الخلق وخالق الجميع، وبهذه الوسيلة ترتبط جميع موجودات عالم الخلقة بمبدئها حيث القرب والبعد والإتصال مبني على قابلية كل موجود واستعداده وسعته، وأينما كان هناك وجود فهناك ارتباط، و في حالة غياب وجود لا أثر للإرتباط، وهذا هو معنى ارتباط الحادث بالقديم.

أنظر إلى دوران الكواكب والمجرات المثير!! ويقولون: أنها من أثر التجاذب، حيث لا وجود للحبل أو السلاسل المحسوسة للإتصال فيما يبنها، ولكنها مرتبطة ببعضها البعض بشكل عجيب، وهذا الإتصال الواقع فيما بينها يربطها جميعاً بالمبدأ الأصلي.

هذا مثال تقريبي لإرتباط الحادث بالقديم، وبالنتيجة ارتباطه بالخالق ضمن

قالب الألفاظ، ولا يمكن بيان ذلك بأكثر من هذه البساطة، وبقية المهمة تعتمد على الرؤية، وهذا العمل العظيم مرتبط بمرادك الحقيقي وفضل الباري تعالى.

ولا يوجد في بقية الموجودات ضعف وقوة في الإرتباط، لأنها ليست مختارة، ويجب أن تطوي سيرها التكاملي وفق ما هو مقدر لها، وعلى هذا يكون قلع فسيل الشجر من الأرض، وقطف الثمار التي لم تنضج بعد، وقتل الحيوانات المفيدة للتسلية والترفيه، ذنب ومعصية، فيجب تركها لتبلغ حد الكمال ثم يستفاد منها في الموارد اللازمة.

أما بالنسبة للبشر فالأمر مختلف وذلك بسبب جانب الإختيار الممنوح له، فإن شدة الإرتباط وضعفه متوقف على حسن الإختيار وسوء الإختيار، وعلى كل تقدير فإن الإرتباط غير قابل للإنقطاع متى ما أراد الإنسان، وبإمكانه أن يسعى إلى تقوية ارتباطه بالخالق جل وعلا فإن أبواب رحمته مفتوحة دائماً.

وهذا الإرتباط هو عبارة عن أمر لطيف مزروع في فطرة الإنسان بيد القدرة الإلهية، وبمجرد أن يتأمل أي انسان في نفسه يتضح الأمر جلياً، والإنسان يتوجه للغيب في بعض الأحيان أراد ذلك أو لم يرد، وهذا التوجه الدفعي والقهري ناشئ من قوة جذب مودعة في تكوينه، ولكن الغفلة وانشغال الحواس والهوس هو الذي يمنع الإنسان أن يغور في نفسه ويدقق فيها ليسألها: ما حقيقة هذه الحالة؟ ومن أين أتت؟ وكيف؟ وإلى من أتوجه؟

لقد نهض الأنبياءعليهم السلام من أجل إزالة حجاب الغفلة، حتى يذكّروك بأنك إنسان، وإن لك ميزة وموهبة عالية، فاعرف قدرها وقدر نفسك.

ويقول العارف: أيها الكسول إن في داخلك غرسة، وفي وجودها كمالك، أيها الجالس تحت ظل الشجرة، إجلس مع نفسك وتجرد.

وقال الخواجه حافظ عندما وصل إلى المقصود ببركة الهداية بعد سنين من البحث والمعاناة: لسنين مديدة كان القلب يطلب منا الحقيقة، وما لديه هو تمني من الغريب، عديم القلب كان الله معه في جميع الأحوال، ولكن لم يكن يراه، ويناديه من بعيد يا إلهي.

وقال المرحوم الحاج ملا هادي السبزواري بيتاً جمع فيه عصارة العلوم والمعارف: رأيت في المنام أني وجدت معشوقي، وكانت يدي على قلبي فقلت انهض.

﴿.. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[1]، فماذا يعني هذا؟ كيف يكون الله عز وجل أقرب إلي من وريد حياتي؟

الماء في الكوز وشفتنا قد جفت من العطش، موجود في بيتنا ونجول العالم بحثاً عنه.

ماذا يعني معرفة النفس؟ يعني اكتشاف حبل الإرتباط وإدراكه والعمل على تقويته، وليس المقصود معرفة الأذن والجلد والعروق والقدم والطحال والكلية والكبد والمعدة والرئتين.

وبعضهم أدرك هذا الإرتباط وهذه العلاقة، وعمل على تقويتها، وتخلصوا من مظاهر الزينة والكماليات والقيود والأغلال، هؤلاء هم العرفاء الحقيقيون، أما أكثر الناس فهم تائهون في عالم المادة، وغارقون في عالم الحيوانية، يقول الشيخ سعدي في هذا المعنى: مادمت لم تعرف نفسك فحياتك بقرب العرفاء حياة حقيرة.

إن وظيفة الأنبياء والرسل عليهم السلام هي إخبار وإبلاغ القاصدين الى الله فقط،

١- ق ٥٠: ١٦.

وليس ايجاد الدين، لإن الدين ممتزج مع الفطرة، والقوانين الموضوعة إما للتعديل والإصلاح وإما لتنظيم المعاش والأخلاق، لأن الهرج والمرج يوجب تشتت الذهن، وانشغاله عن التوجه للأمور المهمة، وإما للعبادة التي هي طريق للمعرفة بين النفس والله بواسطة التوجه والإخلاص في العمل.

وقليلاً ما نجد هذا المعنى اللطيف والسامي في الأديان المعروفة سوى القرآن الكريم، وقد ذكر هذا الكتاب بشكل صريح أن الدين هو الإرتباط الخاص، ويجب أن نصرف أذهاننا عن التفاسير المشوشة، ونتوجه إلى كلمات الوحي بالتأمل، حتى نتبع ما نستخلصه منها، فقد جاء في آية الكرسي التعبير عن الدين وعن ارتباط الخلق بالخالق:

﴿لاَ إكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بالله فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيْعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

يعني حبل متين غير قابل للإنقطاع والإنفصال، ولإجل التمسك بهذا الحبل هناك شرط واضح وبسيط وهو عبارة عن: عقد القلب بالله، والإعراض عن كل ما يوجب التمرد والعصيان والشرك.

ولا شك أن الإعتقاد بالدين لا إكراه فيه ولا اجبار، وهو متروك لإختيار الخلق، حتى أن الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية الوافية للهداية قد نسي أشعريته، وقال بالإختيار في الإتباع والإعراض عن الدين، ونقل أقوال علماء المعتزلة مثل أبو الحسن القفال وغيره في كتابه التفسير الكبير لتأييد مسألة الإختيار.

١- البقرة ٢: ٢٥٦.

وهذه الآية تشتمل على عدة أمور:

١- إن الجميع مختار في قبول الدين أو رده، لأن الوصول إلى الكمال بالقهر والإجبار لا كمال فيه حتماً، لأنه غير مستند إلى عمل الشخص نفسه، وهذه هي رؤية الإسلام أيضاً، وأما يقال أن الإسلام فرض على أتباعه بالسيف فهو من أقاويل و مفتريات المبشرّين المسيحيين المرتبطين بالسياسات الإستعمارية.

٢- الدين مثل الغرائز الفطرية، ليس من صنع البشر، لأن الله سبحانه وتعالى قد عجنه بعجينة الإنسان، ونفخة الرحمن و روح الإله المتعال، ولا يخلو أي بشر منه، وعليه لا يمكن فصله، نعم، ولكن كيف يمكن للبشر أن يصرفوا نظرهم عن هويتهم الأصلية!!

٣- إنه يجب وعي هذا الإرتباط المغروس في الإنسان والذي يمثل الحقيقة الإنسانية، والمائز بين هذا النوع والحيوان، أن تكون النية صافية وطاهرة، نية خالية من الشرك والنفاق، وإلا سيكون الوصول صعباً، لأن الله سبحانه وتعالى عالم وسميع. وقد أشارت سورة الروم المباركة لهذا الموضوع بشكل صريح:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّيْنُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إذن فالدين بنص القرآن الكريم طبعي وفطري، وقد ممتزج في تكوين البشر، ولا يستطيع الإنفصال عنه. وهذا هو الدين الحقيقي، وفلسفة إرسال الأنبياء لأجل تقوية هذه الرابطة ووعيها، ويجب أن يكون كذلك، لأن المقصود من

١- الروم ٣٠: ٣٠.

النبوة ووظيفتها الرسالية هي: توجه الخلق إلى أنفسهم وإلى الله، والأنبياء والرسل قد نهضوا لأداء هذا التكليف وهذه المهمة إلى حد التضحية بأرواحهم.

المعنى العرفاني للدين:

أول مراحل الدين المعرفة، والمعرفة مأخوذة من القرآن والسنة الموافقة للقرآن، وجمال المعرفة عشق الكمال المطلق، ونتيجة هذا العشق العمل بجميع ما يريده المعشوق، والإتصاف بصفاته.

الدين يعني صفاء الباطن، والوفاء بالعهد، والبصيرة في العمل وعاقبته، والإخلاص في العبادة، و مرافقة الأولياء والعاشقين.

الدين يعني التنفس لذكر الله ولأجل الله وفي طريق الله، وجلاء مرآة القلب بإطاعة أوامره والإبتعاد عن نواهيه ليتجلّي جمال الله في اعماقه.

الدين يعني العشق والعمل، العهد والوفاء بالعهد، العلم والصدق، الإستقامة والحق، الطهارة الظاهرية والطهارة الباطنية، حرمة كل شيئ يحول بين العاشق والمعشوق.

الدين يعني محبة العبد لله، وإطاعة الحق، ونتيجتها عشق الحق للعبد:

﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ الله﴾[1].

ولهذه الآية في الحقيقة رمز آخر وذوق وآخر يقول: قل لكل من تأثر قلبه بهذا الحديث، قل لمن خرج لأجلنا وكانت أعماله في سبيلنا، لا توثق قلبك بعقلك، لأن العقل حارس وليس مرشداً حتى تترك له العنان، وليس طريقاً لتمضي فيه، فلا تطلب ما تريد من العقل، بل اطلبه من النبوة، لأن العقل حجاب

١- آل عمران ٣: ٣١

لأحكام الدين، ولا تضع عزة الدين وكبرياءه في ميزان العقل، ولا تحضره في حيز الجوهر والعرض، فديننا هو نفس الدين الذي جاء به الأنبياء والرسل جميعاً. ويشهد القرآن العزيز على هذا الكلام حيث يقول:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾[١].

إن مراتب ديننا قائمة على أمرين: «**قال الله**» و «**قال رسول الله**»، وما جاء بإسم الدين من أهل البدع فهو من الجواهر والأعراض والفصول التي خلقتها عقول المتكلمين، ولا مصير لها إلا التلاشي والعدم.

ولا يوجد ذرة نقص في الدين ولا في السد العظيم للسنة، حتى جاء في خطاب رب العزة والجلال لأهل الإسلام:

﴿الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسْلامَ دِيْناً﴾[٢].

فبعد تنصيب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً وحاكماً على الأمة، أكتمل دينها، وأتم الله نعمته عليها، وجعل الإسلام لها ديناً تدين به.

فهذا ليس بكلام المتكلمين، ولا بفصول الفلاسفة وبيان العوارض والجواهر، ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ﴾ فقد جمعنا أرواح الخلائق قبل وجود العالم وأرض آدم بآلاف السنين، وأخذنا العهد والميثاق من أرواح

١- الشورى ٤٢: ١٣.

٢- المائدة ٥: ٣.

الأنبياء والرسل، ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ الله﴾ فكل من يريد خدمة صاحب هذه المملكة وحاكمية دولته و اليشدد اليوم حزامه للخدمة، وليقر بالعبودية، وهذا ما قاله رب العالمين حكاية عنه:

﴿... قَالُوا أقْرَرْنَا قَالَ فَأشْهَدُوا..﴾[1].

إذن فقد أخذناهم إلى عالم العدم جميعاً حتى يأتي عدة منهم إلى الميدان وفق القدرة والقضاء الربوبي ويذهبوا، فجاء النبي إبراهيم عليه السلام وذهب، وجاء النبي موسى عليه السلام وذهب، وجاء النبي عيسى عليه السلام وذهب، وعلى غرار هذا دفن عدة آلاف من الأنبياء تحت التراب، وبعد ذلك جاء النداء لمحمد: يا محمد الميدان خال والوقت وقتك، فضع قدمك في طريق الحق، لتسقط أربعة عشر شرفة من شرفات قصر كسرى، وتسقط ثلاثمئة وستون صنماً في الكعبة، ويأتي النداء من الجهات الأربع في العالم:﴿... جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ...﴾[2]، فاستقر جوهر النبوة على بساط العزة، وفاح عبير الرسالة في الأرجاء، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فأزاح النقاب عن وجه الجمال، ونثر في العالم الكلمات الجميلة المليئة بالدر والجواهر، وزينه بمكارم الأخلاق الحميدة وقال صلى الله عليه وآله:

«بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»[3].

١- آل عمران ٣: ٨١.

٢- اسراء ١٧: ٨١

٣- كنز العمال ١١: ٤٠٦.

وقال ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**»[١].

ويقول حبيب الله ﷺ: «**... وَاللهِ لا يَتَّبِعُنَا عَبْدٌ أبداً إلا أَحَبَّهُ الله..**»[٢]، ولا توجد حالة أفضل من الحب، ولا توجد أيام أجمل من أيام الحب.

وللحب ثلاث مراتب:

الهوى: وهي صفة للنفس، ومعناه الميل.

المحبة: وهي صفة للقلب.

العشق: وهوصفة للروح.

فالهوى قائم بالنفس، والمحبة قائمة بالقلب، والعشق قائم بالروح، والنفس لا تخلو من الهوى، والقلب لا يخلو من الحب، والروح لا تخلو من العشق، والعشق مأوى العاشق، وعاشق المأوى بلاء، والعشق عذاب العاشق، وعاشق العذاب بلاء.

وينقسم عشق الروح أيضاً إلى ثلاث مراتب: الصدق. والوله. والفناء.

إن صدق العارفين صدق، ووله الوالهين صدق، وفناء الفانين صدق.

فالصدق: هو أن كل ماتقوله تفعله، وأن كل ما يظهر منك موجود فيك، وأن تكون متواجداً في كل مكان تطلق فيه نداءك.

الوله: زوال العقل والتحير من شدة الوجد، فالنظر الدائم إلى المولى يجعل القلب هائماً، والفوز بالعطاء الكبير يعود إلى الطاعة.

والوله يكون في النفس الصادقة، وفي القلب وفي الروح أيضاً، لأن شراب العشق عندما يهيمن على العقل تصبح النفس ولهى، وعندما تهيمن المعرفة على

١- مستدرك الوسائل ١١: ١٨٧، باب٦، حديث١٢٧٠١.

٢- الكافي ٨: ١٤، حديث١.

المعلومات يصبح القلب والهاً، وعندما يهيمن الكشف على الإنس تصبح الروح ولهى، لأن ساقيها يتجلى ويبدأ بالوجود، وتصحو من ولهها.

أما الفناء فهو: هو الإضمحلال في المعشوق، من دون أن يتلوث بهذا العالم أو ذلك العالم، فدنياه وآخرته هو معشوقه، والمعشوق في العشق لقد وقع الفناء لم يعد هناك ثمة أنا و هو الدين هو التسليم لله لاغير، والدين هو أن لا يرى في نفسه شيئا، ولا يشاهد غير الله، الدين هو الحركة من الفراق إلى الوصال لا غير، الدين هو تصفية الباطن من الشرك الخفي، وتجميل النفس بالأخلاق الحميدة، وتزيين الأعضاء بالأعمال الصالحة.

لماذا لا نرى المعرفة التي هي جمال الإسلام؟ ونغرق بسبب ذلك في عبادة الأصنام، ونصبح من هؤلاء الذين قال فيهم القرآن الكريم: ﴿**هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً**...﴾[1]، حيث اتخذنا النفس الأمارة معبوداً، وهذا معنى الآية:﴿**أفَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ**...﴾[2].

ويمكن أن نرى جمال الإسلام عندما نتحرر من قيود الهوى باتجاه المعبود الإلهي، ماذا سيجني المسلم من عبادة الأصنام؟ فالإسلام هو بالإنقياد لله وعبادته، وعندما تعبد النفس والهوى فأنت لست عبداً لله، فاستمع لما يقوله النبي المصطفى ﷺ:

«مَا عُبِدَ تَحْتَ السَّمَاءِ أَلَهٌ أَبْغَضُ إلَى الله مِنْ الهَوَى »[3].

١- الكهف ١٨: ١٥.

٢- الجاثية ٤٥: ٢٣.

٣- تفسير القرطبي ١٦: ١٦٧.

وقال ﷺ في مورد آخر:

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ»[١].

وأنظر إلى ما يقوله إبراهيم الخليل عليه السلام في شكواه عن عبادة الأصنام:

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[٢].

خوفاً من أن يكون مشركاً:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

فبرأه الله من النفس وعبادة الهوى إلى أن شكر الله:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيْفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾[٤].

وعندما سلّم أمره للحق تعالى أصبح حنيفاً مسلماً..

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٥].

وفي مورد آخر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[٦].

١- بحار الانوار ٧٠: ٣١٩، باب ١٣٧.

٢- ابراهيم ١٤: ٣٥.

٣- البقرة ٢: ١٣٥.

٤- الأنعام ٦: ٧٩.

٥- فصلت ٤١: ٣٣.

٦- البقرة ٢: ٢٠٨.

فيا عزيزي: كن مصدقاً، فأول الدرجات التصديق، وأقل درجات التصديق: هي الباعثة على الإمتثال للأوامر والإجتناب عن النواهي، لأنه عندما يحصل هذا الباعث تكون حركات الإنسان وسكناته وفقاً لحكم الشرع، وبما أن أحكام الشرع محكمة وراسخة تقوم بهداية الإنسان إلى الطريق وترشده فإنه «**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**»[١] فنفس طاعة الأوامر الإلهية واجتناب النواهي تهدي الإنسان إلى سبيل الله:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

لأن هذه الهداية الناجمة من التصديق توجب اليقين، ويخبرنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن هذه الحالة:

«لَوْ كُشِفَ لِيَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيْناً»[٣].

ويصبح هذا التصديق مربياً لأهل الدين إذا كانوا في طريق الدين، ولأهل السلوك إذا كانوا في طريق السلوك، وللتصديق أثر كبير في التوجه نحو العمل الصالح، لأن العمل الصالح يوصل صاحبه إلى اليقين، وعندما يصل إلى اليقين **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾**[٤]، تتجلى أمامه الآخرة وأحوال ذلك العالم، ويتذوق علوم ذلك العالم ومعارفه.

١- النور ٢٤: ٥٤.

٢- العنكبوت ٢٩: ٦٩.

٣- غرر الحكم: ١١٩، حديث٢٠٨٦.

٤- ابراهيم ١٤: ٤٨.

حقيقة الدين وروحه:

يستفاد من آيات القرآن المجيد ـ التي تشير إلى حقائق عالية ـ والروايات والأخبار ـ التي توضح تلك الحقائق السماوية العالية ـ إلى أن حقيقة الدين عبارة عن التصديق، ومحبة التصديق، يعني التصديق بالله وجميع شؤونه كالنبوة، والقيامة، والإمامة، والملائكة، ومحبته، ومحبة جميع شؤونه.

وبالطبع يمكن اكتساب هذا التصديق واليقين عن طريق الفهم الواقعي للقرآن ورسالة الأنبياء عليهم السلام، والنظر في عالم الخلقة، لأن التصديق يفضي الى ثمرته و هي ظهور المحبة في الروح والقلب، وهذه المحبة تدفع الإنسان للقيام بالأعمال الصالحة التي يريدها المحبوب ويطلبها، وبشكل مختصر يجب القول: أن الدين هو عبارة عن اليقين والحب، فعندما يأتي اليقين والحب تأتي الأخلاق والعمل أيضاً، وعندما تأتي الأخلاق والعمل تأتي خيرات الدنيا والآخرة.

الدكتور محمد رفيع الدين أحد المفكرين الكبار في عصرنا، ولديه معرفة وإطلاع على الموازين العلمية في عصرنا الحديث، والمسائل الإسلامية، إضافة إلى توفيقه لمعرفته القرآن الكريم، حيث ألف كتاباً قيماً حول موضوع الدين، ونحن نقرأ قسماً مما كتبه حول حقيقة الدين فيقول:

إذا أردنا أن نبين جوهر التعاليم الإسلامية وروحها في كلمة واحدة فنستطيع القول أنها «العشق»، فالعشق هو أعلى مراتب الحب، ومن البديهي أن الحب بهذا المعنى يقوم بربط أفراد النوع بعضهم ببعض على نحو المربوط والمرتبط، ولكن العشق الذي هو الحد الأكمل والأعلى للحب يجب أن يكون لخالق هذا العالم وصفاته، ومن الواضح أن الكمال والجمال من الصفات المختصة بالخالق سبحانه وتعالى، حيث يتجه الإنسان نحو الجمال والكمال أراد ذلك أم لم يرده، ويجب

على الإنسان أن يتعلق عشقه بهذين المعنيين ومصداقهما وهو حضرة الحق حتى يصل إلى مطلوبه.

الإسلام يدعو جميع أفراد البشر إلى ترسيخ العشق في القلوب، على أن يكون هناك سعي ليكون هذا العشق خالصاً وصميمياً ومن القلب، بحيث لا يظل هذا العشق في حال الجمود أو الركود ولو للحظة، بل في ازدياد مستمر نحو ما هوأكثر كمالاً وإخلاصاً وصميمية. ويحتاج الإنسان لفهم حقيقة العشق وتربيته في القلب إلى التعرف على سالكي طريق الحقيقة، والعارفين بها، وعشاقها. كما أنه بحاجة للجواب عن سؤال: هل سيقوم بعمل اتجاه ظاهرة النبوة في العالم الطبيعي؟ وهل الإنسان بحاجة -حقاً- لتربية قلبه على فن العشق الكامل والخالد كما يدعوا إليه الأنبياء عليهم السلام؟

وفي مقام الجواب يجب القول بشكل قاطع: إن العشق الكامل والخالد إذا كان هدفاً يصبح عاملاً محركاً ودافعاً قوياً، وهو من أكثر الميول قوة، وأكثرها تأثيراً في النفس الإنسانية، بل في الحقيقة هو الميل الوحيد الموجود في طبيعة البشر وفطرتهم، والنبوة هي العامل الوحيد القادر على إرضاء الطبيعة البشرية بشكل جيد وصحيح، وعلى هذا فعامل النبوة ليس فقط المقصود الوحيد والمنظور في الطبيعة، بل أنه عامل ودافع لنظم الأشياء في الطبيعة غير قابل للإنفكاك، وكما يقول القرآن الكريم:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١].

ويحتاج هذا الموضوع إلى شيئ من التأمل والبحث في الطبيعة البشرية بشكل أكثر تفصيلاً، ليتضح أن هناك نوعين من الميول موجودين في فطرة الإنسان:

النوع الأول: الغرائز وهي ناشئة من الطبيعة الحيوانية للبشر، من قبيل الأكل، والعلاقة الجنسية، وحب الإستطلاع....، وتتميز هذه الميول بعدة خصائص:

١- يشترك فيها الإنسان والحيوان في جانب التكامل.

٢- يخضع الجانب الداخلي من الناحية البيولوجية لنوع من الضغوط أو الإجبار، والتي على أثرها يضطر أي حيوان لتلبية تلك الضغوط وإرضاء هذه الشهوات.

٣- إن إرضاء هذه الشهوة مقرون باللذة والراحة.

٤- إن إرضاء هذه الشهوات يعطي الحيوان طاقة وقوة بإمكانها أن تحافظ على سلامة جسمه ونموه، وبالتالي يحفظ نوعه ونسله من الإنقراض.

النوع الثاني: الميول الناشئة من الطبيعة والفطرة، وهي كالتالي:

الف: الميل نحو الهدف.

باء: الميل للعمل الأخلاقي.

جيم: الميل لإكتساب المعرفة، ومعرفة النفس.

دال: الميل للإبداع الفني.

وتتميز هذه الميول أيضاً بعدة خصائص منها:

١- الروم ٣٠: ٣٠.

١- اختصاصها بالإنسان، ولا تشاركه فيه بقية الحوانات، وهو الفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان، فالحيوان يعلم ويحس ويفكر فقط، أما الإنسان لا يعلم ويحس ويفكر، فحسب بل يعلم أنه يعلم ويعلم انه يحس ويعلم انه يفكر، وبعبارة أخرى إن الحيوان مخلوق لديه معرفة فقط، أما الإنسان فإنه يعي المعرفة بنفسه، وهذه الحقيقة هي التي توضيح التمايز بين طبائع الحيوان والإنسان. فالميول المختصة بالإنسان هي الميول المرتبطة بمعرفة النفس، أو ميول النفس أو الذات.

٢- هذه الميول من الناحية البيولوجية و علم الأحياء لا تخضع لأي تأثير ضاغط أو إجبار، فهذه الميول حرة، وتعلقها بالإنسان من الناحية النفسية صرفاً، لإن طريقة إرضائها على نحو ليس له جنبة بيولوجية، وليس له وضع معين ثابت.

٣- إن إرضاء أي نوع من الميول يمنح الشخص شعوراً بلذة معينة وخاصة، وفي كل مرة يحصل على نموذج أفضل وأصلح من ناحية الكم والمقدار والشدة سيشعر بسررور وارتياح أفضل وأصلح خاص ناشئ من أرضاء بعض الميول.

٤- إن أفضل أنواع هذه الميول وأعلاها هي التي تأتي بنفسها، وتكون تلبية لها، وإلا لا يوجد أي عامل فطري خاص مؤثر دخيل في تلبيتها.

٥- إنّ موضوع هذه الميول هو البحث واكتساب الجمال، وإلا فما هي النتيجة الحاصلة من الهدف غير كونه فكراً لشخص، يحتل مرتبة عالية من الجمال أو الكمال، وينسب هذا الفكر إليه، وما هو الهدف أيضاً من الأعمال الأخلاقية أو الحسنة غير بيان جمال أعمال الشخص؟

وكذلك إذا لم يكن هناك ميل لكسب المعرفة، ولا توجد رغبة وميل للحقيقة

التي نحبها ونحسنها ـ والتي هي جنبة من تجلي الجمال أيضاً ـ فما هي المعاني الأخرى الموجودة؟

ومسألة الفن لها نفس الحال، وإلا فما هو الفن لو لم يكن انعكاساً وتجسيداً للجمال وبيانه بوسيلة ما أو واسطة؟

وبشكل كلي يكون الفن عبارة عن تجسيد الجمال محدود في الحجر، أو الصوت، أو الألوان، أو الكلام، أو الحركة، وهو نتاج مجموعة من الأشخاص والأفراد لديهم موهبة خاصة، أو أنهم تعلموها وطورها حتى تمكنوا من تجسيد الجمال بالأنحاء المذكورة.

ولكن هناك نوع آخر من الفن، هو مورد اهتمام جميع الناس، وهو عبارة عن إبراز الجمال من خلال إسلوب الحياة، من قبيل التجميل والتزيين في الممتلكات والمحيط الخاص، أو في نوع الثياب التي تلبس، أو في كيفية تناول الأطعمة، أو طريقة المشي، أو الكلام، أو القراءة، أو الكتابة، أو السفر والسياحة، أو الرياضة واللعب، أوالإستعراض، وبشكل كلي في طريقة التصرف والتعامل.

فميل الإنسان للحصول على المقصود والهدف، له جانب نفسي صرف، وهو مسيطر على جميع الميول، بدليل أنه كلما تعاقبت الميول بعضها على بعض ولم تكن في طريق تحقيق الهدف والمقصود، وحصل خطأ في تحقيق الهدف، سيبقى الوضع على ماهو عليه، علم بذلك أو لم يعلم، وسيتجه نحو المجهول الغامض، إلى أن يستفاد منها في طريق تحقيق الهدف والوصول إليه.

والسبب في ذلك أن هناك علاقة بين الأمور الجميلة التي يحبها الإنسان وبين الهدف الذي يريد الوصول إليه أو تحقيقه، وهذا المعنى يشير إلى منشأ الإختلاف في القوانين الأخلاقية، والفلسفات المختلفة، والنظريات المتفرقة

حول كيفية الإستفادة من العلوم الطبيعية، وعلاقتها بالفنون المختلفة للوصول إلى الأهداف والمقاصد.

وعلى كل حال لا ينتهي البحث إلى هنا، فميل الإنسان نحو هدفه ومقصوده يسيطر عليه من الناحية النفسية أيضاً، وتصبح جميع ميوله تحت تصرفه.

أما الحيوان فتقع غرائزه تحت الضغط والإجبار من الناحية البيولوجية ولا يستطيع طردها أو تجنبها، ولكن الأمر في البشر مختلف، فلا يمكن إرضاء أي غريزة من الغرائز من دون أن يكون هناك أذن وترخيص من الهدف والغاية. بل يستطيع إرضاء غرائزه إلى الحد الذي يسمح له هدفه ومقصوده.

وعندما يجيز مقصود الإنسان للشخص أن يستمر في حياته، يجب أن يعمل بكل جهد ونشاط لإرضاء غرائزه على النحو الصحيح، ولكن عندما يكون المقصود على حالة أخرى، فإنه لا يهتم لغرائزه ولا يعتني بها، بل حتى يصل إلى استعداده للإنتحار.

وهذا المعنى له شواهد كثيرة لا تعد حول أشخاص واعين وأصحاب معرفة، حيث لم يولوا مشاعرهم الحيوانية أي اهتمام، فأدخلوا أنفسهم في مشقة وحرمان شديدين، وعرضوا حياتهم الى الخطر، ونزلوا إلى ميدان الحرب لأجل مقصودهم، وحصروا أنفسهم بالموت الدامي، وقدموا أرواحهم لأجله.

فالوقوف أمام هذه الميول، أو الحد منها، يؤدي إلى تضعيف شخصية الإنسان وتحطيمها، وموجب للحزن والقهر وعدم انتظام الجهاز العصبي، ولكن الإرضاء الكامل لهذه الميول موجب للسرور والإرتياح والرضا، إضافة إلى أنه كلما زاد عشق الإنسان بمقصوده أصبحت شخصيته أكثر توازناً واستعداداً وقوة وسمواً وشرفاً بنفس النسبة، وتصبح نفسه وخواطره أكثر كمالا.

ويتسبب هذا الهدف أو المعشوق في أغلب الأوقات للإنسان ببعض المشاق وهدر الطاقات، ويضعه في مواجهة مصائب عظيمة، مما يستدعي منه التضحية والفداء، ومن جملتها التضحية بالنفس، ومع هذه الحالة لا يمكن لأي عامل محرك وأي دافع من طبيعته القاسية أن يدفعه للخضوع، والإستمرار بالتضحية لأجله بأي قيمة كانت.

ولهذا نجد تاريخنا جميعه من كل الجهات والألوان سواءً السياسي منه أو الأخلاقي أو القضائي أو الفكري أو الإقتصادي منذ أقدم العصور إلى زماننا المعاصر ملطخ بالدماء، والمآسي الكبرى، ومليئ بالكآبة والضياع، في أغلب الأوقات وأكثرها. وليس ذلك إلا لأجل إرضاء شغف البشر لتحقيق أهدافهم، وقد أثبت التاريخ ذلك ودوّنه.

وهنا يطرح تساؤل، فنقول: ماهي الصفات الأساسية والخصائص الأصيلة التي يجب أن تتوفر في الهدف أو المعشوق الذي يريد كل إنسان تحقيقه أو الوصول إليه؟

والجواب على هذا السؤال ممتزج في طبيعة وماهية الدوافع المشخصة لصاحب الهدف والغاية، بمعنى إنه يجب أن يتصف الهدف أو المعشوق الذي يبحث عنه صاحب الهدف أو العاشق بأعلى مراتب الكمال والجمال حتى يتمكن من إرضائه، وبعبارة أخرى يجب أن يكون الهدف أو المعشوق:

١- منزها عن كل عيب أو نقص يمكن تصوره.

٢- أن تتوفر فيه الحدود العليا من الصفات والإمتيازات التي يمكننا أن نجعلها مقصودنا، وقابلة للتمجيد، ونراها جميلة.

فالنقص عدو العشق، ولأجل هذا فإن أقل نقص يوجد في المعشوق أو فقدان أي عنصر من عناصر الجمال فيه سيؤدي إلى تبدل العشق إلى بغض وكراهية.

لأنه من الممكن أن يكوّن الشخص علاقة بمعشوق قبيح أو ناقص، إلى الحد الذي يستطيع فيه أن ينسب إليه كل صفات الجمال والكمال التي يتصورها، حتى يصل إلى خداع نفسه فيقول: إن معشوقه في الحقيقة تتوفر فيه جميع الصفات المطلوبة.

ويستطيع البشر من خلال ضم هذه القضية الصغرى إلى الكبرى الكلية[1] أن يدرك ويستنتج بسهولة الصفات الخاصة التي يجب أن تكون في الهدف أو المعشوق، فمثلاً، يجب أن يكون جمال معشوق الإنسان غير محدود وخالد، لأن الشخص عندما يعلم أن جمال معشوقه له حد ونهاية، وأنه لا يستطيع تجاوز ذلك الحد، فيعني هذا أنه يعتقد أن في معشوقه جزءً أو جنبة قبيحة، وكذلك إذا علم أن جمال معشوقه سينتهي يوماً ما، فإنه سيرى قبح معشوقه وعدم جماله في نفس اللحظة.

ويجب أن يكون المعشوق حياً، فالإنسان لا يستطيع أن يتصور رؤية معشوقه شيئاً ميتاً وبلا روح، لأن الإنسان نفسه مخلوق حي، فلا يستطيع التفكير في شيئ لا يرى فيه روحاً، وبالملازمة يكون أقل منه مرتبة، ويقوم بتمجيده وعبادته إلى حد التضحية في سبيله، والقيام بخدمته.

ومن خلال ما مضى يظهر أنه يجب أن تكون حياة معشوقه خالدة أبدية مثل جماله وكماله، لأنه إذا علم أن معشوقه سيموت يوماً، فسيشعر تباعاً أن معشوقه من هذا اليوم هو ميت بالقوة، ولا ينتهي الموضوع إلى هنا، بل أن معشوق الإنسان يجب أن يكون متصفاً بجميع صفات الجمال الحياتية التي يأنس الشخص فيها لتلك المعاني. وبهذا المعنى يجب أن يكون معشوقه يسمع ويرى

---

[1]- مصطلاحات منطقية.

ويشعر، ولديه عشق، ويجيب، إضافة إلى أنه يجب أن يكون لديه قصد ونية حتى يتم تحقيقها في عالم البشرية، ولديه قدرة ليجعلها عملية، ويقدم العون والتوفيق لأجل ذلك القصد وتلك النية.

وبعبارة أخرى: يجب أن يكون لديه حب وبغض، وأن تكون لديه قدرة على الترغيب والتشويق لما يريده ويقبله، وطرد وإزلة ما لا يريده ولا يقبله، ويستطيع أن يثيب من يعشقونه ويلبون نداءه. ويعاقب أعداءه ومخالفيه.

وخلاصة الكلام هي: إنه يجب أن تتوفر في المعشوق كل صفات الحب والبغض، والتي يستفاد منها في تنفيذ مقاصده، وإذا لم تتوفر في المعشوق أحد هذه الصفات، وكان العاشق مطلعاً على هذا النقص، فمن غير الممكن أن يتعلق به ويحبه، ويكون في خدمته.

العشق يجبر العاشق على أن يكون في خدمة معشوقه، وموضوع هذا العمل، هو أن يكون العمل المأتي به مورداً لثناء المعشوق وترحيبه، وأن يسعى دائماً لجذب لطف معشوقه، وأن يتقرب إلى ساحته، ولا يوجد هناك معنى آخر لوجود المعشوق أو عشقه غير بذل الجهد في سبيله وخدمته، وفي النتيجة التقرب إليه أكثر مما مضى، ليكون من المقربين، وأما إذا كان هدف الإنسان أو معشوقه لا يتصف بصفة الحب والبغض، فلن يكون هناك مقياس ومعيار دقيق للعمل به في تشخيص الصحيح عن الخطأ، والسليم عن غيره، أو لم يكن لمعشوقه قصد أو نية فلن يستطيع العاشق أن يتعاون مع معشوقه في أعماله، أو أن يكون في خدمة أوامر معشوقه.

إذن وبناء على ما مضى، فإنه إن لم تكن هناك مقاصد معينة، وأهدافاً مشخصة، فكيف يعرف العاشق ما هي وظائفه تجاه معشوقه؟ لأن الإنسان يريد

أن يعرف العمل الذي يجب أن يعمله في سبيل معشوقه، وكيف يؤديه، ولا يمكن أن يكون راضياً ومسروراً عن عشق لا يترجمه العمل، ولو فرضنا أن معشوقه فاقد لحاسة السمع والبصر، وعديم الإحساس، ولا علم له ولافهم، أو أن العاشق يتصور أن معشوقه لا يستطيع الإستجابة له فيما يريده في سبيل خدمة معشوقه، فمن المؤكد لن يكون العاشق راضياً على ما قام به من عمل، وبالتالي لن يكون هناك موجب وسبب للإستمرار في أداء الأعمال.

وفي الواقع الأمر، ليس كل أمر يراه الإنسان فضيلة يكون حقيقة في ثواب الأعمال، بل أن ثواب عمل الإنسان في اطمئنان الخاطر دوماً، وأعماله تكون مورداً لقبول معشوقه وتأييده.

ومن الأمور المسلمة أيضاً هي أن الشخصية المعشوقة التي يتصورها الإنسان العاشق لابد أن تكون قوية ومقتدرة، لأن الإنسان إذا احتمل أن معشوقه فاقد للقدرة على مكافأة مريديه ومحبيه، ومحاكمة أعدائه ومبغضيه، فإن هذا الإحساس سيشعره أن عشقه لهذا المعشوق وخدمته لا قيمة لها ولا فائدة منها، وذلك بدليل أن العاشق عندما يبذل كل جهده وسعيه في سبيل تغيير أوضاع العالم لتصبح وفق مراد المعشوق، وبعبارة أخرى ليصلح العالم، وفي المقابل يرى كيف يبذل أعداء المعشوق الجهود والمساعي لتخريب وتدمير كل ما بناه العشاق بسهولة ومن دون أي قلق، يشعر بضعف معشوقه وعجزه، وأن هذا العشق لا يستحق التضحية من أجله.

وهناك أمر آخر وهو أن معشوق الإنسان لابد أن يكون في أعلى مراتب الكمال، ويتصف بجميع الصفات الأخلاقية الحميدة والحسنة، لأننا قد ذكرنا سابقاً أن هذه الصفات مطلوبة ومقبولة، فكلما تصور العاشق أن معشوقه فاقد لأحدى تلك

الصفات، فليعلم بأن معشوقه ناقص، وعليه تجنب الإرتباط به وعشقه.

ولابد ـ بغض النظر عن جميع تلك المعاني والمفاهيم ـ من كون المعشوق لا نظير له ولا مثيل، ولا يوجد له شريك، لإنه إذا تصور الشخص العاشق أن هناك معشوقاً آخر، يشترك مع معشوقه في نفس الصفات فلا محيص من تعلقه وارتباطه بمعشوقين في آن واحد، وهذا الأمر مناف لطبيعة البشر وفطرته وغير ممكن، إضافة إلى أن العاشق لو فرض أن وجود هذا العالم ووجوده اللذين هما جزء من أجزاء هذا الكون قد وجدا بنفسيهما من دون أن يكون لمعشوقه أي إرادة أو إشراف، سيشعر بالطبع بدنو مرتبة معشوقه أو على الأقل أو نظير له، وفي هذه الحالة لن يبقى في كيانه دافع لعشق معشوقه، أو تمجيده، أو تقديسه، أو تكريمه، أو تعظيمه، أو عبادته، أو خدمته.

وعلى كل حال فإن هاتين الصفتين المشخصتين الجمال والكمال تستلزمان صفات أخرى لا عد لها ولا حصر، حيث تشخص بنفس الطريقة.

ويتضح مما تقدم أن العشق والإرتباط بشخصية أخلاقية تتميز بالقدرة والقوة، والمحركية والإرشاد موجود في أصل الإنسان وفطرته هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن أن نجد بياناً وتوضيحاً عن ماهية العالم، يمكن تطبيقه مع الحقيقة من جميع الحيثيات أكثر إقناعاً من القول:

إن حقيقة العالم هي عبارة عن: وجود ذات مستقلة ذات شعور واقتدار وخلاقية، تتصف بجميع الصفات الجمالية والكمالية، وهي الغاية التي ينشدها النوع البشري طوال التاريخ، يعني أن الغاية والهدف الصحيح، والمعشوق الواقعي للبشر هو هذا العالم، وهذه هي الحقيقة التي كان يؤكد عليها

الأنبياء عليهم السلام، ولأجل هذا كانت رسالة الأنبياء عليهم السلام تنطلق وتبدأ بهذه الكلمات « لا إله إلا الله » وتنتهي أيضاً بهذه الكلمات، وبناء على ما ذكره القرآن الكريم فإن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله قد أعلن للناس:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

ووفق التعاليم القرآنية فإنه لا يوجد فرق في إطلاق لفظ «الله» أو أي لفظ آخر على الخالق، ولكن المهم فيه أن يكون واجداً لجميع هذه الخصوصيات، و متصفاً بجميع الصفات الجمالية والكمالية والرفعة والعلو، ولا مثيل له في هذه الصفات والخصوصيات، يقول القرآن الكريم:

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[2].

وفي مورد آخر يقول:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[3].

نعم، وهذا هو معنى الدين، وجوهره العشق، وهو عشق معشوق تكون صفات الجمال والجلال فيه كاملة، والإنسان في مقام العبودية والعبادة يسلم أمره

١- البقرة ٢: ٢١.

٢- الاسراء ١٧: ١١٠.

٣- الاعراف ٧: ١٨٠.

للمعشوق بسبب هذا العشق.

الدين هو الإسلام:

عندما ندقق في جميع الأديان نرى أن أكثر الأديان وضوحاً في تلبية جميع احتياجات الإنسان المادية والمعنوية، وفي تأمين خيرات الدنيا والآخرة هو البرنامج الذي جاء مؤلفاً من القرآن وأحاديث، النبي محمدﷺ والأئمةعليهم السلام المبلغون له، وهو المعبر عنه بالإسلام.

الدين الإسلامي هو عبارة عن مجموعة من المسائل العقائدية، والآداب والأحكام، وضعها خالق العالم بين يدي الإنسان لهدايته نحو الرشد والكمال، وأن حقيقة الإسلام وذاته كما يستفاد من الآيات القرآنية، هي التسليم، أي تسليم الإنسان نفسه لله، والسير في طريق الله، وطاعته والإنقياد له فيما أمر به ونهى عنه من صميم قلبه، وعليه فإن المسلم والمتدين بالدين الإسلامي هو الذي يتوجه إلى الله بكل كيانه ووجوده، ويكون الله مقصوده في جميع أعماله، وهو العامل المؤثر في وجود الأفكار والحركات لا غير، ولا يتخذ معبوداً غيره، وتكون عبادته لله بنية خالصة، وأن لا تتلوث عبادته لله بأي شائبة من هوى النفس والتقليد والتعصب غير المبرر، وأن لا يسعى في ايجاد التفرقة بين المسلمين.

أنظر إلى القرآن الكريم، حيث يقول في مقام تعليم المسلمين ماذا يجب أن يقولوا لليهود والنصارى في وصف الإسلام:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ

إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[1].

يطلق على مجموعة القوانين والبرامج التي نزلت على نبي الإسلام العظيمﷺ الإسلام، لأن هذه المجموعة تدعو الناس إلى التوحيد الخالص من أي شائبة للشرك وعبادة الأوثان، وإلى تسبيح الله وتنزيهه على النحو اللائق لمقامه المقدس الأعلى، ويعلّم الإنسان بأن تكون نيته في جميع أعماله سواء كانت عبادية أو غير عبادية خالصة لله، فإذا التزم جميع الناس بهذا الطريق الطاهر، فسيحصلون على جميع حقوقهم، وسيكونون مصونين من أي تجاوز على حقوق الآخرين، يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ

١- البقرة ٢: ١٣٥- ١٣٩.

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

الإسلام دين جامع لجميع جوانب الحياة البشرية، من تهذيب الأخلاق والتربية المنزلية إلى إدارة البلاد، والعلاقات الإجتماعية كلها، وجميع القوانين العملية المفيدة، وكل هذه الأنظمة والقوانين مندرجة تحت طاعة الله والتسليم لذاته المقدسة، بمعنى أن على الناس أولاً أن يعتقدوا بالله ويتوجهوا إليه بإخلاص، وفي ضمن هذا الإخلاص يكون المقصود من أداء أنواع التكاليف العملية المعينة لهم والتي لها دور في تربية الإنسان، وفي جميع الإعمال هو الله سبحانه وتعالى، ولأجل كسب رضا الله وإدراك الحقيقة، حيث نقرأ ما جاء في القرآن الكريم حول هذا الموضوع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٢].

الإسلام حقيقة عرضت على الإنسان منذ بداية الحياة البشرية لتؤمّن له خير

١- الانعام ٦: ١٦١ـ١٦٣.

٢- الحج ٢٢: ٧٧ـ٧٨.

الدنيا والآخرة، وهذه الحقيقة لا تتجلى إلا من جهة الله سبحانه وتعالى، والتي تنعكس على مرآة قلوب الأنبياء عليهم السلام، وهؤلاء مكلفون من قبل الله بدعوة الناس إليها.

ومما لا شك فيه أن قوانين هذه الحقيقة وقواعدها تبين للناس في كل مرحلة بما يتناسب مع احتياجات الناس ومستلزماتهم الحياتية، والتي تتحرك بشكل تدريجي نحو ظهور الكمال الكلي، إلى أن بُعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله بالرسالة، حيث تجلى الإسلام في ذلك الزمان ليشمل جميع الجوانب، وبشكل كامل وجامع في صورة القرآن والسنة، تلك السنة التي أشرقت من القلب الطاهر للنبي صلى الله عليه وآله، ومن القلب الصافي للأئمة عليهم السلام على أرض الحياة.

إن الإسلام بمعنى التسليم التام في مقابل الله وإطاعة أوامره يوجب السعادة الحقيقية، وهي لا تختص بالإنسان فقط، بل أن الدين شامل لجميع الموجودات في العالم، وإن جميع المخلوقات بحسب طبيعة خلقتها هي مطيعة لخالقها جلّ وعلا، وأن كل نوع من هذه الموجودات لها أحكام خاصة معينة من قبل الله سبحانه وتعالى سواء كانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً، فكل موجود يأتي إلى هذا العالم وفقاً لتلك الأحكام، وتستمر في وجودها على وفقها من دون أن تضل، بل لا يمكن أن تضل، بحيث لو أراد شخص أن يجبر ذلك الجماد أو النبات أو يلزمه بأن يتحرك على خلاف القانون الإلهي، فإن هذا الموجود سيقاوم كل ذلك حتى وإن إستلزم القضاء على أصل وجوده، أو أن يرفع المجبر يده عن أعماله، والإنسان أيضاً يسير وفق ما قرره الله في خلقته وحياته، في وجوده وبقائه، ولكن بما أن الإنسان موجود جامع ولديه إرادة وعقل، جعل الخالق الرحيم أحكاماً خاصة لعقل الإنسان وإرادته، وعليه التسليم لهذه الأحكام، ويتبعها باختياره، فما كان مناسباً لحكم الطبع والخلقة مثل بقية الحيوانات

فتسليمه بالإجبار، وما كان في مقام العقل والإرادة فتسليمه بالإختيار، ويقول القرآن الكريم في هذا المجال:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[١].

وعلى كل حال ان ما يستفاد من الآيات القرآنية في معنى الإسلام هو: تسليم الإنسان لله، بحيث تكون جميع حركاته وسكناته وفق الأحكام التي عينها الحق تعالى، وأن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يدعون الناس إلى هذه الحقيقة.

خصوصيات الإسلام:

إن من أمهات المسائل الجوهرية والأساسية المطروحة في الإسلام مسألة التوحيد في جانبيه: النظري والعملي. وبعبارة أخرى إن من أهم الأصول الإسلامية هو الإعتقاد بوحدانية الحق وإجراء جميع الأحكام عشقاً له، ولأجله فقط لا غير. ويجب أن يكون معلوماً إن الآيات والروايات تؤكد على التوحيد العملي، بمعنى أن أداء أي عمل لابد أن يكون لكسب رضا المحبوب فقط، لأن أصعب معبر للتوحيد هو في هذه المرحلة.

التوحيد النظري:

إن توجيه الناس إلى التوحيد النظري ليس أمراً صعباً بالنسبة للإنبياء عليهم السلام، ونفي الشرك عن الصورة الطاهرة للتوحيد النظري أمر سهل، فالأنبياء عليهم السلام يرشدون الناس إلى التوحيد النظري عن طريق الفطرة البشرية، وببيان الإستدلال

١- آل عمران ٣: ٨٣.

والبرهان والحجج في مقابل العقل، ولكن إقامة التوحيد العملي كانت تأخذ من الأنبياء عليهم السلام جهداً كبيراً.

إن إصلاح النفوس، وتأمين السلامة للأسرة في المجتمع، وإيجاد النظم والإنتظام ليس ميسراً إلا في ظل التوحيد العملي، وايصال الناس إلى هذه المرحلة ليس بالأمر الهين والسهل. ذلك أنّ جميع حروب البشر ونزاعاتهم وصراعاتهم مع الأنبياء عليهم السلام وأهل الحق انما تدور على هذه المسألة!!

ويجب القول في مسألة التوحيد النظري: أن الإسلام وهو الدين القويم، وهو حجة الله القوية، وهو صراط الله المستقيم، وهو دين الله الذي يبعث على الحياة، حيث يرى أن معنى التوحيد النظري هو: أن الله واحد، وهذه الحقيقة هي أصل ومبدأ ظهور جميع الموجودات، ولا يشبه أحد من مخلوقاته أبدا، كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[١].

وتدعو الآية في القسم الأول منها الإنسان إلى التوحيد النظري﴿لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾ ولا يستطيع الإنسان أن يثبت غير هذا.

والإسلام ينفي صفة الألوهية عن جميع الموجودات، ولا يرى هذه الحقيقة «العالم والحي والقيوم» في شيئ إلا الله، ويرى أنه لا يوجد موجود تحت عنوان إله سواء كان جسمانياً أو روحانياً، وسواء كان سماوياً أو أرضياً يتوجه إليه، كما

١- الانبياء ٢١: ٢٥.

يتوجه البشر إلى الله بحكم احتياجاتهم. ولا يوجد معتمد يتوجه إليه البشر غير الله سبحانه وتعالى، وهذه هي حقيقة الواحد الأزلي والأبدي، وخالق جميع الموجودات، ورب جميع العناصر والأجزاء في هذا الوجود الواسع.

إن الكلمة الأولى للإسلام هي الشهادة القلبية بأن«لا إله إلا الله» فهذه الكلمة تنفي الإلوهية عن غير الله مطلقاً، وتثبتها للذات المقدسة فقط. وتنادي الله بالواحد الصمد، أي الذي لا نظير له ولا مثيل وغير المحتاج، وهو أجلّ وأعلى من أن يشابهه أي مخلوق، أو أن يكون كما يتصوره البشر حتى يتمكنوا من ادراك ذاته، فشعار «الله أكبر» يعنى أن الله أكبر من أي شيئ ينسب إليه.

إن أصل التوحيد هو مركز ثقل الدين الإسلامي، وأهم أصل تنهض عليه جميع تعاليم هذا الدين القويم.

التوحيد العملي:

وأما التوحيد العملي: فمعناه اتخاذ الأوامر المرتبطة بشؤون الحياة في جميع جوانبها من الله سبحانه وتعالى. لأن عقل الإنسان من ناحية الفكر، وأعضاء الإنسان وجوارحه من ناحية العمل مبنيّان على التوحيد، وأن عناية الله ولطفه الذي لا نهاية له لا تقتصر على بناء الحياة الدنيا وإعمارها، بل تشمل حتى عالم ما بعد الدنيا، لينال الأجر الأبدي والثواب الخالد، ومن الخصوصيات الأخرى للشريعة المقدسة هو التوجه لإعطاء الأجر والثواب على الإيمان والعمل في العالم الآخر.

المعاد في الإسلام:

لقد قدم الإسلام مسألة المعاد بالإستناد على الدلائل المهمة، والبراهين القوية، بحيث لم يدع مجالا للشك عند أحد من العقلاء وأصحاب الفكر في قبوله والإعتقاد به، وذلك من خلال الآيات القرآنية، والروايات والأخبار، بحيث يمكن القول: إن الإعتقاد بهذا الأصل له تأثير في جميع حركات الإنسان لا يقل تأثيراً عن الإعتقاد بأصل التوحيد.

والإسلام صرح بموضوع المعاد بشكل قاطع وجدي ـ بمعنى حشر الأموات في العالم الآخر لمجازاتهم على الأعمال الحسنة والسيئة ـ ويقول بوجود الثواب والعقاب الدائم في عالم الآخرة.

والإسلام يصرح إن الوضع الفعلي للعالم لن يبقى كما هو بشكل دائم، بل إن هذه الأرض والسماء بنجومها والقمر والشمس سوف تفنى جميعها، وسيكون وضعها مختلفاً عما هي عليه، وبعد أن يتغير وضع العالم الحالي، سيحشر البشر في يوم يسمى يوم الجزاء، ليقف الجميع أمام المحكمة الإلهية الكبرى للحساب ـ بحيث لا يخفى عن علمه أي شيئ ـ فيجازي على الأعمال الحسنة والسيئة بدون زيادة أو نقصان، وقد بين القرآن الكريم هذا الموضوع المهم من جميع جوانبه في ألف وثلاثمئة آية.

والإسلام يرى أن أعمال الناس هي السبب في استحقاق الثواب والنجاة، ونيل العقاب والهلاك، من دون أن يكون هناك زيادة أو نقصان، يقول القرآن الكريم في هذا الموضوع:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ

مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

ويرى القرآن الكريم أنّ هناك وسيلتين للنجاة في يوم القيامة: الإيمان والعمل الصالح، حيث أشار إلى ذلك في آيات متعددة ومنها:

﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

ومن الخصوصيات المهمة الأخرى في الإسلام إلغاء الإمتيازات والإعتبارات المادية بين الناس، فجعل ملاك الإفضلية والإمتياز في الحسن الذاتي والصفات النفسية العالية، وأسقط كل اعتبار وامتياز للون والأصل والثروة والحسب والنسب والجمال والمقام، ولم يسمح لأحد أن يتاجر بهذه الأمور للإفتخار على الآخرين، فملاك الإمتياز والإفتخار في الإسلام بالتقوى والنقاء فقط، يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣].

إن الإسلام لا يرى أي امتياز لفرد أو طائفة تجاه الله، وكذلك لا وجود لأي خصوصية لفرد أو طائفة من الله سبحانه وتعالى.

١- الانعام ٦: ١٦٣.

٢- السجده ٣٢: ١٩.

٣- الحجرات ٤٩: ١٣.

ويرى الإسلام إن فائدة الدين هي اصلاح الناس، وصيانتهم وحفظهم من الفساد والإنحراف، وأن اللادينية تأخذ البشر نحو الضياع والشقاء.

ومن الأمور التي يتميز بها الإسلام: احترامه الشديد للحق والعدالة، فالحق والعدالة محفوظة أمام جميع البشر، وألزم المسلمين وأمرهم برعاية الحق والعدالة، ولم يجز لأحد أن يخرجه الغضب والكراهية تجاه مجموعة من الناس، أو المحبة والقرابة النسبية تجاه مجموعة أخرى عن ميزان الحق والعدالة، يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

ويقول في آية أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2].

تشريع القوانين في الإسلام:

١- المائدة ٥: ٨

٢- نساء ٤: ١٣٥.

ومن الخصوصيات الأخرى في الإسلام أيضاً أن قوانينه محكمة، فالإسلام فيه جانب تشريعي، أي وضع القوانين، ولكن وضع القوانين في هذا الدين مبني على أساس الحكمة، ويوافق مصالح حياة الناس في كل زمان.

وتتكون الأحكام الإسلامية من ثلاثة أقسام: الإعتقادات، التعاليم العبادية، القواعد الأخلاقية العليا، وقد شرعت هذه القوانين لحفظ نظام حياة الناس في المنزل وفي السوق وفي المجتمع و الدولة.

وقد راعى الإسلام في تشريعه للأحكام الحكمة ومصلحة البشر، وغالباً ما تشير الآيات القرآنية والروايات إلى حكمة تشريع الأحكام وفلسفتها، كما في جواب القرآن على هذيان البعض حيث قالوا: إن الربا مثل بقية المعاملات، فكما أن في البيع مثلاً يدفع المال لشراء بضاعة معينة، وثم نقوم ببيعها بسعر أغلى، لنكسب ربحاً وزيادة، كذلك الأمر في الربا، حيث ندفع مبلغاً معيناً وبعد مدة نسترده بأكثر مما دفعنا.

فيقول القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

١- البقرة ٢: ٢٧٥.

ومع هذا البيان يتضح للبشر حكمة تشريع الربا، ليعلم أن البيع والشراء ليس حراماً كالربا، أو أن الربا ليس حلالاً كالبيع والشراء.

وذلك لأن في الشراء والبيع هناك شخص دفع مالاً واشترى بضاعة، فأولاً: إن هذا الأمر تم بشكل عملي، وعمل الإنسان محترم، وله قيمة، وثانياً: إن في مقابل ماله لديه بضاعة، وبإمكانه أن يبيعها بأكثر مما اشتراها، أو بنفس القيمة، وفي بعض الأوقات بإمكانه أن يبيعها بأقل من ذلك.

وهذا بخلاف الربا فإنه يأخذ مالاً أكثر مقابل مدة من الزمن وليس في مقابل عمل معين، وكذلك من أخذ ديناراً وأعطى دينارين، فهو قد أعطى ديناراً من ماله بلا عوض في المقابل، ومع تكرار هذه الطريقة سيخسر جميع أمواله، وسيمتلك أكلة الربا أموال الآخرين من دون أن يكون في مقابلها أي إنتاج، أو تصنيع، أو استيراد بضائع أو غيرها، ولأجل حفظ ملكية الناس وكرامتهم أحلّ الله البيع وحرم الربا.

أو كما يبين أن في حكمة تشريع حكم القصاص انتظام الحياة الإجتماعية، وحفظ آداب المعيشة، وكل ما أوجبه الإسلام فلأجل وجود المصلحة في وجوبه، وكل ما حرمه على الناس ومنعه فلأجل وجود الضرر على الناس في تحريمه، ويسمى هذا النوع من التشريع تشريع محكم وذي حكمة.

ومن الخصوصيات الأخرى للإسلام موافقة جميع أحكامه وقوانينه للفطرة والطبيعة البشرية، وتلبيتها لإحتياجات الناس في حياتهم ومعيشتهم.

إن الإسلام في تشريعه للأحكام يلاحظ مقتضى الطبيعة البشرية، وخصائص الحياة في هذا العالم، فلا يشرع حكماً على خلاف طبيعة الحياة، وفي أي وقت

يكون الحكم فوق طاقة الإنسان، أو موجباً للحرج والعسر في الحياة يصبح ملغياً في حقه.

والإسلام إضافة إلى تشريعه الأحكام العبادية والأخلاقية، شرع قوانين متينة للزواج ونظام الأسرة، وكذلك لمختلف أنواع المعاملات، والصناعة والإنتاج، من قبيل الزراعة واستخراج المعادن والصيد والتجارة، وكذلك مجموعة من القوانين الخاصة بالحكومة والقضاء، وإطاعة الناس لأمر الحاكم العادل، وحكم القاضي الواجد للشروط، ومجموعة من القوانين المرتبطة بالحرب ووجوب الخدمة في الجيش، والخدمة العسكرية، كل ذلك بما يتناسب وحاجة المجتمع، وموافقة لمقتضى طبيعة الحياة، ولا يمكن غض النظر عن أي أمر من هذه الأمور، وقد حدّدت هذه التعاليم بشكل عادل وحكيم، وعلى نحو مفيد وموافق للمصلحة، فيجب الإجتناب عند تطبيق الأحكام تأثير الهوى والهوس، والإنجرار وراء الإغواءات الشيطانية.

والإسلام راعى مقدار طاقة الإنسان في جميع الأحكام، وسعى على تسهيل حياة الإنسان، حيث يقول القرآن الكريم:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١].

ومن الخصائص المهمة جداً في الإسلام أيضاً: مسألة الإجتهاد، لأن الدين الإسلامي عندما شرع أحكامه الموافقة للحكمة ومقتضى الطبيعة وعلى ميزان الحق والعدالة، منح العقلاء والعلماء وأهل المعرفة بالإسلام الحق في استخراج

١- بقره ٢: ٢٨٦.

واستنباط الأحكام الدينية بعد دراسة العلوم الدينية والفقهية، وهذا ما يطلق عليه «**حق الاجتهاد**».

وقد عين الفقه الإسلامي لإستخراج الأحكام واستنباطها أربعة أدلة، وهي عبارة عن: القرآن، والسنة، والإجماع، والعقل، فالشخص العالم بهذه المقدمات بإمكانه فهم و استنباط الحكم الشرعي في كل ما يواجهه و في كل زمان ومكان بعد مراجعة القرآن والسنة والإجماع وحكم العقل، وموافقة القوانين والموازين المقررة له، وبهذه الطريقة يكون الدين الإسلامي قابلاً للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان، وبالتالي لن يكون هناك مورد غير قابل لإنطباق الحكم الإسلامي عليه.

إن الدين الإسلامي شرع بطريقة ليكون مكملاً لجميع الأديان السابقة، وخاتمها، وهذه الخاتمية هي من أعظم خصائص هذا الدين، وبهذه الخاتمية امتاز هذا الدين على جميع الأديان والمذاهب الفكرية.

الأصول الأمنية في الحياة:

إن كل شخص مادام لم يصل إلى كماله المناسب له في هذا العالم الوسيع يصاب باضطراب وقلق، والإحساس بعدم الأمن، واضطراب داخلي، فقبل وصوله لمقصوده فهو في نشاط دؤوب وسعي متواصل لتحقيق مطلوبه، وبعد أن ينال مراده، يظل ضميره في حالة حراك وغدم استقرار، يستمر في دعوته للجري وراء هدف آخر يزينه له، ويصر عليه، ويقويه في ذهنه، وعندما يصل، يرشده إلى سراب آخر، وفي الحقيقة يجب القول إنه سيعجز في طريقه، وسيبقى في

دوامة طوال عمره.

وللأسف يجب القبول والإعتراف بأنه وقبل الوصول إلى الكمال ستستمر هذه الحركة، وطي هذه المسافات، وإن عدم الوصول للمطلق يؤدي إلى الإضطراب والتيه و ايضاع، وفي النهاية تختلف الموارد بإختلاف الأفراد والمجتمعات ومقتضى العادات والطبائع، والسنن والتربية، والشرائع والمذاهب المختلفة، واختلاف الأعمار.

أما النقطة المشتركة الدائمة في الحياة هي عدم الإستقرار والإضطراب الدائم. فمنذ أن تورط ابن آدم بهذه القيود وهو يقول: إذا حصلت على هذا الهدف الأخير، أو إذا خضت حرباً لأجل الحصول على هذا المقصود الجديد سيؤمن لي الإستقرار وراحة البال، بعيداً عن تشتت الفكر والضمير، واضطراب النفس باقي العمر، مستمتعاً بالأمان والإطمئنان، وهدوء النفس.

ولكن للإسف فإنه في نفس اللحظة التي قال فيها «نعم» كان يرى في اللحظة نفسها أن الحصول على أمنية جديدة ـ على فرض كونها أرفع درجة ـ أمر سهل، أو أنه في أثناء الوصول إلى ذلك يتبلور في باطن الإنسان المقصد الجديد وقرب وقوعه، حتى وإن شعر بسرور لكن هذا الشعور ينتهي بسرعة، ولن يمضي وقت ـ و انما ـ حتى يبدأ القلب يخفق اتجاه المقصد الجميل الذي وضعه نصب عينه.

وفي المقابل يرى البعض نفسه مستحقاً للتوبيخ والملامة، إذ أنه كيف صرف عمره العزيز وراء مقصود فج، وضيع عمره في طريق نيل هدف غير كامل. وا أسفي على ما فرطت من عمري في عمل لا فائدة منه، وغاية لا قيمة لها، فهذا موجود ويدور في خاطره، فيتسبب في ارباك ضميره وتشويشه بنفسه، وقبل أن يجف عرق جبينه عند وصوله إلى مقصده حتى يأتي حبل الأماني ـ بلا تأخير ـ

يزين له المقاصد التالية ويمنيه بها، سواء كانت معقولة أو غير معقولة، سهلة الوصول أو بعيدة المنال، ويهيجه للتوجه لنيل مقصده، وتوظيف كل طاقته وهمته لذلك، وتركيز كل اهتماماته وبذلها للعبور من هذا المستنقع، وتجاوز المخاطر والمهالك، وبذل كل ما أوتي من قوة ونشاط وحيوية، ويريد أن يتداخل الزمان بالأرض ليطوي الأرض و الوصول إلى مقصده، ومع كل هذه الحرارة في الإهتمام في بداية العمل وعند الشروع فيه، والبرودة عند اتمامه ونهايته، والنتيجة الحاصلة، فهو يشعر بالحزن والكآبة وعدم الإستقرار والحيرة، يظلّ أسير قيود الفوضى، غارقاً في بحر ظلمات التيه والإضطراب!!

يمضي على أمل أن يصل إلى ساحل الراحة والأمان، ولكن الأسف والحسرة إن ما ظنه مقصداً للراحة والإطمئنان ليس فقط أنه لن يحصل عليه، بل سيكون بداية لكثرة القلق، ومنبعاً لإضطراب أوسع، وفي النهاية سيصاب الإنسان باضطراب دائم وخيال مشتت، و مثل هذا الإنسان ـ الذي لم يصبح انساناً بعد ـ لا يشعر الإ بعدم الأمان، وكل ما يحصل عليه هو زيادة التيه والضلال.

إن الحالة النفسية التي يشعر بها من ناحية الإضطراب كحال الشخص الذي وقف على مفترق طرق ولا يعرف الطريق الذي يريد سلوكه، ولكنه مضطر ومجبر على المسير في ليلة حالكة الظلام في وسط صحراء واسعة، فلا شك أن مصيره الضياع والتيه، فلا طريق واضح أمامه، ولا ملجأ يأدي إليه. ولا بصيص أمل بنور أو ضياء، ولا يعرف طريقاً للخلاص أو النجاة مما هو فيه، لهذا فهو مسكين كئيب ومضطرب حزين، كحال الأعمى العاجز، فليس لديه قدرة على الحركة، ولا قدرة له على الرؤية.

مع أن البشر يبحث بطبعه وروحه عن الأمن والأمان مادام موجوداً، فأينما

يذهب، وكل ما يفعله هو لأجل أن يكون مطمئناً ومرتاحاً، ولكن مادام هذا الإنسان يسلك نفس هذا الطريق، وبنفس هذا الأسلوب، وباق على سيرته بما هي عليه، فلن يصل إلى الإنسانية، ومهما قام به من عمل للوصول لأي مطلوب، فقبل أن يستريح من عناء وصوله إلى مقصده السابق يقع أسيراً لمقصده الجديد على أمل الوصول إليه، وسينحرف عن الطريق السليم لحاجاته الحقة و هدفه الصحيح، وسيسلك طريق الضياع والتيه، وسينتهي أمره في جملة من المشاكل والإبتلاءات التي لا نتيجة منها ولا فائدة ترتجى من ورائها، بل سيزيد ذلك من حزنه وكآبته واضطرابه، وفقدانه الأمن والأمل.

والحقيقة إن البشر ينشدون الحرية، الحرية في كل شيئ، ومن أي شخص، الحرية من العذاب والإرهاق، والصراع النفسي، وعدم الإستقرار، والخيالات المشتتة للفكر، والإضطرابات المتفرقة، التي تواجه الإنسان طوال حياته القصيرة، والإنسان مثل القشة العائمة في بحر من الأمواج المتلاطمة، تتلاقفها الأمواج من مكان إلى مكان، وتجذبها إلى أعماق المحيط ثم تقذفها إلى أعالي الأمواج، فهي في حالة تقلب لا تعرف الثبات والإستقرار.

والإنسان في خضم هذه المعمعة والهجوم المثير للإضطراب واللأمن يبحث بكل وجوده عن طريق النجاة للوصول للراحة والإطمئنان، و تحقيق الأهداف، ويوظف همته في تحقيق ذلك، وهذا الإطمئنان هو مقام، يمنح صاحبه الراحة والأمان من كل تشتت من أي جهة كان، وفي أي اتجاه، ويوصله إلى الحرية المقصودة، ويهبه الإستقرار النفسي والإطمئنان الروحي بمقدار استعداده وسعته، فإن مقام الأمن والإطمئنان هو قبلة قلب كل انسان وكعبة روحه، والوصول إلى هذا المقام محمود ومبارك.

ولكن هذا المقصود الشريف ليس سهل المنال من الناحية الفكرية، ولا سريع الحصول، بل حتى أنه لن يصل إلى نتيجة بطرقه الأبواب العادية، مثل الذين يطرقون الباب وما زالوا، من دون نتيجة تذكر، وبقوا على ما هم عليه محرومين، كما يرون ذلك ونراه، فلا سبيل للنجاة إلا إذا أشرق نور الهداية في ليلة العمر المليئ بالشهوات والملوث بالرذيلة الغارق في غاية الإفراط والتفريط، وشع ضياؤه، ليكون ملجأ وبداية يعتمد عليها، حتى يتمكن بهذه اليقظة أن يبني مجده العظيم الابدي، ويبذل الجهد ويوظف كل طاقته وهمته في تحقيق ذلك.

نعم إذا أشرق نور الهداية سيجد الملاذ والملجأ ونقطة الإنطلاق والبداية، واستمر الإنسان باللجوء إليه بتمام وجوده وكيانه بشكل دائم، فإن ذلك سيوصله الى السعادة والراحة والإطمئنان.

إن نقطة الإتكاء هي القوة المدبرة والمديرة لهذا العالم، يعني الذات التي لا كيف لها ولا كم، فهو إلاله الذي يخلق ويربي، وهو الخالق والرب.

إن هذه الإشراقة توفيق من الحق، فإذا لم تستغل في تهذيب روح الإنسان وتربيتها، تتحول جميع طرق الوصال إلى مجرّد سراب.

إن الحب الإلهي في طريق التوحيد وعبادة الأحد الصمد مستمد من الرحمة الواسعة للوجود المطلق، والأحد الصمد هو الحق تعالى، وكل ما خطر على البال غير الحق فهو باطل، وإن الرغبة في حصول القرب والوصول إلى ساحة لطفه عز وجل ـ والتقرب الى ساحة النور والجود ـ تظهر في باطن الإنسان، فإذا اجتمعا ظهرت الفائدة.

وجميع البشر يسعى للحصول على ذلك، يعنى البحث عن الراحة، وطلب الإطمئنان، وهي وديعة الله مجبولة في فطرة الإنسان، لهذا فإن والبحث عن الله

ومعرفة الله أمر فطري، لإن طلب الإطمئنان والبحث عن الراحة مجبول في فطرة البشر، وأن الإنحراف عن هذا الطريق الفطري بسبب العوارض الخارجة عن ذات الفطرة، ومن مقولة الأسباب والعوارض الخارجة، من قبيل فساد المحيط الإجتماعي، والتربية غير السليمة، وتوارث السلوك والصفات غير اللائقة الناتجة من سوء العادات والإفراط في الشهوات.

إن الراعي الرحيم يأخذ قطيع الأغنام للرعي إلى مرعى الجبل وسفحه والتي تعتبر دياراً مقدسة، فبمشيئة الله يضع أصحاب الإستعداد ركابهم في طريق تحقيق هذا القصد المبارك للنجاة من بعض العادات السيئة، والتحرر من إنحراف الشهوات، والإنقياد لهذا الطريق والتسليم للمعرفة، كما تنجو الخراف الصامته من السقوط إلى الأسفل، أو القفز من الهضاب المرتفعة، أو الضياع في وسط الغابة لتكون فريسة للذئاب.

فالراعي كان ذاهباً إلى المكان الذي يجب أن يؤمن فيه الحماية والصيانة على الوجه الأدق ليحقق للبشر أهداف البعثة وصفاتها، ويسعى لنجاتهم وإنقاذهم، ولكن للأسف فالبشر وبحسب إرتباطهم بمقتضى عاداتهم وتقاليدهم يتأثرون بالمحيط الذي هم فيه وفق ما ترتضيه شهواتهم وميولهم، وما لم يصلوا إلى الكمال فهم واقعون في كمائن الإنحراف والتلوث، وعرضة لقطاع الطرق الذين يحولون دون وصولهم الى مركز الهداية والصلاح.

وكل همه في أداء أوامر الحق تعالى والسعي، للأخذ بيد السائرين في هذا الطريق إلى النجاة والخلاص، وإيصالهم إلى السعادة، وطريق النجاة هو الذي يخلص الإنسان من الكآبة، وطريق الخلاص هو الذي ينجي الإنسان من التشتت الفكري والعملي، والسعادة هي التي تورث الإنسان نفساً مطمئنة، وراحة في البال

والخاطر، مع أنه بالإمكان اعتبار هذا الإطمئنان والراحة هي السعادة بنفسها، فليست السعادة غير هذا.

والإنسان اتجه إلى العبادة على أمل الحصول على الراحة القلبية والإطمئنان الروحي، ومن خلال هذا الطريق نزلت الشرائع الإلهية من لدن الحق تعالى لسوق البشر باتجاه السعادة، وتم تشريع أصل العبادة بشكل مؤكد، وقد وضحت أقسامها وترتيبها وكيفية أداؤها بشكل دقيق ومنظم.

ولأهمية موضوع العبادة وضرورته اضطر بعض الذين انحرفوا عن التوحيد الصحيح إلى اللجوء إلى هذا الموضوع، وابتكروا مفاهيم و مصاديق وأشخاصاً و شدّ الانظار باتجاه ذلك، سعياً منهم ـ سواء كان إرادياً أو لا إرادياً وغالباً ما يكون عن عدم معرفة واطلاع ـ حتى لا يحرموا من فوائد هذه الحركات العقلية والنفسية والجسمية، ولكن بما أنه لا يوجد تناسب بين هذا الإنسان وبين من جعله إلهاً له، تورطوا لا محالة في اتخاذ أساليب لتركيز أفكارهم المشتتة البعيدة عن الله سبحانه وتعالى، فانحرف القلب بهذه الأوهام التي وضعوها، وانحرف طريقه نحو الضلال والضياع.

لذا نجد في الشريعة الإسلامية المقدسة أن العبادة المعينة من قبل الشارع المقدس والسنة الإلهية غير قابلة للتغيير، وهي ليست من بدع الخلق في دين الله، وتعتبر من أصل الشرع وهي إما واجبة أو مستحبة أو جائزة، بمعنى إن الله سبحانه وتعالى يعين كل قسم بحسب ما تقتضيه المصالح.

فالعبادة هي الوسيلة التي يأمل أن تؤسس للإرتباط بين العابد والمعبود، فالعابد عندما يبدأ بالعبادة فإن ذلك الأمل يتحقق، وإذا تحقق الإرتباط اتصلا ببعضهما وتحققت العلاقة بينهما، وبمجرد تحقق هذا الإرتباط، وفي عين هذا

الإتصال، وببركة هذه العلاقة يتحرر الإنسان من قيود العادات الإنحرافية، والتشتت الفكري، والشهوات ليصل إلى الراحة والإطمئنان.

ومن خلال البحث في الشريعة الإسلامية المقدسة نجد أن العبادة من دون قصد القربة لا تحصل ولا تتحقق، وقصد القربة عبارة عن: أداء الأمر العبادي لأجل الإمتثال لأوامر المحبوب، قصداً لطاعة الحق تعالى.

ومع هذا القصد القلبي يصبح القلب واحداً متمركزاً، خالياً من التشتت والضياع، مطمئناً مستقراً، فالعبادة الواقعية تجلب الإطمئنان، وتبعث على الراحة والإرتياح، ومع هذا التوجه الحاصل من الإمتثال للأوامر فإن هذا القصد يعتبر قصداً للقربة، لإن الطاعة لأوامر الرب قد لوحظت في هذا التوجه، وبسبب لحاظ الإمتثال للأوامر الإلهية تقبل هذه الأعمال.

ومن الواضح أن الإخلاص في طاعة الله توجب القرب من الحق تعالى حقاً وواقعاً، وعليه فيكون قصد القربة شرط في صحة أي عبادة، ومن دون هذا القصد لا تتحقق العبادة أصلاً، حتى وإن اتخذت صورة الأعمال العبادية وشكلها، وجرت الآيات والأذكار والأوراد على الألسن، فمتى ما تحقق روح العمل فهو يصل إلى الله، وإلا فماذا يمكن أن تكون نتيجة صلاة المرائي الخالية من التقوى، والعارية من التوجه إلى الله غير العذاب؟ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾[1]، فإذا لم تكن التقوى حقيقة، ولم يكن التوجه لله في السر والعلانية هما اللذان يوصلان إلى الله وبهما تقبل الأعمال، فأي شيئ لديه تلك القابلية؟ يقول الله تعالى في كتابه المحكم:

١- الماعون ١٠٧: ٤.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[١].

وفي الواقع إنه هو السبب في أن كلما كانت القربة إلى الله كانت العبادة واقعية- رغم أن الكثيرين لا يعرفون من العبادة إلا شكلها -

ولكن الموضوع ظاهر وواضح من أن حصول القربة في نهاية الأمر لا يتحقق إلا بالقصد الأولي، وأن روح الإنسان تصل إلى مرحلة تجرد الملائكة، بل بما أن العمل قد وصل إلى نهايته بغض النظر عن النفس، وتنزهها عن الأنانية، فإن روحه تتخلق بالأخلاق الإلهية، والعابد عندما يصل إلى المحبوب، وينال منزل المقصود، حتى يتخلق بأخلاق المعبود فيدرك: « تخلقوا بأخلاق الله»[٢].

من أين نبدأ؟ وأين هو المنبع والمصدر؟ وماهي العناية التي يمكن أن نتلقاها من الحق جلا وعلا؟ وما هي عواقبه؟

إن عبادات المسلم بشكل خاص سواء كانت النية ترتبط بكل العمل أو بجزء جزء منه موقوفة على نقل المعصوم، وهذا هي ديباجة السجل المشرق، ونور الكتاب المضيئ بمعرفة الحق تعالى، وبمعرفة الحقيقة، أن الوصل بساحة الإله توصل إلى التشرف بمجد العصمة، فإن عبادة المعبود تؤدي إلى العلاقة السرمدية مع الرب.

إن المعصوم الذي أخذ طريق العبودية من الرب الجليل، وأخذ علمه وعمله وكلامه وفكره كله من النبع الإلهي، ووصوله إلى مرحلة الكمال بتوفيق من الله جل وعلا، والذي يخبر عن الله تعالى من جهة الولاية وبسبب النبوة، أو أن يخبر

١- الحج ٢٢: ٣٧.

٢- بحار الأنوار ٥٨: ١٢٩.

عن الأحكام الإلهية نيابة عن مقام خاتمية الرسالة من جهة الولاية وبسبب الوصاية والخلافة، هو أفضل من يتمكن من بيان طريق الصواب، وهو أفضل من يعرف طريق الرشاد ويعينه، بل إن طريق الصواب هو ما يشير إليه، والرشاد هو ما أرشد إليه وأفاضه.

وعندما يصل تجلي الحقيقة في العبادة الصحيحة إلى هذه المرتبة، يصل الإنسان إلى الكمال اللائق به، خالصاً من النقص والتقصير، ومتحرراً من كل ما هو غير لائق به، وبما أنه عاد إلى فطرته الحرة، وتخلص من العادات السيئة والشهوات والإنحرافات، سيجد الإطمئنان والراحة التي فقدها. وسينعم بالهدوء والإستقرار.

فمن أين وصل إلى هذه المرتبة؟ ومن أي طريق؟

إنه من مبدأ الصفاء الفطري، ومن طريق العبادة الذي أهدى الإنسان العبودية والمعرفة، ويعطيه السعادة والنجاة، وبناء على هذا الكلام، فإن التعبير عن العبادة بأنها: وسيلة للعروج إلى المدارج العليا للإنسانية، وهي الأساس في الوصول إلى ساحة الأمن والراحة، والإطمئنان والهدوء، فليس جزافاً، بل إن الأصح منه هو القول: «إن تحقق العبادة هو بنفسه مقام الأمن ومركز الإطمئنان» وبه نختم الحديث عن هذا الموضوع.

الدين في الآيات القرآنية:

يدعو القرآن الكريم ـ في الكثير من الآيات ـ الإنسان للتفكر في عالم الخلقة، لكي يهتدي من خلال هذا الطريق إلى معرفة خالق هذا العالم الذي لا خالق له إلا الله جلا وعلا، لأن مع التذكير بمسألة خلقة هذا العالم من قبل الله، تتجلى

وحدانية الحق تعالى في الكثير من الآيات، وتنفي كل خالق ومعبود غيره بالأدلة الواضحة والبراهين الحقة، وتعرف الإنسان على الحقيقة، حقيقة وحدانية الحق، وأنه لا شريك له و لا كفو له، ونفي المثلية والندية عنه، وعندها يتم بيان أوصاف حضرة الحق وأسمائه لإكمال معرفة الإنسان، وفي هذا المجال يصبح أمام قلب الإنسان وعقله بحر من العلم والمعرفة لا ساحل له ولا نهاية.

وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم لتوضيح طريق الإرتباط بالله بالإعتماد على رسالات الأنبياء عليهم السلام وإمامة الأئمة عليهم السلام بالحق، والإنسان مسؤول بشكل أساسي في مقابل معرفة قادة المسيرة الإلهية، والعمل بالأحكام والأوامر الموجبة للسعادة.

والقرآن الكريم يواكب رسالة الأنبياء عليهم السلام في بيان مسائل الدين الشاملة لجميع البرامج العبادية، السياسية، الإقتصادية، الإجتماعية، الأخلاقية، العرفانية، والأسرية، ويطالب الإنسان بتعلم تلك الأحكام والعمل بها لأجل تحصيل خير دنياه وآخرته، و قد أشار القرآن الكريم إلى موضوع مهم جداً وهو يوم القيامة في أكثر في ألف آية، وقد عبر عنه القرآن بعنوان: يوم الجزاء، ويوم مكافأة المؤمن وغير المؤمن على أعمالهم.

وإن مجموع هذه المسائل المذكورة أعلاه في القرآن الكريم هي دين الله، وهي الصراط المستقيم، والقرآن الكريم يطلق لفظ المؤمن على الشخص الذي يؤمن بجميع الحقائق الدينية، ويلتزم بجميع شؤون حياته بالأحكام الدينية الحياتية، وإليك مجموعة من الآيات المتعلقة بموضوع الدين:

الله هو خالق العالم:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٤].

١- البقرة ٢: ١٦٤.

٢- البقرة ٢: ٢٩.

٣- الرعد ١٣: ٣.

٤- الرعد ١٣: ٤.

حيث تبين هذه الآية الشريفة: إن كل شخص يعمل عقله وفكره يدرك أن هذا النظام والإنتظام الموجود في السماوات والأرض، وما فيها من الموجودات المختلفة، وتلك الخصوصيات الموجودة في عالم الطبيعة لم تأتِ من وحي الصدفة، بل وجدت بأمر من الله القادر والخالق الحكيم والرب العليم والمبدع الرحيم والصانع اللطيف والمصور البصير والمالك العادل، وبوجود قادر رحيم ومولى كريم.

وحدانية الله:

يتميز نظام الخلقة العظيم، والمحير للعقول من أصغر مخلوق فيه إلى أعظم مخلوق بانسجام دقيق وتناسق جميل، حيث يعبر العرفاء والعقلاء عن هذا العالم وما يحويه من نظم ودقة «**بالنظام الأحسن**» وهو تعبير يعكس حقيقة وحدانية الخالق لا غير، وأن مدبر هذا العالم وصاحبه ومالكه ومديره واحد، وإذا لم يكن كذلك، لرأينا الفساد والضياع وعدم الإنسجام والتداخل في كل زاوية من زوايا عالم الخلقة، ولا يوجد ما هو أفضل من التأمل في الايات القرآنية لإكتشاف هذه الحقيقة وإدراك هذا الواقع:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١].

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ

١- الانبياء ٢١: ٢٢.

٢- البقرة ٢: ١٦٣.

إلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾[١].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢].

النبوة:

لقد قرأنا في الكثير من الآيات أنه لا إله إلا الله الواحد، العالم الحكيم المالك المربي، وبالتوجه لهذه الأوصاف لا يمكن القبول بأن خلق العالم والبشر كان عبثياً، بل لا بد أن يكون المقصود من خلق العالم والبشر ناشئ عن حكمة وعدالة، وعند التدقيق في هذه الحقيقة والواقعية نصل إلى نتيجة مفادها: إن مقصود الحق من العالم والبشر هو التكامل والرشد، وبناء على ما تقدم فإن الله

١- النساء ٤: ١٧١.

٢- الرعد ١٣: ١٦.

العظيم المتعال الذي ألبس جميع موجودات العالم لباس الوجود والتحقق، فلا بد أيضاً أن يضع في اختيارها طريق الرشد والهداية.

لقد أثبتت الآيات القرآنية والسنة المقدسة، وكذلك التحقيقات المبتنية على القرآن والسنة، والنظام العالمي والحياة البشرية على أن طريق الرشد والهداية في العالم منحصر باتصال هذا العالم بالولاية التكوينية لخالق هذا العالم، وأن الإنسان إضافة إلى احتياجه للولاية التكوينية فهو يحتاج إلى الولاية التشريعية.

والهداية التشريعية تعني إرشاد العباد إلى الأحكام المرتبطة بشؤون الحياة التي تجلب لهم خير الدنيا والآخرة، وبما أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن رؤيته الرؤية الجسمانية، ولا يوجد للعباد طريق مستقيم يربطهم بساحة قدسه، فهم يلجأون إلى المتميزين من عباد الله تعالى، الذين تربوا بتربية المولى عزت آلاؤه، ونالوا درجة العصمة، والأفضلية العقلية والعلمية والعملية والأخلاقية بالنسبة لبقية البشر، الذين اصطفاهم الله جل وعلا من بين خلقه ليكونوا أنبياءه ورسله من خلال الإرتباط بالوحي، و يبلغوا الناس ما أوحي إليهم من الحق تعالى كل ما فيه خير الإنسان، سواء كان في عالم الدنيا أو عالم الآخرة، وبالتالي يجب على الإنسان وجوباً عقلياً وفطرياً أن يتقيد بالإحكام الإلهية المبلغة إليه من الأنبياء عليهم السلام والمرتبطة بجميع شؤون حياته، ومن الضروري أن نستعرض مجموعة من الآيات القرآنية التي تتصل بهذا الموضوع:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3].

الإمامة:

١- البقرة ٢: ٢١٣.

٢- النساء ٤: ١٦٣- ١٦٥.

٣- الاحزاب ٣٣: ٧.

يتحمل أنبياء الله العظام مسؤولية حفظ الأحكام الإلهية، وإقامة النظام الإجتماعي للإنسان على أساس أحكام الوحي، ومن الأمور الأساسية والمهمة مسألة الخلافة، أي خلافة النبي، وهي سارية في جميع الأنبياءعليهم السلام، حيث يختار الله سبحانه وتعالى من يراه لائقاً لهذه المهمة، وينصبه على الناس بعنوان خليفة.

لا خلاف ولا شك بين المسلمين في أصل مسألة خلافة النبيصلى الله عليه وآله، ومع اختلاف مسالكهم ومشاربهم فإنهم متفقون على هذا الأصل، وإنما الخلاف في تعيين شخص الخليفة، حيث تعتقد الطائفة الشيعية الإثنا عشرية الحقة بالإعتماد على الآيات والروايات الإسلامية الصحيحة المنقولة في أكثر الكتب، أن النبيصلى الله عليه وآله قد عرّف علي بن أبي طالب أمير المؤمنينعليه السلام يوم الثامن عشر من ذي الحجة في غدير خم خليفة من بعده بأمر من الله تعالى، وذكر أسماء الأوصياء من بعده أيضاً إلى الوصي الثاني عشر ـ وهذا منقول في كتب أهل السنة أيضاًـ وتحتل مسألة خلافة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله أهمية بالغة، حتى أن نبي الإسلامصلى الله عليه وآله لم يسمع منه موقفاً حاسماً تجاه أحد طوال سني رسالته التي استمرت ثلاثة وعشرين سنة، كما هو حاصل تجاه من تخلف عن وصيه، حيث قالصلى الله عليه وآله:

«من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[1].

يقول الإمام الباقرعليه السلام في باب القيادة والإمامة: «بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيئ كما نودي في

١- بحار الانوار ٢١: ٣٨٧،باب ٣٦،ضمن حديث١٠.

الولاية»[١]، وجاء في روايات كثيرة أن أعمال المسلم لن تقبل إلا بالولاية، فقد روى أبو حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قوله: «أي البقاع أفضل؟ فقلت: الله ورسوله وابن رسوله أعلم، فقال عليه السلام: أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المكان، ثم لقي الله عز وجل بغير ولايتنا، لم ينفعه ذلك الشيء»[٢].

والشيعة تثبت موضوع قيادة المسلمين وخلافة أمير المؤمنين المعينة من قبل الله والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ونصب إمامته عليه السلام، في كتبهم القيمة بناء على الآيات والروايات الكثيرة التي نقلها أهل السنة في مصادرهم، ومن هذه الكتب **«الألفين»** للعلامة الحلي، و**«عبقات الأنوار»** للسيد حامد حسين الهندي، وكتاب **«الغدير»** للعلامة الأميني، و **«المراجعات»** للسيد شرف الدين العاملي، وكتاب **«الشيعة تسأل»**، وقد أثبتوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بالبرهان والأدلة إلى الحد الذي لا يبقى لأي مسلم مجالاً للشك والترديد.

ويجب القول: إن الإمامة هي تجلي للنبوة، ومن دون الإرتباط بالإمام المعصوم عليه السلام لا يمكن الإرتباط بالنبي صلى الله عليه وآله وبالله سبحانه وتعالى.

مضمون الوحي الإلهي:

لقد قرأنا في الآيات السابقة، إن وظيفة أنبياء الله هي تأمين خير الدنيا وخير الآخرة للناس، وتبليغ الأحكام الإلهية بين الناس، وتعليمها للناس، وتهيئة

١- الكافي ٢: ١٨، باب دعائم الإسلام حديث ١.

٢- وسائل الشيعة: ١/١١٨، باب بطلان العبادة بدون ولاية الائمه عليهم السلام و اعتقادهم امامتهم.

الظروف والأرضية المناسبة للعمل بأحكام حضرة الحق سبحانه وتعالى، ومن الضروري الإشارة إلى جانب من مضمون الوحي الإلهي الذي ذكره القرآن الكريم والسنة المقدسة:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ*وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ

١- الانعام ٦: ١٥١ـ ١٥٢.

٢- النحل ١٦: ٩٠.

مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[١].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ* وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٣].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاء عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

لقد بين القرآن الكريم مضمون الوحي بأفضل صورة وأكمل بيان.

١- لقمان ٣١: ١٧ـ ١٩.

٢- الاعراف ٧: ١٩٩.

٣- النحل ١٦: ١٢٦ـ ١٢٧.

٤- الحجرات٤٩: ١٠ـ ١٢.

مضمون الوحي الإلهي في الروايات:

وأما في الروايات الشريفة فهي مجموعة في عدد من الكتب القيمة، مثل «**الكافي**» و «**التهذيب**» و« **الإستبصار**» و«**بحار الأنوار**» و«**وسائل الشيعة**» و «**من لا يحضره الفقيه**» و«**مستدرك الوسائل**» نذكر مجموعة منها على سبيل المثال:

فقد جاء فيها أن النبي ﷺ التفت إلى معاذ يوصيه:«.. وأظهر أمر الاسلام كله صغيره وكبيره، وليكن أكثر همك الصلاة، فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين، وذكّر الناس بالله واليوم الاخر، واتبع الموعظة فإنه أقوى لهم على العمل بما يحب الله، ثم بث فيهم المعلمين، واعبد الله الذي إليه ترجع، ولا تخف في الله لومة لائم. وأوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ولين الكلام، وبذل السلام، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، وحسن العمل، وقصر الأمل، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، ولزوم الإيمان، والفقه في القرآن، وكظم الغيظ، وخفض الجناح، وإياك أن تشتم مسلماً، أو تطيع آثماً، أو تعصي إماماً عادلا، أو تكذب صادقاً، أو تصدق كاذباً، واذكر ربك عند كل شجر وحجر، وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية»[1].

و قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنما أخاف عليكم اثنتين، اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[2].

١- بحار الانوار ٧٤: ١٢٩،باب٦ حديث ٣٣، تحف العقول: ٢٦.

٢- الكافي ٢: ٣٣٥، باب اتباع الهوى،حديث٣. الامالي للشيخ المفيد: ٢٠٧، المجلس٢٣.

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ليس منا من ماكر مسلماً»[١].

و كان علي بن الحسين عليه السلام يقول لولده:

«اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترى على الكبير، أما علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صديقاً، ومايزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذاباً»[٢].

عن داود بن كثير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«قال أبي عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطحبان إلا كانا خارجين من الإسلام، ولم يكن بينهما ولاية فأيهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب»[٣].

جاء رجل فشكا إلى أبي عبد الله عليه السلام أقاربه فقال له:

«أكظم غيظك، فقال: إنهم يفعلون ويفعلون، فقال: أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم»[٤].

١- الكافي ٢: ٣٣٧، باب المكر والغدر،حديث٣.ثواب الأعمال: ٢٧١.

٢- الكافي ٢: ٣٣٨، باب الكذب، حديث٢.

٣- الكافي ٢: ٣٤٥، باب الهجرة، حديث٥. بحار الانوار ٧٢: ١٨٦،باب ٦٠، حديث٥.

٤- الكافي ٢: ٣٤٧،باب قطيعة الرحم،حديث٥. بحار الانوار ٧١: ١٣٧، باب٣،حديث ١٠٥.

قال رسول الله عليه السلام:

«لا تقطع رحمك وإن قطعتك»[١].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمس مئة عام إلا صنف واحد، قلت من هم؟ قال العاق لوالديه»[٢].

قال أبو عبد الله عليه السلام:

«إذا كان يوم القيامة ناد مناد: أين الصدود لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال: هؤلاء الذين آدوا المؤمنين، ونصبوا لهم وعاندوهم، وعنفوهم في دينهم، يؤمر بهم إلى جهنم»[٣].

عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا:

«أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل على الدين، فيحصي عليه عثراته وزلاته، ليعنفه به يوماً ما»[٤].

قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أفضل العبادة الصبر والصمت وإنتظار الفرج»[٥].

١- الكافي ٢: ٣٤٧،باب قطيعة الرحم،حديث٦. بحار الانوار ٧١: ١٣٧، باب٣،حديث ١٠٦.

٢- الكافي ٢: ٣٤٨،باب العقوق،حديث٣،مشكاة الانوار: ١٦٤،فصل.

٣- الكافي ٢: ٣٥١،باب من آذى المسلمين،حديث٢. جامع الاخبار: ١٦٢،فصل ٢٧.

٤- الكافي ٢: ٣٥٤، باب من طلب عثرات المؤمنين، حديث١. بحار الانوار ٧٢: ٢١٧، باب٦٥، حديث٢٠.

٥- تحف العقول: ٢٠١. بحار الانوار ٧٤: ٤٢٢، باب ١٥.

قال الإمام علي عليه السلام:

«ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يرخص الناس في معاصي الله، ولم يقنطهم من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ولا خير في عبادة ليس فيها نفقة، ولا خير في علم ليس فيه تفكر، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر»[١].

فمن أراد أن يطلع على السنة الشريفة بعد القرآن الكريم فيجب أن يراجع الروايات المروية عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد ذكرنا في هذه الصفحات القليلة مجموعة من الروايات بعنوان المثال من بحر المعارف الإلهية الذي لا نهاية له، مع أن السنة الشريفة تتضمن الكثير من الروايات القيمة لجميع أبعاد الحياة الإنسانية، حيث جمعها علماء الإسلام العظام، ودونوها في آلاف الكتب.

وبناءً على هذا على المسلم أن يطلع على ما جاء في تلك الآيات القرآنية والسنة الشريفة في بيان مضمون الوحي بالمقدار اللازم، ويسعى لتطبيقه في حياته، قال الله تعالى في محكم كتابه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[٢].

١- تحف العقول: ٢٠٤، بحار الانوار٧٥: ٤١، باب١٦، حديث٢٤.

٢- النساء ٤: ١٧٣.

وقد تجاوز عدد الآيات التي تناولت موضوع المعاد في القرآن الألف آية، وأما في السنة الشريفة بعنوان تفسير لتلك الآيات الآلاف رواية، فكما أن موضوع التوحيد من أهم المسائل الأساسية في الدين الإلهي، كذلك الأمر بالنسبة لموضوع الإعتقاد بالمعاد فإنه من الأركان الأساسية أيضاً.

البدعة في الدين:

لابد من بيان معنى البدعة في جملة «وَدِيْنَهُ عَنْ الْبِدْعَةِ» وذلك بمناسبة ارتباطها بموضوعات الدين، ومعرفة حقيقتها، لتتضح معالم الدين الحقيقي، ورفض كل ما هو دخيل فيه، لأن معرفة الدين الحقيقي الإلهي هو الطريق الوحيد الذي يأخذ بالإنسان إلى النجاة والسعادة، السعادة في الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة، وليتضح أيضاً مدى فظاعة الذنب في البدعة في الدين الإسلامي.

في الحقيقة إن الدين مبرمج ومنظم وفق الحياة الفطرية للإنسان وطبيعته، وإن الطريق الوحيد للإتصال بالله سبحانه وتعالى هو الإيمان به والعمل بأحكامه وقوانينه، لأن أحكام الدين هي التي تضمن السعادة والإستقرار للإنسان في جميع أبعاد حياته، فتعساً لهذا الخائن الشقي الذي يريد البدعة في دين الله، وأن يجعل في الدين ما ليس منه اتباعاً لهوى النفس و وسوسة الشيطان طلباً لمتاع دنيوي أو مقابل حفنة من الدراهم، ليضل الناس عن سبيل الله، ويخرجهم عن صراط الهداية والإستقامة، ويكون سبباً في شقائهم وتعاستهم، ونشر الفساد والإنحراف فيما بينهم، وهناك مجموعة من الآيات والروايات الكثيرة التي تناولت موضوع البدعة وأهلها، وكيفية مواجهتهم، وما يستحقون من العقاب والجزاء، نستعرض قسماً منها:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١].

ومسألة الرهبانية في وضعها الحالي هي نموذج من نماذج البدعة في الدين، التي أحدثها علماء اليهود والنصارى لأنفسهم، لكي يستغلوا هذا الجانب الروحي في تضليل الناس وحرفهم عن طريق الهداية، على أساس أن هذه الرهبنة هي برنامج إلهي لتصفية النفس من عند الله، وفرضوها على الناس، لهذا نجد القرآن الكريم يحمل على علماء اليهود والنصارى ويتوعدهم بالعذاب، بسبب ابتداعهم في الدين، وكتمان الحق، واتباع الهوى وعبادته، وقد جاءت الروايات في باب العلم تتوعد المسلمين المبتدعين في الدين ـ تحت أي عنوان كان ـ والذين يكتمون الحق، ويتبعون أهواء أنفسهم ويعبدونها؛ بالعذاب الأليم في يوم الجزاء، كعذاب علماء اليهود والنصارى.

فمن أعظم الجنايات أن يجعل في الدين ما ليس منه، ويعرض على الناس بإسم الدين، وفي الحقيقة أن البدعة: هي إعلان الحرب مع الله، وأن أوزار من عمل بالبدعة تعود على المبتدع في الدين.

عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال:

١- الحديد٥٧: ٢٧.

«كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيلها إلى النار»[١].

قال رسول الله ﷺ:

«كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[٢].

عن أبي العباس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركاً؟ قال:

«من ابتدع رأياً فأحب عليه، أو أبغض عليه»[٣].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي، فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبهم، والقول فيهم و الوقيعة، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس، ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة»[٤].

قال رسول الله ﷺ:

«إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٥].

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام:

١- الكافي ١: ٥٦، باب البدع والراي، حديث٨

٢- الكافي ١: ٥٦،باب البدع والراي، حديث١٢.

٣- الكافي ٢: ٣٩٧،باب الشرك حديث٢.

٤- الكافي ٣: ٣٧٥،باب مجالسة أهل المعاصي،حديث ٤. وسائل الشيعة ١٦: ٢٦٧، باب٣٩، حديث٢١٥٣١.

٥- الكافي ١: ٥٤١، باب البدع والراي، حديث٢. وسائل الشيعة ١٦: ٢٦٩، باب ٤٠، حديث٢١٥٣٨.

«من مشى إلى صاحب بدعة فوقره، فقد سعى في هدم الإسلام»[1].

عن يونس بن عبد الرحمن في حديث، قال: روينا عن الصادقين عليهما السلام إنهما قالا:

«إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب نور الإيمان»[2].

١- وسائل الشيعة ١٦: ٢٦٧،باب ٣٩،حديث ٢١٥٣٣. المحاسن ١: ٢٠٨،باب البدع،حديث ٧٣.

٢- وسائل الشيعة ١٦: ٢٧١،باب ٤٠، حديث ٢١٥٤٦. بحار الأنوار ٤٨: ٢٥٢،باب ١٠.

«وَمَالَهُ عَنْ الْحَرَامِ، فَهْوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّالِحِيْنَ»

تم التطرق إلى شرح الجملتين السابقتين بشكل مفصل، وهي قول الإمام الصادق عليه السلام:

«ثُمَّ مَنْ رَعَى عِلْمَهُ عَنْ الْهَوَى، وَدِيْنَهُ عَنْ الْبِدْعَةِ» ويقول في هذه الجملة **«وَمَالَهُ عَنْ الْحَرَامِ، فَهْوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّالِحِيْنَ»** وهي محل البحث والشرح في هذا الفصل.

موقع المال الحلال في الإسلام:

لقد منح الإسلام للمال الحلال أهمية وقيمة وحتى وإن كان مقداره بسيطاً، حيث يمثل المال بالنسبة للإنسان ـ وبالخصوص المقدار الذي يحتاجه ـ جذور الشجرة، وأعماله وتصرفاته وحركاته غصونها وأوراقها.

فالإنسان يحتاج إلى القدرة والإستطاعة للقيام بأعماله وتنفيذها، وهذه القدرة والإستطاعة هي التي توفر ما يحتاجه الإنسان من طعام، فإذا كان هذا الطعام حلالاً فإن الله الغفور الرحيم سيقبل عبادات الإنسان وتصرفاته الإجتماعية الصحيحة وقسماً من أخلاقياته، وفي الواقع إن المال الحلال ينير قلب الإنسان

ويجعله مشعاً، ويدفع الإنسان للحركة في المسير الإلهي، وأما المال الحرام فيطفئ نور القلب، ويساعد على ظهور الأخلاق السيئة والأعمال غير المناسبة والشيطانية في الإنسان.

ويبدي أنبياء الله العظام، والأئمة المعصومون، وأصحاب القلوب، والعشاق إهتماماً خاصاً قبل البدء بأي عمل، وخصوصاً فيما يتعلق بطعامهم، إضافة إلى قناعتهم بالمال والطعام الحلال بمقدار الضرورة والحاجة!!

إن العباد الحقيقيين لله سبحانه وتعالى لا يرون في المال إلا وسيلة للوصول لمقام القرب وكسب رضا المحبوب، لإن محبة أولياء الحق للمال محبة سطحية، وإن تعاملهم مع الأموال تعامل عادي، وينظرون إليه نظرة عادية، بل إنهم يستوحشون من دخول الأموال عليهم، وإذا حضرت فإنهم يقتصرون على الأخذ منه بمقدار اللازم، بل ماهو ضروري لقوته وقوت عياله، وينفقون الباقي في الموارد التي يريدها المعشوق.

لهذا لن تجدوا نبياً أو إماماً معصوماً أو عاشقاً للحق أو عارفاً من العرفاء الحقيقيين قد أوصى بأمواله بعد موته، وذلك لإن هؤلاء العظماء في الوقت الذي كانوا يسعون في طلب الرزق لهم ولعيالهم، وإدارة أمور معاشهم على النحو اللازم والمطلوب، والتي قد تدر عليهم في بعض الأوقات أموالاً كثيرة، من خلال الزراعة أو رعي الماشية أو التجارة، فأنهم يقومون بصرف مقدار منه على حاجياتهم اليومية، وينفقون الباقي صدقة على الأيتام والمساكين وابناء السبيل، وفي وجوه الخير، طلباً لرضا الخالق.

وأولياء الله بسبب النظرة النظيفة والطاهرة والمستقيمة للمال فهم في أمان دائم من أي فتنة تبرز أو خطر يداهم نقاءهم من وراء المال، وبعبارة أخرى فإن أولياء

الحق والعاشقين للمحبوب بعيدون كل البعد عن تجميع الأموال وبناء الثروات، والإفتخار بالغنى المالي، ومنزهون عن كل حرص وبخل وحسد وكبر وعجب، وأن هذه الدنيا بما فيها من ثروات وأموال في نظر هؤلاء العظماء لا قيمة لها من دون الحق تعالى، لإن المهم عند هؤلاء هو مايريده المولى، وما يجلب رضا المحبوب، لإن ما كسبوه من مال فهو بأمر من المحبوب، فلابد أن يكون صرفه وإنفاقه فيما يأمر به، ويجلب رضاه، فلا يمكن أن يتعلق قلبهم بهذه الأموال، وبكلمة واحدة لا يمكن أن يكونوا عبدة للمال، بل المال هو وسيلة جيدة للخدمة في سبيل الحق تعالى.

فهؤلاء ينظرون إلى المال بتوفيق من الله بقلوب طاهرة وعيون بصيرة، ويعيشون في الحياة ببساطة، ويقنعون بما كتب الله لهم فيه، ومطالبهم قليلة، وحاجاتهم قليلة جداً، وكما يقول عنهم أمير المؤمنين عليه السلام:«**وحاجاتهم خفيفة**».

القرآن وموضوع المال:

إن الإنسان لديه مواقف مختلفة من المال خلال فترة قصيرة من عمره المنقضي، وقد أشار القرآن الكريم من خلال آياته النورانية لمواقف الإنسان المختلفة من المال، فعبر في بعض الآيات عن المال بأنه خير إلهي في يد الناس، وفي بعض الآيات بأنه وسيلة للهلاك والشقاء، وعلة للعذاب الأبدي، وتارة بأنه وسيلة للسعادة، وتارة بأنه وسيلة للبخل والحرص، وفي بعض الآيات هناك ترغيب وتشويق للناس لكسب المال، وذلك عندما يكون الناس على حذر من كسب المال واكتسابه، وهذه التقسيمات مرتبطة بالوضع الفعلي والديني و الموقف العام للإنسان بالنسبة للمال.

ولا شك بأن تعامل الإنسان ـ المنور بنور الإيمان، والملتزم بالمسائل الإلهية، وصاحب القلب السليم، والعارف بالمعارف الإلهية، والعامل بالأحكام الربانية ـ مع المال سيكون تعاملاً صحيحاً وإلهياً، ويمثل المال بالنسبة إليهم خيراً وسروراً، وعاملاً لتحقيق السعادة، ووسيلة لجلب الخير والصداقة.

ولا شك أيضاً بأن تعامل الإنسان البعيد عن الله سبحانه وتعالى، وصاحب القلب المظلم، والمنافق، وعديم المعرفة والنور، مع المال سيكون تعاملاً خاطئاً وشيطانياً، ويمثل المال بالنسبة إليه شر، وسبب للشقاء، ووسيلة للحرص والبخل، وعلة لدمار الدنيا والآخرة، ومنغصاً للسعادة، وسبب لعذاب الإنسان الأبدي في عالم الآخرة.

والقرآن الكريم يحذّر الناس بشدة من التعاطي مع مال الدنيا بشكل غير مناسب، ويقدم للإنسان الموعظة والنصيحة بأعلى مراتبها وأشكالها، ويحذر بني آدم من التلوث بالمال الحرام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1]

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾[2].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ

١- منافقون ٦٣: ٩.

٢- المؤمنون ٢٣: ٥٤ ـ ٥٦.

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا﴾[1].

والقرآن الكريم ينقل لنا في سورة الكهف المباركة قصة الرجل المغرور والكفور، وعديم العلم، وموقفه تجاه رجل مؤمن وفقير لأجل المال، لما في ذلك من عبرة للأمة فيقول:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا* وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا *وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا *فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا*

١- الكهف ١٨: ٤٦.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا * وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[١].

ويقول القرآن الكريم في سورة التكاثر ذات المضامين العالية أيضاً:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٢].

فهذه الطريقة في الحياة ليست سليمة، وهذا التصور بعيد عن الحق والحقيقة، وستنكشف الحقائق لكم، ولكن بعد فوات الآوان، وعندها تتجلى لكم قيمة تلك

١- الكهف ١٨: ٣٢ ـ ٤٦.

٢- التكاثر ١٠٢: ١ – ٨

النعم من المال والجاه والصحة والشباب والعمر المديد، ولكنّ نعمة الله الكبرى نبوة الأنبياءعليهم السلام، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، و إمامة الأئمة من بعدهعليهم السلام، التي سوف تسألون عنها وماذا كان موقفكم منها؟.

ونقرأ في سورة الهمزة قوله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾[1].

وقد تبين من خلال استعراض الآيات القرآنية أن الإنسان إذا كان مع اهتمامه بالمال متوجهاً للحق وقلبه متعلقاً بالمحبوب الواقعي، يصبح المال عندها سلّماً للرقي نحو الكمال، وأحد العوامل التي تقرب الإنسان بالله الرحيم. وأما إذا كانت الثروة والمال قد أخذت بتلابيب قلب الإنسان بحيث بقي غافلاً عن المحبوب والمعشوق، فسيكون المال من أخطر عوامل الإنحراف، يقول الإمام عليعليه السلام:

«المال مادة الشهوات»[2].

المال الحرام في القرآن والسنة:

نهى كتاب السعادة الإلهية قي كثير من الآيات الناس بشكل واضح وجلي من التلوث بالمال الحرام والإقتراب منه، وبين آثاره ومفاسده، يقول تعالى:

١- الهمزة ١٠٤: ١ ـ ٩.

٢- نهج البلاغة: ٧٦٣، الحكمة: ٥٨.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢].

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

وبينت الروايات بعض المسائل المهمة المرتبطة بالمال الحرام كتفسير لتلك الآيات القرآنية:

قال رسول الله ﷺ:

«أربع لا تدخل بيتاً واحدة منهن إلا خرب ولم يعمر بالبركة:

١- النساء ٤: ١٠.

٢- النساء ٤: ٢٩ ـ ٣٠.

٣- البقرة ٢: ٢٧٥.

الخيانة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنا»[١].

قال النبي الأعظم عليه السلام:

«من خان جاره شبراً من الأرض، جعلها الله طوقاً في عنقه من تخوم الأرضين السابعة حتى يلقى الله يوم القيامة مطوقاً إلا أن يتوب ويرجع»[٢].

قال أبو عبد الله عليه السلام:

«ثلاث من كن فيه زوجه الله من الحور العين كيف شاء، كظم الغيظ، والصبر على السيوف لله عز وجل، ورجل أشرف على مال حرام فتركه لله عز وجل»[٣].

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن الله يعذب ستة بستة: إلى أن قال: التجار بالخيانة»[٤].

عن أبي الحسن الثالث عليه السلام قال:

«كان فيما ناجى موسى ربه: إلهي ما جزاء من ترك الخيانة حياء منك؟ قال: يا موسى له الأمان يوم القيامة»[٥].

١- الامالي للشيخ الصدوق: ٣٩٨، مجلس٦٢، حديث١٢. بحار الانوار ٧٢: ١٧٠، باب٥٨، حديث٢.

٢- الامالي للشيخ الصدوق: ٤٢٧، مجلس٦٦، حديث١. بحار الانوار ٧٢: ١٧١، باب٥٨، حديث٣.

٣- المحاسن ١: ٦، باب١، حديث١٥. بحار الانوار ٧٢: ١١٥، باب ٥٠، حديث٩.

٤- الخصال ١: ٣٢٥، حديث١٤. بحار الانوار ٧٢: ١٧١، باب٥٨، حديث٧.

٥- بحار الانوار ٧٢: ١٧٠، باب ٥٨، حديث١.

المال الحلال في القرآن والسنة:

تدعو الآيات القرآنية والروايات الموضحة لها الناس إلى عدم الركون الى هذه الحياة القصيرة و الجلوس إلا على مائدة حلال، وأن لا يستفيد من أي شيئ إلا بمال طاهر، لإن المال الحلال يورث النورانية، ويوجد في الإنسان الشوق والرغبة للعبادة.

القرآن الكريم والروايات الشريفة تذكر الإنسان على الدوام بأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل رزق أحد من العباد عن طريق الحرام، ودعا كل شخص للإنشغال بعمل مشروع، وبمقدار سعيه وجهده في العمل يكسب المال، ويأخذ رزقه المقدر له من قبل الله جل وعلا، ووعد الساعي في طلب الرزق الحلال بالأجر العظيم من الله في يوم القيامة، فقال تعالى في محكم كتابه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ

١- البقرة ٢: ١٧٢.

٢- النحل ١٦: ٧٢.

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٣].

﴿وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[٤].

إن الدعوة للإكتفاء بالمال الحلال حقيقة أكد عليها القرآن الكريم والروايات من خلال الأحكام الإسلامية، وما أجمل أن يحفظ الإنسان نفسه عن الحرام في هذا العمر المحدود ويقتصر على ما كسبه من المال الحلال، ويصرفه بمقدار حاجته والتزاماته اليومية، ويعامل الله في ما بقى من ماله، وذلك في إنفاقها في وجوه البر والخير، ومساعدة الفقراء، وإكرام الأيتام، والمساهمة في بناء المجتمع الكريم، وفي كتب الروايات هناك باب تحت عنوان«باب الكفاف» تتضمن روايات مهمة في هذا الموضوع، ومن المستحسن الإشارة إلى بعضها لتتجلى عظمة الأحكام و الثقافة الإسلامية، وحرصها على التعاون لبناء مجتمع اسلامي

١- الاسراء ١٧: ٧٠.

٢- المؤمنون ٢٣: ٥١.

٣- البقرة ٢: ١٦٨.

٤- المائدة ٥ : ٨٨.

راق:

قال رسول الله عليه السلام:

«قال الله عز وجل: إن أغبط أوليائي عندي رجل خفيف الحال، ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضاً في الناس، جعل رزقه كفافاً فصبر عليه، عجلت منيته فقلَّ تراثه، وقلَّت بواكيه»[١].

وهو كناية عن انفاق الأموال في طريق الحق تعالى، ولم يبق لديه مايزيد على مصارفه، ولا شهرة عظيمة لديه بين الناس، حتى يكثر عليه النائحون!!.

قال رسول الله عليه السلام:

«اللهم ارزق محمد وآل محمد، ومن أحب محمد وآل محمد، العفاف والكفاف، وارزق من أبغض محمد وآل محمد المال والولد»[٢].

لأن الثروة وكثرة العيال في تاريخ الحياة البشرية تورث الغرور والكبر والإعجاب بالنفس والظلم، ولهذا طلبها النبي الأعظم عليه السلام لأعدائه، وفي الواقع هو دعاء عليهم.

قال الامام موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام:

«أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى لا تفرح بكثرة

١- الكافي ٢: ١٤٠،باب الكفاف،حديث١. بحار الانوار٦٩: ٥٧، باب٩٥، حديث١.

٢- الكافي ٢: ١٤٠، باب الكفاف، حديث ٣. بحار الانوار٦٩: ٥٩،باب ٩٥،حديث٣.

المال، ولا تدع ذكري على كل حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري ينسي القلوب»[١].

ويستفاد من الآيات والروايات المذكورة أيضاً، بأنه يجب على الإنسان أن لا يكون غير مبالٍ لتأمين ما ينفق على معيشته، ويبقى عاطلاً عن العمل كسولاً، معتمداً على مساعدة الآخرين في تأمين عيشه و حياته، فكون الإنسان عالة على الناس في طعامه وشرابه من الذنوب، وفي المقابل لا يحق للإنسان أن يصرف كل همه وجهده في طلب الدنيا والتلذذ فيها، وجمع الثروة والمال، لأن ذلك مانع من الوصول الى الحق والحقيقة، ويحرم الإنسان من بلوغ مرتبة الرشد والكمال، ومرتبة الإنسانية، وبالنتيجة سيكون مستحقاً للعنة الحق ومحلاً لعذابه.

والحق أن على الإنسان أن يسعى في كسب قوته وقوت عياله، ويدير شؤون معيشته ومعيشة عياله وأهله بما منحه الله تعالى من قوة وقدرة، وضمن الحدود الإلهية، والأحكام الطاهرة لرب العالمين، وأخذ الارشادات من الأولياء. فعلى الإنسان أن يكون سعيه للعمل والكسب من طريق الحلال، ويصرفه في طريق الحلال. ويعامل الله فيما ما زاد عن نفقاته ومصروفه، وذلك ببذلها في سبيل الله، لإعمار آخرته وكسب رضوان الله جل وعلا.

وخلاصة الموضوع أنه يجب على الإنسان السعي لكسب المال إلى حد العفاف والكفاف، وأن ينفق ما زاد عن قوته وقوت عياله في سبيل الله، وبعبارة أخرى فهو من جهة يتاجر بالمال إلى حد العفاف والكفاف، ومن جهة أخرى

١- الكافي٢: ٤٩٧، باب ما يجب من ذكر الله، حديث٧. علل الشرائع١: ٨١، حديث٢. بحار الانوار٦٧: ٥٥، باب٥٥، حديث٢٣.

يتاجر بماله لإعمار آخرته، مترسماً خطى الأنبياء والأولياء.

فالإنسان إذا أراد أن يتاجر في الدنيا لكسب المال وجمع الثروات فهو مذموم من قبل الحق تعالى، وبعيد عن الإنسانية، وهناك رواية منقولة عن رسول الله ﷺ في هذا المضمون تقول:

«ما أوحي إلي أن إجمع المال، وكن من التاجرين، ولكن أوحي إلي أن﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾»[1][2].

وقيل لسلمان أوصنا: قال:

«من أستطاع منكم أن يموت حاجاً، أو غازياً، أو عامراً لمسجد ربه فليفعل، ولا يموتن تاجراً ولا خائناً»[3].

نعم، إذا تجاوز التاجر حدود العفاف والكفاف، فقد سقط في طريق جمع الثروة والمال، وفي الواقع سقط في ميدان حب الدنيا، وهي رأس كل خطيئة، وستستدرجه إلى الظلم والفسق والفجور والخيانة، وإذا فارق الدنيا وهو على هذه الحال فقد خان الله والإنبياء والأئمة، وخان نفسه التي بين جنبيه.

إن طريق الحق المستقيم هو في أن يكون الإنسان متوازناً في تطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى، ففي الوقت الذي يكون فيه كاسباً للمال، يكون ساعياً لإكتساب

١- الحجر ١٥: ٩٨ ـ ٩٩.

٢- روظة الواعظين: ٤٥٤.

٣- الطبقات الكبرى ٤: ٩١. المحجة البيضاء ٣: ١٤٤.

الفضيلة، وما أعظم هذا الطريق، أن يوفق الإنسان في انفاق ما زاد عن ماله وكسبه في سبيل الله، مثل إعمار المساجد، والمكتبات العامة، والمدارس، ومساعدة الفقراء، ورعاية الأيتام، وكل أمر يمكن فعله بالمال، ولأجل هذا اعتبر الإسلام التجارة ـ التي تكون في خدمة تأمين أمور معيشة الأهل والعيال، وفعل الأعمال الخيرية التي هي مورد قبول الله ـ من أهم الفضائل، وقد أثنى الله سبحانه في القرآن الكريم على التجار الواعين الذين جعلوا من التجارة وسيلة للوصول إلى رضوان الحق تعالى:

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[١].

وهناك روايات مهمة في مجال الترغيب لكسب المال الحلال، نحاول أن نعرض قسماً من تلك الروايات:

قال رسول الله ﷺ: **«من الذنوب ذنوب لا يكفّرها إلا الهمّ في طلب المعيشة»**[٢].

وقال ﷺ: **«التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»**[٣].

وقال ﷺ: **«من طلب الدنيا حلالا تعففاً عن المسألة، وتوسيعاً على عياله، وتعطفاً على رجاله، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر»**[٤].

١- النور ٢٤: ٣٧.

٢- المحجة البيضاء ٣: ١٣٩، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب١.

٣- المحجة البيضاء ٣: ١٤٠، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب١.

٤- المحجة البيضاء ٣: ١٤٠، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب١.

وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق»[١].

وقال النبي الأعظم ﷺ: «الأسواق موائد الله، فمن أتاها أصاب منها»[٢].

وروي أن عيسى على نبينا وآله وعليه السلام: «رأى رجلاً فقال له: ما تصنع؟ فقال: أتعبَّد، قال: ومن يعولك؟ قال: أخي، قال عليه السلام: أخوك أعبد منك»[٣].

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: ألا إن الروح الأمين نفث في روعي، أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله عز وجل، واجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيئ من الرزق أن تطلبوه بشيئ من معصية الله عز وجل، فإن الله تبارك وتعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى الله عز وجل وصبر أتاه الله برزقه من حله، ومن هتك حجاب الستر وعجّل فأخذ من غير حله، قص من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة»[٤].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: ملعون من ألقى كلّه على النّاس»[٥].

ومن وصايا لقمان لإبنه: إستعن بالكسب الحلال على نفي الفقر، لإن الإنسان

١- المحجة البيضاء ٣: ١٤١، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب ١.

٢- المحجة البيضاء ٣: ١٤١، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب ١.

٣- المحجة البيضاء ٣: ١٤١، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب ١.

٤- المحجة البيضاء ٣: ١٤١، كتاب آداب الكسب والمعاش، باب ١.

٥- الكافي ٥: ٧٢، باب الاستعانة بالدنيا على الاخرة، حديث ٧.

لا يفتقر إلا بثلاث: الضعف في الدين، والضعف في العقل، وفقدان الغيرة، وهذه البلايا الكبيرة استصغرها الناس.

التقى الأوزاعي إبراهيم بن أدهم وقد شد حزمة من الحطب على كتفه لبيعها، فقال له: يا أبا اسحق مالك وهذا الحطب؟ وأخوتك مستعدون لتأمين ما تحتاجه لإدارة أمور معيشتك، فأجاب إبراهيم: دع عنك هذا الكلام، فمن وقع في الذل في طريق طلب الرزق الحلال وجبت له الجنة.

عندما يتأمل الإنسان في الآيات السابقة، والروايات المنقولة من أهم كتب الحديث يستنتج: أن الإنسان المسلم والعارف العاشق يستنكف ويتألم بأن يكون عالة على الآخرين فيتحملون الأذى والمشقة لأجل تأمين معيشته، بل إن الإنسان الإلهي يسعى لتأمين مستلزمات حياته وحياة عياله وزوجته من خلال الكسب الحلال ومن الطريق المشروع، لنيل رضا الله سبحانه وتعالى في جميع الأوقات واللحظات، والدنيا في نظره وما فيها من مال وتجارة وخيرات ونعم وثروات ما هي إلا مزرعةِ لإعمار الآخرة، وأن جميع مظاهر الدنيا و مغرياتها لا تخدعه، ولا تحرفه عن الله وصراطه المستقيم.

والعارف يعلم بأن المال وسيلة وليس هدفاً، ويعلم أن الدنيا وثرواتها تكتسب قيمة وأهمية إذا كان اكتسابها من الطرق المشروعة، وإنفاقها يكون في سبيل الله، ويعلم العارف بأن هذه الدنيا بجميع زينتها وزخارفها لو قدمت له مجاناً ولم يكن فيها رضا المحبوب والمعشوق فلا تساوي عنده عفطة عنز.

والعارف عندما يخرج لطلب الرزق فليس لأجل حب المال و طلب الدنيا، بل إن خروج العارف للكسب، وارتباط العاشق بمال الدنيا فقط لأجل إرادة المولى

جل وعلا، فالعارف لا يمنح أي شيئ قيمة وأهمية إلا بإرادة الحق وأوامره، فما بالك بحفنة من الدراهم المعدودة، التي يريد بها سد جوعه وستر عورته. وهناك رواية جميلة تبين لنا مقدار الإرتباط اللازم الذي يجب أن يكون بالمال والدنيا:

قال ثوبان: قلت يانبي الله ما يكفيني من الدنيا؟ قالﷺ:« ما سد جوعك، ووارى عورتك، وإن كان لك بيت يظلك فبخ بخ، وإن كان لك دابة تركبها فذاك، وأنت مسؤول عما سوى ذلك»[1].

ويوصي الله العلي القدير والأنبياء الربانيون والأئمة المعصومون والعرفاء الصادقون والعشاق المولهون بالمعرفة والحكماء والناصحون بشكل دائم ومستمر أن يكون العيش في الدنيا بالحلال لا غير، وعامل الله سبحانه وتعالى فيما زاد من المال الحلال، وليكن أكلك وشرابك ولبسك الحلال في حد الضرورة، واصرف وقتك في اكتساب الفضيلة والأدب والإنسانية، وتجنب خوض الدنيا وغمارها في غير الحلال، وابتعد عن كماليات الدنيا وغير الضروري، ولا تدع القلب يتعلق بمالها، وتجنب الفرح والإنبساط بثرواتها، وابعد نفسك عن أهل الدنيا وعبادها، حتى لا تحسب في عداد أصحابها.

فخذ من الدنيا ما تحتاجه، وما زاد عن حاجتك استبدله بالعمل الصالح الذي لا ينقطع بإنقطاع الإنسان عن هذه الحياة الدنيا، وإلا فهل أخذ من صرف كل عمره وتحمل المشقة والمصاعب في جمع الثروات والأموال شيئاً منها عندما انتقل من هذه الدنيا إلى قبره؟.

وفي الواقع ماذا قدمت تلك الثروات لأصحابها عند الموت من عون

١- مجموعة ورام ٢: ٢١٥، وقريب منه، طبقات المحدثين ٤: ٨٣ الكامل لابن عدي ٧: ١٠٤.

ومساعدة؟ وما هي المشاكل التي أعانتهم في حلها؟ بل أن كل ما قدمته لهم هو الحسرة والندامة على ما مضى من عمرهم كهباء منثور.!!

فتعال أيها الإنسان وكما يقول إمام العرفاء ومحبوب العاشقين الإمام علي عليه السلام: «**الدنيا مزرعة الآخرة**»، وهذا المسير هو الذي يجلب رضا الحق ويوصل إليه.

الآثار المعنوية للمال الحلال:

نحن نعلم أن حضرة الحق تبارك و تعالى مطلع على أوضاع جميع موجودات عالم الخلقة من جميع الجهات، وأن عدالته شاملة لجميع زوايا حياة المخلوقات، وهذا يتجلى بوضوح في كل عالم الوجود.

ونعلم أيضاً بأن الإنسان يحظى بعناية خاصة من قبل المولى من بين جميع الموجودات، ويحتل مرتبة عالية لا يضاهيه أي موجدود في عالم الخلقة.

ولهذا خص الله سبحانه وتعالى مقام خلافته، والعلم والحكمة والإيمان والهداية، والسير نحو الرشد والكمال، والوصول إلى مقام اللقاء بالإنسان. لأن الحق تعالى قد خلق العالم أجمعه للإنسان، وخلق الإنسان لنفسه عزوجل، والحديث القدسي يشير إلى هذا المعنى:

«**خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي**»[1].

ويجب على كل انسان وجوباً عينياً أن يسعى لتحقيق هدف الحق تعالى، وتحقق هذا الهدف السامي، يعني الوصول إلى لقاء المحبوب، وأن نيل رضا الله سبحانه وتعالى متوقف على معرفة الإنسان بالحقائق، والعمل على أساس هذه

١- شرح الأسماء الحسنى: ١: ١٣٩.

المعرفة.

ويجب أن يعلم الإنسان بما جاء في الكتب اسماوية وبالخصوص ما جاء في القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ وما بينه الأئمة عليهم السلام وعشاق الحقيقة والجمال، والعمل به، من دون أن يتخلف عن أداء ما جاؤوا به. وقد بينت الشريعة الإلهية السمحاء كل ما فيه مصلحة للبشر سواء كان مصلحة دنيوية أو مصالح أخروية، وكذلك بينت ما فيه ضرر للبشر سواء كان في الدنيا أو في الآخرة، وبهذا فقد تمت الحجة على جميع البشر، بحيث لم يدع لأحد منهم يوم القيامة أي عذر للتقصير أو الخطأ أو العصيان في مقابل الحق تعالى.

ولا شك إن قوام البدن بالغذاء، وقوام الروح مرتبط بالبدن، وروح الإنسان في جميع حالاتها وحركاتها تتأثر بالبدن، فيجب على الإنسان أن ينظر في موضوع الغذاء الذي يمثل قوام البدن ـ وفي الحقيقة إن الغذاء للبدن بمنزلة الجذور بالنسبة للشجرة ـ بشكل دقيق وحساس وذلك من جهة:

أولا: أن يكون الغذاء طاهراً من ناحية الظاهر، وحلالاً من ناحية الباطن، وأن يتجنب الطعام المشبوه حتماً، وأن يفر من الطعام المحرم بكل وجوده وكيانه، لأن الغذاء الحلال عندما يكون بمقدار الحاجة يوجب نورانية القلب والروح، وفي النتيجة تدفع الإنسان نحو اكتساب المعرفة واكتشاف الحقيقة، وتبعث للعمل بما يريده المولى، وفي المقابل فإن الغذاء الحرام يؤدي إلى ظلمة القلب والروح، وتبعش الإنسان نحو فعل مختلف المعاصي والذنوب، وفي الواقع إن الغذاء الحلال علة لدوام الحالة المعنوية، وإن الغذاء الحرام هو علة لسواد القلب وعماه، وموجب لهلاك الإنسان، وقد أشارت الآيات القرآنية والمعارف الإلهية

بشكل مفصل للآثار التكوينية والوضعية للغذاء الحلال والحرام، نرى من اللازم التعرض لقسم منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«إنما بني الجسد على الخبز»[١].

وهي تشير إلى أن جسد الإنسان و بقاؤه بني على الغذاء، فعليه يجب التدقيق في حلية الطعام وطهارته بشكل كامل، لما له من التأثير الكبير على الفكر والقلب والروح.

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال:

«اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرق بيننا وبينه، فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدينا فرائض ربنا»[٢].

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الطعام إذا جمع أربع خصال فقد تم: إذا كان حلالاً، وكثرت الأيدي، وسمي في أوله، وحمد الله في آخره»[٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«طلب الحلال فريضة على كل مسلم»[٤].

لأن هذا الوجوب مرتبط بقسم مهم من سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولا

١- الكافي ٦: ٢٨٦، باب ان ابن آدم اجوف...، حديث٣. بحار الانوار ٦٣: ٢٧٠، باب١، حديث٣.

٢- الكافي ٦: ٢٨٧، باب ان ابن آدم اجوف...، حديث٦. بحار الانوار ٦٣: ٢٧٠، باب١، حديث٦.

٣- الكافي ٦: ٢٧٣، باب اجتماع الايدي على الطعام، حديث٢.

٤- جامع الاخبار: ١٣٩، فصل٩٩. بحار الانوار ١٠٠: ٩، باب١، حديث٣٥.

يمكن المرور عليها ببساطة، فتعالوا نضع هذا الأمر في مكانه الصحيح من بين الواجبات الأخرى، فهو يمثل الأصل من بين بقية الفروع في الأهمية، وأن لا نستصغره، وكل من استصغر حكم الله عز وجل ورسوله ﷺ فهو فاقد للإيمان كما يقول الأئمة المعصومون عليهم السلام.

قال رسول الله ﷺ:

«من سعى على عياله من حله، فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»[١].

نعم، إن السير في طلب الحلال جهاد في سبيل الله، ويوصل الإنسان إلى مقام الشهادة العظيم.

وقال رسول الله ﷺ:

«من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٢].

تجلي القرآن في القلب:

من النقاط المهمة التي يمكن بيانها في موضوع تأثير المال الحلال قضية المرحوم ملا كاظم من أهل مدينة أراك، فقد كان مؤمناً متديناً بالحقائق وعاملاً بأوامر الحق تعالى وملتزماً بنواهيه، والشيئ الوحيد الذي كان يقلق هذا الرجل الطاهر صاحب القلب الصافي هو الأمية، خصوصاً عندما يكون الحديث عن

١- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٣، كتاب الحرام والحلال.

٢- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٤، كتاب الحلال والحرام.

القرآن الكريم، وكان يتعذب من الحسرة لعدم معرفته للقراءة والكتابة، فقد كان عاشقاً للقرآن الكريم، ويتمنى لو يقرأ القرآن كما يقرؤه غيره، ولكن كل ما لديه عن القرآن الكريم هو ما كان يسمعه من العلماء الربانيين، وقد كان متخلقاً بأخلاق القرآن الكريم في تصرفاته وأعماله، وخصوصاً فيما يتعلق بالحلال والحرام في كسبه وطعامه وشرابه، حيث كان يراعي ذلك بدقة وعناية.

وفي ليلة من الليالي تشرف برؤية أحد المعصومين عليهم السلام في عالم الرؤيا، فقال له الإمام عليه السلام: إقرأ القرآن الكريم، فأجابه: لا أستطيع، فقال له الإمام عليه السلام: إنك تستطيع، فقرأ في محضر الإمام عليه السلام بعض الآيات، فنهض من نومه من شدة الشوق وشعر بتجلي جميع القرآن الكريم وارتسامه في قلبه، وفي صبيحة ذلك اليوم التقى بالمرحوم نواب صفوي، فقص رؤياه الصادقة عليه، فقام المرحوم بإمتحانه ليرى عين الحقيقة!!

فوجده ليس فقط حافظاً للقرآن، بل يستطيع تمييز ألفاظ الآيات القرآنية عن غيرها من الجمل العربية بلمسها، وذلك بوضع إصبعه على الرسم، وكان يستطيع معرفة موضع الآيات في أي جزء وفي أي سورة، وفي بعض الأوقات يفتح أمامه كتاب مفاتيح الجنان ويسأل عن موضع ما هو مكتوب في القرآن الكريم؟ فيضع إصبعه على الخط ويقول إن هذه الكلمات ليست من القرآن الكريم، ويسأل في بعض الأوقات عن موضع الآية المعينة في القرآن؟ فيتصفح القرآن الكريم، ويضع إصبعه على الآية المسؤول عنها.

وهذه العناية والرعاية للمرحوم ملا كاظم لاقت تأييداً في محضر آية الله العظمى السيد البروجردي، إضافة إلى بعض العلماء ذلك الزمان.

ولا شك إن الغذاء الحلال له آثار مهمة، ومن جملة هذه الآثار انشراح القلب، وإشراق الروح، واستغراق القلب في الحكمة الإلهية.

روي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ: أن يجعله مجاب الدعوة، فقال له ﷺ:

«أطب طعمتك تستجب دعوتك»[١].

وقال ﷺ: «العبادة عشرة أجزاء، فتسعة منها في طلب الحلال»[٢].

وقال ﷺ: «من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له، وأصبح والله عنه راض»[٣].

قال خالد بن نجيح: قال الإمام الصادق عليه السلام:

«اقرؤوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرئكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل، وما ينال به ما عند الله، إني لا آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والإجتهاد، وإذا صليتم الصبح وانصرفتم فبكروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال، فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه»[٤].

وقال سهل بن عبد الله: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان إلا بأربع: أداء الفرائض وفق الأحكام الإسلامية، أكل الحلال مع الورع، واجتناب المعصية في السر والعلانية، والإستقامة على هذه الأمور إلى الموت.

١- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٤، كتاب الحلال والحرام،باب ١.

٢- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٥، كتاب الحلال والحرام،باب ١.

٣- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٥، كتاب الحلال والحرام، باب ١.

٤- الكافي ٥: ٧٨، باب الحث على الطلب والتعرض للرزق، حديث ٨

وقال أيضاً من أراد أن يبلغ مرتبة الصديقين، واكتشاف الحقائق، فلا يأكل إلا من المال الحلال، ولا يعمل عملاً إلا موافقاً لسنة النبي ﷺ في جميع الأفعال والأخلاق.

وقيل: إن أول لقمة يتناولها العبد من المال الحلال تغفر جميع ذنوبه، وكل إنسان يلتذ في طلب المال الحلال تتساقط ذنوبه كما تتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف.

الآثار الخطيرة للمال الحرام:

إن كل ماثبت من فوائد وآثار إيجابية ومعنوية في أكل المال الحلال، يقابله آثار سيئة ونتائج سلبية في أكل المال الحرام، فترك الصلاة الواجبة، وترك صلاة الليل، وقساوة القلب، وعدم الميل للحقائق الأصيلة، وظلامية القلب، ومعاندة الحق، وخمول الروح، وضلال الروح، والتسيب في الدين، والإقدام على الأعمال القبيحة، والإنجرار وراء إغواء الشيطان، كل ذلك من الآثار السيئة لأكل المال الحرام، وفق ما تكشفه الآيات القرآنية والروايات الشريفة:

ولما ذكر النبي ﷺ: الحريص على الدنيا قال:

«رُبَّ أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، يرفع يديه فيقول: يا رب يا رب، فأنَّى يستجاب لذلك»[1].

عن النبي ﷺ قال:

١- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٤، كتاب الحلال والحرام، باب١.

«إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرفٌ ولا عدلٌ »[١].

وقال عليه السلام:

«من أشترى ثوباً بعشرة دراهم، وفي ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله تعالى صلاته مادام عليه منه شيئ »[٢].

وقال عليه السلام:**«كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به»**[٣].

وقال عليه السلام:**«من أصاب مالاً من مأثم، فوصل به رحماً أو تصدق به، أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله له ذلك جميعاً، ثم قذفه في النار»**[٤].

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا اكتسب الرجل مالاً من غير حلّه، ثم حج فلبى، نودي لا لبيك ولا سعديك، وإن كان من حله نودي لبيك وسعديك»[٥].

وعنه أيضاً عليه السلام قال:

١- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٤ـ ٢٠٥، كتاب الحلال والحرام، باب ١.

٢- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٤ـ ٢٠٥، كتاب الحلال والحرام، باب ١.

٣- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٤، كتاب الحلال والحرام، باب ١.

٤- المحجة البيضاء ٣: ٢٠٥، كتاب الحلال والحرام،باب ١.

٥- الكافي ٥: ١٢٤، باب المكاسب الحرام، حديث٣. المحجة البيضاء ٣: ٢٠٥،كتاب الحلال والحرام، باب ١.

«كسب الحرام يبين في الذرية»[1].

ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي لم يكن له نظير في الخبث والفساد، جاء إلى الكوفة في ضيافة واليه عبد الملك، واستقر في مقر الحكومة، وقال له: هل في المدينة من هو مستجاب الدعوة؟ وادعوهم على مائدتي، فأحضرهم جميعاً، فقال لهم: كلوا، فأكلوا جميعاً من هذه السفرة، وبعد ذلك قال لهم: انصرفوا، وبعد أن خرجوا قال لأطرافه: مع هذا الطعام الحرام الذي أكلوه فلن يكونوا مستجابي الدعوة بعد هذا اليوم.

فما أجمل أن يلتفت الإنسان الى حياته في هذه الدنيا الفانية، والى هذا العمر الذي يمر مر السحاب، هذا العمر القصير، انه لا يستحق أن يلوث نفسه وعياله بالمال الحرام في لقيمات يأكلها، أو لباس يستر به عورته، أو سقف بيت يقيه حرارة الشمس وبرودة الشتاء، ويبتلي بالربا والرشوة، والغصب والسرقة، والإغارة والإعتداء، في الوقت الذي ضمن الله سبحانه وتعالى رزق الإنسان من المال الحلال، ونهاه عن الحرام، فإلى متى يقع الإنسان في فخ الدنيا ومصيدتها ومغرياتها؟ وإلى متى يبقى أسير الهوى والهوس؟ ويضيع عمره النفيس فيما لا قيمة له ولا فائدة؟ ولماذا يلوث الإنسان نفسه بالمال الحرام لأجل البطنة والبدن الفاني؟ ولماذا يلوث نفسه بالمعاصي والآثام؟ ولماذا يصبح البطن والشهوة هما معبوده الذي ينقاد إليهما؟ ويفني عمره تحت إمرتهما؟ فما هي قيمة البطن والشهوة حتى يضحي الإنسان بسعادته الأخروية التي لا يمكن تعويضها ولا جبرانها بشيئ آخر؟

١- الكافي ٥: ١٢٤، باب المكاسب الحرام، حديث ٤. المحجة البيضاء ٣: ٢٠٦، كتاب الحلال والحرام، باب ١.

فعلينا أن لا نقوم بعمل يفوت علينا فرصة التوبة، ونصبح في وضع لا نحسد عليه، ولا فائدة، ونلتمس من الله جل وعلا أن يعيدنا إلى الدنيا لنؤمن ونعمل صالحاً، ولكن الجواب يأتي بشكل واضح وصريح، كلا،إن وقت جبران الخطأ قد فات وولى، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحوار:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

فتعال نستفيد مما تبقى من هذا العمر الثمين في سبيل الله ولأجل الله، ونستغل هذه الأيام المعدودة في جلب رضا المحبوب، بأداء الأعمال المقبولة عند رب العالمين.

ونقل عن رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله:

«ترك لقمة حرام أحب إلى الله تعالى من صلاة ألفي ركعة تطوعاً»[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«رد دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة»[٣].

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال:

١- المؤمنون ٢٣: ١٠٠.

٢- بحار الانوار ٩٠: ٣٧٣، باب ٢٤.

٣- بحار الانوار ٩٠: ٣٧٣، باب ٢٤.

«ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم من الحسنات كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار، فقيل يا نبي الله أ مصلون؟ قال: كانوا يصلون و يصومون و يأخذون وهناً من الليل، لكنهم كانوا إذا لاح لهم شي ء من الدنيا وثبوا عليه»[١]، أي لا يراعون حرام الله.

ونقل أيضاً عن رسول الله ﷺ قوله:

«إن الله تعالى أوحى إلي: يا أخا النبيين، يا أخا المرسلين، يا أخا المنذرين، أنذر قومك: ألاّ يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد عندهم مظلمة، فإنّي ألعنه مادام قائماً بين يدي يصلي، حتى يرد تلك المظلمة إلى أهلها»[٢].

فيجب علينا أن نقضي ما تبقى من أيام عمرنا المحدود في هذه الدنيا بالمراقبة واليقظة والمحاسبة والدقة لحياتنا لنكون عند حضرة الحق من جملة الصالحين، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ثُمَّ مَنْ رَعَى عِلْمَهُ عَنِ الْهَوَى، وَدِيْنَهُ عَنِ الْبِدْعَةِ، وَمَالَهُ عَنِ الْحَرَامِ، فَهْوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّالِحِيْنَ».

١- عدة الداعي: ٢٩٥.

٢- عدة الداعي: ١٢٩.

«قال النبي ﷺ: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو علم الأنفس»

طلب العلم:

يقول الملا عبد الرزاق اللاهيجي في توضيح هذه العبارة في مختصره:« إن العلم الذي يجب على كل شخص تعلمه وتحصيله هو العلم الذي يوصل لمعرفة مصالح ومفاسد النفس، معرفة الأمور التي توجب صلاح النفس، والأمور التي توجب فسادها، وبعبارة أفضل: معرفة أقسام الحكمة العملية والعمل بها».

فاتضح أن العلم الذي يجب على الإنسان المكلف تعلمه، هو العلم بالأحكام الشرعية، مع أن الإسلام العزيز أوجب تعلم العلوم النافعة لأجل وصول الإنسان لأهدافه السامية، ولكن يجب الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهي، إن للإسلام عناية خاصة بالعلم الذي يهتم بتهذيب النفس من الرذائل، وتحليتها بالفضائل والحسنات، وسمى الإمام الصادقعليه السلام هذا العلم « علم الأنفس»، وطلب هذا العلم واجب على كل رجل وإمرأة وجوباً عينياً، لأن النفس هي التي تتحكم في حياة الإنسان وتسيره، وأن جميع الأعضاء والجوارح واقعة تحت سيطرتها وحكومتها، وعندما تتلوث النفس بالمعاصي والسيئات، فإن الأعضاء والجوارح تتلوث بالتبع، وعندما تتحلى النفس بالحسنات وتتزين بها، فإن الأعضاء

والجوارح التي تخضع لسيطرتها ستتحلى بالحسنات أيضاً.

وفي الحقيقة يجب القول: أن موقع النفس بالنسبة للأعضاء والجوارح كمنبع لتوليد الطاقة بالنسبة للمعمل أو المصنع، فعندما تكون النفس ظرفاً للطهارة والصالحات، سيكون عمل الأعضاء والجوارح طاهراً وصالحاً، وفي المقابل عندما تكون النفس موضعاً للخبائث والسيئات، سينعكس ذلك على عمل الأعضاء والجوارح و تصبح متلوثة بالخبائث والسيئات.

وعليه فإن ملاك سعادة الإنسان وشقائه، وعلة ارتياحه واضطرابه سواء في الدنيا أو الآخرة هو النفس لا غير. فيجب على الإنسان تحصيل العلم الذي يبين مصالح النفس ومفاسدها بكل جد واجتهاد، وهذا العلم هو «علم الأخلاق»، وبعد أ ن يحصّل تلك المعارف المرتبطة بأسباب السعادة والشقاء لابد من العزم على العمل بها بإصرار ورغبة، أي من خلال تمرين النفس وترويضها على اكتساب الفضائل والحسنات، وتطهيرها من الرذائل والسيئات، ومن دون تحصيل هذا العلم وتعلمه، والإستنارة بنور هذه المعرفة لا يمكن تهذيب النفس وتزكيتها.

إن تحصيل هذه المعرفة التي تعتبر من أوجب الواجبات هي التي جعلها النبي ﷺ فريضة على كل مسلم ومسلمة. فإن هذه المعرفة والعمل بها تزرع في الإنسان أفضل القيم والمبادئ، وتجعل منه موجوداً إلهياً وملكوتياً. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا كميل: ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[1].

لإن حركة الإنسان الجاهل لن تزيده إلا بعداً عن الحقيقة، وسقوطاً في

١- مستدرك الوسائل ٧: ٢٦٧، باب ٧، حديث ٢١٣٠٢. تحف العقول: ١٧١.

الظلام والتيه، والتي لا نهاية لها إلا الشقاء والتعاسة.

يقول يزيد بن مذعور: «رأيت الأوزاعي في منامي، فقلت له: دلني على درجة أتقرب بها إلى الله عز وجل! قال: ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء»[١].

فهنيئاً لذلك الإنسان الذي يعرف قدر نفسه، ويعرف موقعه الرفيع في هذا العالم العجيب، واستنهض همته في البحث عن العلم والمعرفة، واستنار بنورها، وخطى خطوة في طريق السير والسلوك للقاء الحق جل وعلا، في المكان الذي يجب أن يصل إليه، حيث لا يصل إلى ذلك المكان إلا الإنسان فقط.

هنيئاً لهذا الإنسان المنقاد لأوامر الرب الرحيم بكل وجوده، الذي استنهض كل كيانه وطاقاته في مواجهة هوى النفس الخطير، وانتصر على عدو الروح، وشذب نفسه من التلوث والسيئات، وزينها بالطهارة والحسنات.

واعلم أن الجهل بالمعارف الإلهية وهي: التوحيد، والنبوة، والإمامة، والمعاد، والملائكة، والبرزخ، والكتاب، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، والأحكام الشرعية من حلال وحرام، والمسائل الأخلاقية السامية، هو أصل الشقاء والتعاسة، وسبب في حصول جميع المفاسد والمهالك.

والإنسان لديه القدرة لإكتساب هذه الحقائق والعمل بها، وأما إذا لم يقدم الإنسان على تحصيل ذلك، أو أنه تصدى لإنكار هذه الحقائق بكل وقاحة وبلا خجل، ففي الحقيقة يكون قد غذى الشجرة الخبيثة التي زرعها في نفسه، وهيأ أسباب خزيه في الدنيا والآخرة بنفسه.

فلا تنسوا الله، ولا تنسوا أنفسكم، ولا تعيشوا في هذه الحياة عمياناً، ولا

١- تاريخ مدينة مشق ٣٥: ٢٢٨.

تعرضوا موقعكم المهم في عالم الخلقة للخطر، فإن الذين ينسون الله وينسون أنفسهم، ويغفلون عن وسائل سعادتهم في الدنيا والآخرة، سيوقعون دنياهم في مهالك خطيرة، وستكون عاقبة أمرهم في الآخرة سيئة جداً، فقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[١].

يقول العرفاء وأهل السير والسلوك: أن هناك خمسة أمور توصل الإنسان السالك إلى المقامات العالية وفقاً للآيات والروايات:

- **ترك التمني والأماني، والإقتناع بما قدر له.**
- **التواضع والخضوع للعظماء للوصول للتوفيقات الربانية.**
- **ترك الأهواء النفسية لإستقبال الفيوضات الإلهية.**
- **الإبتعاد عن الجهل والجهال.**
- **تقوى الله للوصول للمقامات الملكوتية والروحية.**

١- طه ٢٠: ١٢٤ ـ ١٢٦.

«فَيَجِبُ أنْ تَكُونَ نَفسُ الْمُؤْمِنِ عَلَى كُلّ حَالٍ فِي شُكْرٍ أوْ عُذْرٍ، عَلَى مَعْنَى إنْ قُبِلَ فَفَضْلٌ، وَإنْ رُدَّ فَعَدْلٌ »

يجب على الإنسان ـ بالتوجه للأوامر الإلهية ـ أن يجعل نفسه في حالة شكر للحق تعالى في جميع الأحوال، أو في حال الإعتذار للمحبوب، وأن يقول أمام حضرة المولى جل وعلا: إن كل عمل حسن أقدمت عليه هو بتوفيقك ومنّك علي و ذلك بشكل صادق وحقيقي، وأنا شاكر لك على ذلك، وإن كل تقصير فهو صادر مني، وأطلب المغفرة والتوبة والسماح منك، فيا مولاي ويا رحيم: إن أعمالي الحسنة صاعدة إليك، فإن قُبلت فبفضلك وإحسانك، وإن ردت فذلك عين عدلك.

يقول الملا عبد الرزاق اللاهيجي في شرح هذه العبارة:

فإذن يجب على المؤمن إما أن يكون شاكراً لله أو طالباً العذر والعفو، فمثلاً إذا وفق لعبادة أو عمل صالح أوعمل خيري، كالتهجد في العبادة والبكاء من خشية الله، أو قضاء حاجة مؤمن، فيجب عليه أن يبادر إلى شكر الله، ويتوجه إلى حضرته قائلاً: شكراً لك يا إلهي فكل ما صدر مني من عمل صالح فبتوفيق منك وهداية، وإذا وقع تقصير، فاستغفرك واطلب المعذرة منك، وقل: إلهي كيف

أستطيع أن أبلغ حق عبوديتك، وأنا عبدك الضعيف، ولا يصدر من الضعيف إلا العمل الضعيف والناقص، فاقبل عملي الناقص بكرمك يا إلهي.

بل يجب على المؤمن أن يبذل كل جهده، وسعيه على أن لا يعطي لما يقوم به من عمل أو قول أي اعتبار لنفسه، لأنه ما قيمة جميع هذه الأعمال والعبادات والحسنات في محضر الغني على الإطلاق، والمالك بالإستحقاق؟!

نعم، فإذا قبل منا هذا الجهد وهذا السعي المحدود فهو تفضل منه، وإذا رد جميع ما قام به الإنسان من عمل وعبادة، ولم يقبل منه فهو عين العدل، ولا يملك أحد الجرأة على الإعتراض أو التساؤل في حضرة المولى.

فياعزيزي: إستيقظ من غفلتك، وانزع القطن الشيطاني من أذنيك، وافتح عين بصيرتك، لتعلمك ماذا تعني حالة اليقظة؟ وما ألذ سماع نداء المحبوب؟ وانظر الى عظمة و مجد المعشوق بعيون القلب؟

وفي هذه الحال سترى نفسك أصغر من الذرة التي لا ترى، بل إنك من شدة الصغر لن ترى نفسك، وستفنى في عظمة الحق، مع أن إدراك عظمة الحق الواقعية غير ميسرة لأحد من الخلق حتى لخواصه سبحانه وتعالى، عندها لن ترى لعباداتك وطاعاتك أثراً وإن بلغت أضعاف حجم جبال العالم كله، وحينها ستشكر الله سبحانه وتعالى على ما وفقك للعبادة التي لا قيمة لها، وستطلب العذر من حضرة المحبوب لما أولاك من محبة وعناية أمام هذا التقصير في العبادة القليلة والناقصة و الضئيلة.

ولقد كانت سيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام في مقابل الوجود المقدس للحق على هذا المنوال، حيث ينقل الشيخ المفيد العالم الامامي الكبير في كتابه «**الإرشاد**»

حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان عبادة الإمام علي عليه السلام فيقول:« والله ما أكل علي بن أبي طالب عليه السلام من الدنيا حراماً قط، حتى مضى لسبيله، وما عرض له أمران قط هما لله رضاً إلا أخذ بأشدهما عليه في دينه، وما نزلت برسول الله صلى الله عليه وآله نازلة قط إلا دعاه ثقة به، وما أطاق عمل رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الأمة غيره، وإن كان ليعمل عمل رجل كأن وجهه بين الجنة والنار، يرجو ثواب هذه، ويخاف عقاب هذه، ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله، والنجاة من النار، مما كد بيمينه، ورشح منه جبينه، وإن كان ليقوت أهله بالزيت والخل والعجوة، وما كان لباسه إلا الكرابيس، إذا فضل شيئ عن يده من كمه دعى بالجلم فقصه، وما أشبه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليه السلام، ولقد دخل الإمام الباقر عليه السلام عليه، فإذا هو قد بلغ من العبادة مالم يبلغه أحد، فرآه قد إصفر لونه من السهر، ورمصت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، فقال الإمام الباقر عليه السلام: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء، فبكيت رحمة له، وإذا هو يفكر فالتفت إلي بعد هنيئة من دخولي وقال: يابني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام، فأعطيته، فقرأ فيها شيئاً يسيراً، ثم تركها من يده تضجراً، وقال: من يقوى على عبادة علي عليه السلام»[1].

أعزائي: إن عبادة الإمام عليه السلام مع كثرتها لا طاقة لأحد من البشر عليها، حيث كان يعبد ربه في عتمة الليل منكفئاً على نفسه معتصراً من الحسرة يتلوّى من الألم كما لو أنه قد لدغته افعى متجهاً الى الله يناجيه:

١- الارشاد للمفيد ٢: ١٤١.

«آه من قلة الزاد وبعد السفر»[١].

فإذا كان الإمام علي عليه السلام مع هذه العبادات والأعمال، يقول في مقابل عظمة الحق و مجده: آه من قلة الزاد، فما نقول نحن مع هذه الأعمال الناقصة والخوف من المصير غير: آه من عدم الزاد.

ولكن ومع كل هذه الحالات والواقع المرير يجب أن لا نيأس من كرم الله ورحمته وعنايته، فإن حضرة المحبوب سيقبل - بإذن الله - هذه البضاعة المتواضعة والقليلة التي جئنا بها بتوفيق منه بثمن غال، فلا بد أن نكون في جميع لحظات حياتنا في حال الشكر وطلب الإعتذار من الحق تعالى. ويجب أن نسأل من الله العزيز الرحيم التوفيق للعبادة والعبودية بتذلل وخضوع وخشوع، وأن يهدينا بفضله ومنّه لتكون عبادتنا في محضره المقدس خالصة لعز عظمته، وأن يحفظنا من الإنجرار لإغواء الشياطين، وأن يغفر لنا ما مضى من الخطايا والظنون بكرمه ولطفه، فلا يفضحنا في الدنيا والآخرة أمام عباده وخصوصاً في محضر أوليائك المنتجبين، وابعدنا عن الرياء والغرور والعجب والخداع، ونور قلوبنا وأرواحنا بنور العرفان، ووفقنا للوصول إلى لقائك ونيل رضوانك يا كريم يارب.

---

١ - نهج البلاغة: الحكمة ٧٧.

«وتطالع الحركات في الطاعات بالتوفيق، وتطالع السكون عن المعاصي بالعصمة»

إن التوفيق والعصمة حقيقتان، ومسألتان واقعيتان يتفضل بهما المولى عزت آلاؤه على الإنسان.

معنى التوفيق:

التوفيق هي حالة تحصل للإنسان بأمر من الحق تعالى، وبهذه الوسيلة يستطيع الإنسان تحصيل الإيمان، لتكون جميع حركاته وسكناته وفق إرادة الله جل وعلا. فالتوفيق نور إلهي يتجلى في القلب والروح، ويأخذ بالإنسان المتصل به نحو الرشد والكمال، ليصبح موجوداً ذا مكانة سامية، وذا قيمة عالية.

ومن كان التوفيق من نصيبه فقد حاز على أكبر النعم الإلهية، ونال من خلالها الخير الكثير، وامتلأ قلبه بالحكمة الإلهية والمعارف السماوية، وإجراها على لسانه.

وهذه النعمة المعنوية مثل بقية النعم المادية جعلها الله الرحمن الرحيم من نصيب أي إنسان، ولكن الإنسان أزاح هذه النعمة عن طريقه بسوء اختياره، ورمى بنفسه في مهاوي الهلكة والشقاء!!

وقد دعا الله جل وعلا الإنسان للقائه والتقرب منه من خلال الأنبياء والأئمةعليهم السلام

والكتب السماوية، ولكسب رضاه، وقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان القدرة في جسمه وروحه وقلبه وفكره للإستجابة لهذه الدعوة، ولكن أبى أكثر الناس الإستجابة لدعوة الحق جل وعلا، ولن يستجيبوا، وهذا مما يؤسف له ويحزن، فمع كل ما منحهم الله سبحانه وتعالى من قدرة ونعم إلا أنهم وظفوها في اتباع الهوى والهوس والانغماس في الشهوات لحد العبودية لها.

ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه غير موفق، أو قليل التوفيق، لإن هذا الإدعاء إتهام محض لحضرة الحق سبحانه، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فالله لم يحرم أحداً من هذه النعمة، بل الإنسان هو الذي قد حرم نفسه من هذه النعمة بسوء اختياره، وتغليب هواه على عقله.

معنى العصمة:

العصمة في الحقيقة هي عبارة عن قدرة تحفظ جميع الحقائق الموجودة في الإنسان، وقوة لدفع المضار والمفاسد، وهي من نعم الله العظمى أيضاً، وهذه الملكة موجودة في فطرة جميع البشر، وعلى الإنسان أن ينهض لأجل تنمية هذه القوة وتفعيل هذه القدرة وذلك بأداء الواجبات وترك المحرمات، حتى يمنع الشيطان والشياطين من الوصول على هذه الواقعيات الإيمانية والعملية التي لديه والسيطرة عليها إلى حد اليأس.

وببركة مقام العصمة والطهارة يستطيع الإنسان الإنتصار على عدوه الخارجي والداخلي والتغلب عليه، وأما إذا لم يلتفت الإنسان إلى هذا المقام العظيم، ولم يسع في تنمية هذه النعمة، وهي أصل السعادة، فانه سيغرق نفسه بيده في الويلات والشقاء والضياع والهلاك، وسيحرم نفسه عن الكثير من النعم الالهية المادية

والمعنوية».

ويسعى شارح هذه الجمل القيمة في الرواية إلى توضيحها وبيانها بشكل مختصر فيقول:

يجب على المؤمن أن لا يغفل عن إغواء الشيطان وخداعه في جميع أحوله، سواء أثناء أداء الواجبات أو المستحبات، بل في جميع حركاته وسكناته، حتى لا يصدر منه لا سمح الله بسبب هذا الإغواء معصية، أو ارتكاب خلاف الأولى، وبالتالي استحقاق العذاب، أو الحرمان من الثواب.

والنتيجة: أنه يجب على العبد أن يكون مطلعاً على حاله أثناء فعله للطاعات بتوفيق من الله، وفي كل حركاته وسكناته، حتى لا يصدر منه أعمال أو طاعات مشوبة بالرياء أو غيرها من الأمور التي تحبط العمل أو تقلل من ثوابه، وبالتالي بطلان كل أعماله وطاعاته. ويجب على الإنسان عندما يوفق لإجتناب المعصية ـ بفضل العصمة الإلهية ـ أن لايصاب بالغرور والعجب بسبب الغفلة.

أقسام النعم الإلهية:

تشير العبارة المذكورة في الدعاء عند ذكر لفظ«التوفيق» و « العصمة» إلى أقسام النعم الإلهية، وقد ذكر المحققون الكبار أن جميع النعم الإلهية تنقسم إلى قسمين: النعم الدنيوية، وتنقسم إلى النعم النافعة، والنعم الدافعة:

والنعم النافعة هي عبارة عن النعم التي يعطيها الله جل وعلا لكل إنسان، مثل: استواء الخلقة، واللذائذ الجسمية كالأكل والشرب واللباس والمسكن والزواج وغيرها.

والنعم الدافعة هي عبارة عن القدرة التي منحها الله لكل إنسان لدفع الأضرار

والمفاسد، سواء كانت داخلية: كدفع الآفات النفسية، والأمراض والعلل الجسدية. أو كانت خارجية: كدفع الإعتداءات والظلم الصادر من الإنس أو الجن أو السباع أو غيرها.

والنعم الأخروية أو المعنوية، وتنقسم إلى قسمين أيضاً وهما نعمة التوفيق ونعمة العصمة:

ونعمة التوفيق هي عبارة عن التوفيق إلى قبول الإسلام، والتوفيق للإيمان، والتوفيق للإستمرار على الطاعة والعبادة، ونعمة العصمة مثل البراءة من الشرك والكفر، واجتناب الفسق والعصيان.

ويجب الحفاظ على نعمة التوفيق والعصمة، وذلك من خلال اليقظة الدائمة، وعدم الغفلة عن ذكر المحبوب، حتى لا تسلب هاتين النعمتين العظيمتين عن الإنسان، فإن أعداء الإنسان داخل النفس وخارجها في نشاط مستمر لا يتوقف، وعلى الإنسان أن لا يتوانى أبداً في إبقاء هاتين النعمتين وخصوصاً من خلال الحفاظ على إخلاص القلب وعدم الغفلة، وأن يراقب نفسه في جميع اللحظات.

«وَقَوَامُ ذَلِكَ كُلِّه بالإفْتِقَارِ إلَى الله وَالإضْطِرَارِ إلَيْهِ وَالْخُشُوْعِ وَالْخُضُوْعِ، وَمِفْتَاحُهَا الإنَابَةُ إِلَى الله تَعَالَى، مَعَ قَصْرِ الأَمَلِ بِدَوَامِ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَعِيَانُ الْوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَيْ الْجَبَّارِ»

إن حفظ المقامات العظيمة للعبودية، وحفظ المقامات المعنوية العالية، مثل: الشكر والعذر، والتوفيق والعصمة وغيرها من الحقائق التي منحها الله العزيز المتعال للإنسان من سيطرة الشيطان وإغوائه غير ميسر إلا بطلب المدد من الحق جل وعلا، والتوسل بحضرة المحبوب، وأن يدرك الإنسان فقره الذاتي، واحتياجه الأكيد للحق تعالى، وأنه في مقابل الحق لا شيئ مطلقاً، ولا يملك لنفسه أية قدرة، وأن الله هو القادر الذي يحفظ هذا الإنسان الضعيف المحض في مقابل هجوم أعدائه الداخليين والخارجيين.

مفتاح حفظ الإنسان من الأعداء:

يجب على العبد التوسل إلى حضرة الحق بخشوع وخضوع بشكل دائم، وأن لا يغفل عن ذكره، لأنه بمجرد التعرّض الى الغفلة يهجم عليه الأعداء من الداخل والخارج، ومن المحتمل أن يتعرض الإنسان في هذه اللحظات إلى خسائر لا يمكنه تعويضها.

ويجب أن يعلم إن مفتاح جميع هذه الأمور هي بملازمة حالة الإنابة والإستغاثة

إلى حضرة المحبوب، لأن حالة العجز والإنكسار والخضوع والخشوع والإنابة والإستغاثة تجلب رحمة الحق ومدده، والإنسان المنيب والمستغيث متصل بالعناية الإلهية، وفي الحقيقة إنه واقع في حصن المولى الحصين، مما يحول دون وصول أيدي أعداء الظاهر والباطن إليه، وفي هذه الحالة تبقى جميع النعم والثروات الإلهية محفوظة ومصونة، والتي سيأخذها معه بعد انتقاله إلى العالم الآخر، ليعيش في بحر سعادة الدارين.

طريق الوصول إلى مقام الإنابة:

لإدراك حالة الإنابة والإستغاثة يجب أن تخلو بنفسك في جوف الليل مع المحبوب ساعة من الزمن، وتذكر ما ارتكبته من معاصي وذنوب، وتقصيرك في أداء الأعمال، وتصور أنه لو كانت الأمور موكولة إليك ولو لحظة فما هو البلاء الذي سيصيبك من أعداء الظاهر والباطن، عندها إبدأ بقراءة الأدعية المأثورة الواردة، مثل دعاء كميل، ودعاء عرفة، ودعاء أبي حمزة الثمالي، والدعاء بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام، والمناجاة الخامسة عشرة بكل خشوع وخضوع وبكاء وعويل مع ذرف الدموع، واطلب المدد منه في جميع أمورك وأحوالك، لتحصل على خير الدنيا والآخرة، وأنك في محضر الله الجبار ومرآه في جميع أحوالك وحالاتك، وأنه يراك ومطلع عليك في السر والعلانية، وعليك أن تخرج جميع التمنيات والأماني الموجودة في قلبك، وتطهر قلبك منها بحيث لايكون فيه إلا أمنية اللقاء بالمحبوب، وكسب رضاه، وبلوغ الرضوان، ومن كان متوجهاً لهذه المعاني، بأن يكون في محضر الله دوماً، ولا غاية له ولا أمنية غير لقاء الحق تعالى، سيكون طاهراً ومنزهاً من كل نقص وعيب.

«لأنَّ فِي ذَلِكَ رَاحَةً مِنَ الْحَبْسِ وَنَجَاةً مِنَ الْعَدُوِّ»

أضرار طول الأمل:

لا شك أن قصر الأمل بل اجتثاث الأمل من القلب هو أفضل وسيلة للنجاة من سجن الدنيا، لأن طول الأمل يشغل فكر الإنسان بشكل دائم، ويسخر قدرته وهمه لأجل الدنيا، وسيغرق في متاهات هذا السجن الذي لن يخرج منه إلا لحظة الخلاص من الدنيا ـ وهي لحظة الموت ـ حينها سيفيق من غفلته، وسيرى أن عليه ترك ما جناه طوال عمره من الأراضي والأموال والذهب، وإنه لم يعد لعالم البرزخ والأخرة شيئاً يذكر، عندها سيندم على وضعه كثيراً، ولكن لن ينفعه هذا الندم، وسيتوسل إلى حضرة الحق لإرجاعه للدنيا ليعمل فيها صالحاً، ولكن يقال له: كف عن الكلام، فهذه لحظة دخول عالم البرزخ، وبعدها ستدخل إلى المحشر، وعندها ستعلم أنك محروم من الجنة، ولا مكان لك إلا في جهنم.

إن جميع هذا الهوس والأمنيات وطول الأمل لا فائدة منه سوى الضياع، ولا نتيجة منه للإنسان سوى الندامة والحسرة.

الدنيا دار مفر:

جاء في كتب التاريخ والأخبار، كان هناك تاجر متمول وصاحب ثروة، انفق

أكثر أوقات حياته في جمع الأموال، والتفكير في طرق اكتسابها، وبعد فترة من الزمن حان وقت أجله، فجاء ملك الموت إلى باب داره فقرعه، ففتح الغلام باب الدار، فرأى شخصاً مهيباً، من تريد؟ فقال: الخواجه فلان، قال الغلام الخواجه لا يأتي لرؤية أمثالك، فأذهب، ثم أغلق الباب وعاد أدراجه!!

فقرع ملك الموت الباب بشدة، فجاؤوا اليه هذه المرة وبأيديهم الهراوات، و قالوا: من أنت حتى تقرع الباب بهذه الجرأة والتهور؟ ألا تخاف من سطوة الخواجة؟

فقال: أنا ملك الموت جئت لأقبض روح الخواجة، فاضطربوا من هذا الكلام، فعادوا إلى الخواجة وأخبروه بما حدث، فارتجف الخواجة لسماع هذا الخبر، فقال: إذهبوا إليه وقولوا له بلسان حسن لعلك أخطأت الشخص الذي أمرت بقبض روحه، فذهبوا وقالوا له ما ذلك، فقال: أنا لا أخطئ، فقولوا له: إستعد وتهيأ، فعادوا إلى الخواجة بخبر ملك الموت، فلم ير الخواجة المسكين طريقاً غير التسليم، ولا علاج لهذا الأمر غير التسليم، فوجه خطابه لصناديق الذهب والمجوهرات: لقد صرفت عمري العزيز في جمعك، وضحيت بأغلى ما أملكه في الوجود لأجل تحصيلك وكسبك، وتحملت عناء العمل ليلاً ونهاراً لأجلك، فماذا ستفعلين لأجلي في حالي هذه؟ وبماذا تستطيعين مساعدتي؟

فأجابت الثروة العظيمة بلسان الحال قائلة: لقد كان زمام أمرنا بيدك، وكان بإمكانك أن تعمل لآخرتك وتعمرها بواسطتنا، ولكنك لم تكن تفكر في هذه الحقيقة، ولا يمكننا مساعدتك سوى قطعة قماش تكفن فيها!!

فالتفت مخاطباً عياله وأولاده: أنا سعيت في حياتي كلها لأجل أن لا تقعوا في التوهم الباطل والتخيل العاطل، وبعد لحظات ستنتقل كل هذه الثروة التي

جمعتها إليكم، فماذا لديكم لمساعدة هذا المسكين؟ فإجابه زوجه وأولاده بلسان واحد: إن كل ما نستطيع فعله لأجلك هو القيام بلوازم مراسم التغسيل والتكفين والدفن.

والغرض من طرح هذه الأسئلة على كل واحد، واستماع الأجوبة هو تجرع الحسرات والآلام، والشعور بمرارة الموت.

والنتيجة أن طول الأمل توقع الإنسان في البلاء والندامة والحسرة، وهي علة لمشاكل الإنسان في سجن الدنيا، وقصر الأمل يبعث على الراحة في الدنيا، والسعادة في الحياة، والنجاة في عالم الأبدية؛ في عالم الآخرة.

ولعل المقصود من كلمة «ذلك» في العبارة الإشارة إلى الموت، بمعنى أن أي إنسان عندما يصبح الموت نصب عينيه، يتخلص من سجن الدنيا ومصائبها، لأن الغفلة عن الموت هي منبع كل المصائب والمشاكل والآلام والمشقات في الدنيا، يقول النبي الأعظمﷺ:«إكثروا ذكر هادم اللذات»[1] لأنه بذكر الموت يقصر أمل الإنسان، ولا يكون سعيه في طلب الرزق إلا من الدنيا الحلال، والإقتصار في ذلك في حدود الضرورة، مستغرقاً في عبودية الحق وطاعته والعمل الصالح بكل شوق وحرارة ايمان، للوصول إلى الحياة الطيبة في هذه الدنيا، والتزود بزاد الآخرة. وبقصر الأمل وذكر الموت ينجو الإنسان من حبائل الشيطان الخطيرة.

---

١ - عيون أخبار الرضا ١: ٧٥، حديث ٣٢٥.

علاج الأمراض النفسية:

بما أن النفس هي منبع الغرائز والميول والشهوات، ولها إرتباط بالدنيا المادية وعوامل اللذات الظاهرية من كل جهة، فهي عرضة للتحولات والتغيرات والمراحل، والإسلام عبر عن هذه التحولات والمراحل بالأمراض المعنوية.

فالنفس عندما تصاب بالأمراض الأخلاقية، لا تستطيع أن تكون موجوداً خالصاً وطاهراً وصافياً لله، ولا تستطيع سلوك طريق الخضوع والخشوع، وفي النتيجة ستبقى بعيدة و محرومة من مقام القرب ولقاء الحق تعالى.

وأفضل وسيلة لتطيهر الباطن تكمن في عبادة الحق وإطاعة أوامر المولى، واجتناب المحرمات، وكلما سعى وتقدم بجهد أكثر في هذا الطريق، نال نصيباً أكثر من التوفيق، وازداد نوره اشراقاً، حتى يصل إلى مرتبة الأولياء والعاشقين، ويفوز برؤية الحقائق بعين قلبه و بصيرته.

ويمكن الرجوع للقرآن الكريم، والروايات المأثورة، وكلمات العاشقين لأجل معرفة حالات النفس وكيفياتها، وهل أنها سليمة أو مريضة؟ وتطبيقها مع هذا المنبع الإلهي، لإن القرآن الكريم والروايات المأثورة قد استعرضت أوضاع النفس بشكل كامل، ووضعتها في اختيار الإنسان، وعليك أن تتعرف على

حالات النفس الإيجابية والسلبية، لتكتشف عند التطبيق الأمراض التي تعاني منها نفسك، وتأخذ طريقة علاجها من القرآن والروايات، لتبدأ في علاجها واصلاحها في الوقت المناسب، لتسلم نفسك من حبائل الشيطان، وتخلصها من حب الدنيا، وتصل إلى مقام العبودية الحقيقي، والقرب من الحق.

«وَأَصْلُ ذَلِكَ أنْ يَرُدَّ الْعُمْرَ إِلَى يَوْمٍ وَاحِدٍ»

إن السبب الأصلي الذي يدفع الإنسان للخشوع والخضوع، وسلامة النفس، والإخلاص، هو الرجوع إلى اعتبار أن العمر يوم واحد، وبعبارة أخرى: إن الإنسان يجب أن لا ينظر إلى مقدار العمر وطوله، لأنه لا قيمة لطول العمر بالمقارنة مع العمر الحقيقي، فليعتبر أن فترة الطفولة والشباب والشيخوخة ما هي إلا لحظة، وإنها لخسارة عظيمة أن تمضي هذه اللحظة من دون فائدة، بالإنشغال في الأمور المادية المحضة التي لا تعين الإنسان في نكبته ومصائبه عند العوز والحاجة، وأما إذا اعتبر الإنسان عمره سويعات، ويومه لحظات، فلن يكون على استعداد لتضييع هذه اللحظات والمتاجرة فيها مع غير الله جل وعلا، حتى وإن أعطي الدنيا بما فيها ثمناً لذلك.

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدنيا ساعة فاجعلها عبادة»[1].

---

١ - عوالي اللآلئ ١: ٢٨٥، فصل ١٠، حديث ١٣١. بحار الانوار ٦٧: ٦٨، باب ٤٥.

«وَبَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ مَلازَمَةُ الْخَلْوَةِ بِمُدَاوَمَةِ الْفِكَرَةِ»

طريق الوصول إلى الكمالات:

إن الطريق للوصول إلى جميع هذه الحقائق، يعني الخضوع والخشوع وسلامة النفس والإخلاص، وبعبارة أخرى: إن طريق نيل الكمالات واكتشاف الحقائق يتحقق بأمرين:

١- **ملازمة الخلوة**: بمعنى التفرغ للإختلاء بحضرة المحبوب في الليل والنهار لعدة ساعات، وخصوصاً في ساعات الليل والناس نيام، حيث تقوم في هذه السويعات بتطهير الفكر والروح والقلب بمناجاته، والاعتذار اليه و طلب المغفرة، والإنابة إليه، وترك مصاحبة من لا يزيد الإنسان إلا ظلمة في العقل وبعداً عن الحق، لهذا قالوا: «**الصحبة تؤثر**» فإن طباع الإنسان وأخلاقه تتطبع بإخلاق وعادات من يصاحبهم ويرافقهم في حياته.

٢- **التفكير في الموت وعواقبه**: إن التفكير في الموت وعواقبه من القبر والبرزخ والحساب والأمور المتعلقة بما بعد الموت، يطرد الغفلة، ويبعث على العمل بايمان وإخلاص بما تبقى من عمر الإنسان، ويبعث على تركيز كل اهتمامه بلقاء المحبوب، ليضيئ القلب والروح بنور الحق تعالى.

«وَسَبَبُ الْخَلْوَةِ الْقَنَاعَةُ، وَتَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْمَعَاشِ، وَسَبَبُ الْفِكْرَةِ الْفَرَاغُ»

القناعة:

من طلب الكنز العظيم بالإختلاء بالحبيب، فيجب عليه أن يعيش حياة عادية بسيطة مع قناعة ورضا، وعندما يصل إلى مرتبة القناعة سيزهد شيئاً فشيئاً بما لدى أهل الدنيا، ويفقد الميل إليهم، ويجد أن سعي أكثر الناس لإمتلاك القدرة هو السبب في ضياعهم وشقائهم، فالقناعة تحفظ الإنسان من الإستزادة في الطلب، التي هي منشأ الحرص والبخل وأكثر المفاسد.

إن الإستغناء عما زاد ـ الذي لا نتيجة له سوى تعلق القلب بالدنيا، وحرمان الإنسان من الفيوضات الربانية ـ هو النتيجة الحاصلة من القناعة.

والسبب الذي يؤدي إلى التفكير في العواقب هو فراغ الخاطر، وخلو النفس من الإرتباطات والتعلقات، ونزعات الهوى، لإن الإنسان المشغول في الليل والنهار بمعيشته، وبارتباطه بالناس العاديين، ونفسه مضطربة بعلاقاتها المادية لن يكون لديه وقت للتفكير في حياته ومآله وفي عواقب أموره، أما الشخص الراضي بالقليل من المعاش، والمكتفي بما يسد رمقه في الحياة، فليس بحاجة لصرف أوقاته من الليل والنهار للمعاملات الدنيوية المادية، و الاستغراق في الحياة

المادية ذلك أن ذهنه وخاطره سيكون خال من التشوش والإضطراب، ومهيأ للإستنارة بنور المعرفة والذكر الإلهي، والتفكير في العواقب، والحركة في طريق النجاة من المخاطر والمهلكات.

«وَعِمَادُ الْفَرَاغِ الزُّهْدُ، وَتَمَامُ الزُّهْدِ التَّقْوَى، وَبَابَ التَّقَوَى الْخَشْيَةُ »

إن الزهد هو أصل الفراغ وعموده و راحة البال، وتمام الزهد في التقوى وصيانة النفس وحفظها، وباب التقوى في خشية القلب، وخشية القلب وخوفه من الحق تعالى، أو الخوف من تبعات الذنب والمعصية، فهو أصل جميع الكمالات والحقائق.

«وَدَلِيْلُ الْخَوْفِ التَّعْظِيْمِ لله تَعَالَى، وَالْتَّمَسُّكَ بِتَخْلِيْصِ طَاعَتِهِ وَأَوَامِرِهِ، وَالْحَذَرُ مَعَ الْوُقُوْفِ عَنْ مَحَارِمِهِ»

إن دليل الإنسان إلى الخشية هو تعظيم الله سبحانه وتعالى، ولا سبيل لمعرفة عظمة المحبوب جل وعلا إلا بالرجوع إلى الآيات القرآنية والروايات المأثورة، لأن الإنسان عندما يدرك عظمة الخالق ويقف عليها، يقف ببركة ذلك على ضعف نفسه وحقارتها وذلتها وفقرها المحض، حيث تؤدي هذه المعرفة إلى الخوف والخشية الدائمة في مقابل حضرة الحق، وبالتالي الفناء بتمام وجوده وكيانه في عبودية المحبوب.

ويجب القول في توضيح العبارة المذكورة: إن علامة الخوف هي تعظيم الحق جل شأنه، وعدم الغفلة عن ذلك في جميع الأحوال، وإن علامة الخشية هي في الإخلاص لله في العبادة وحده دون غيره، لأنه كلما كانت العبادة والطاعة أقرب إلى الإخلاص، اشتملت تلك العبادات على تعظيم أكثر للمعبود، وكان لها عند المعبود سبحانه وتعالى قيمة أكثر، لهذا قال العرفاء: إن عبادة الإنسان الحقيقية هي التي تكون لكسب رضا الحق فقط لا غير، وليس لأجل طلب الجنة، أو الخوف من النار. كما قال مولى العرفاء الإمام علي (عليه السلام): **«إلهي ما**

عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[1].

ومن علامات الخوف الحذر، أي الخوف بشكل دائم من صدور عمل أو تحرك غير مقبول وليس فيه رضا المحبوب، وحالة الحذر تمنع الإنسان من الإقدام على ارتكاب المحرمات، وتجنب الإقتراب من الشبهات، وطريق معرفة حالة الحذر تتحقق بالرجوع إلى الآيات القرآنية المرتبطة بالخالق ويوم الحساب والجزاء و التأمل في معانيها فيها، وكذلك بالرجوع للروايات المروية في هذا الباب، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

ودليل الخوف التعظيم لله تعالى و التمسك بتخليص طاعته و أوامره و الحذر مع الوقوف عن محارمه.

---

١ - القواعد والفوائد ١: ٧٧. عوالي اللآلي ١: ٤٠٤، حديث٦٣.

«وَدَلِيْلُهَا الْعِلْمُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]»

ودليل الإنسان إلى الخشية والحذر العلم، والعلم هو الذي يوجب خوف العلماء وخشيتهم من الله، وعندما يفتقد العلم يزول الخوف، وعندما يزول الخوف فلا طاعة للأوامر ولا إجتناب عن النواهي، وعندما لا تكون هناك طاعة وعبادة فلا طريق حينئذ إلى مقام القرب من الحق، وعندما لا يكون هناك طريق لمقام القرب، فلا عاقبة له سوى الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

أشكر الله الرحمن الرحيم أن جعل شرح الرواية الثانية والثالثة من الكتاب العظيم«**مصباح الشريعة**» من نصيب هذا الفقير المسكين، وأدعو الله العظيم أن يأخذ بأيدينا في الدنيا والآخرة، وأن لا يوكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن ينظر إلينا بلطفه ورحمته، وأن يحشرنا في زمرة أوليائه في الدنيا والآخرة، وأن يحفظنا بقدرته من شر الشيطان وهوى النفس.

---

١ - فاطر ٣٥: ٢٨.

المحتويات

الباب (٢) في بيان حالات القلب

الشرح: .... Error! Bookmark not defined.
توضيح حول لفظ «الكلمة»: ٨
مصاديق لفظ «الكلمة» في القرآن: ٩
١- القول الحق: ٩
٢- التوبة: ١٠
٣- الامتحان: ١١
٤- روح المعنى: ١١
٥- الإنسان: ١١
الترجمة الصحيحة لكلمات وجود الإنسان: ١٧
مراتب الإيمان: ١٨
ايمان القلب: ١٩
إيمان اللسان: ٢٠
إيمان الأذن: ٢١
إيمان العين: ٢٢

إيمان اليدين والقدمين: ٢٤
إيمان الوجه: ٢٦
ما معنى زيادة الإيمان؟: ٢٧
التأديب الإلهي: ٢٨
التأدب مع الله: ٢٨
معنى الذكر: ٣١
حقيقية الذكر: ٣١
الذكر غاية العبادات: ٣٢
شروط الذكر: ٣٣
مراتب الذكر: ٣٤
معاني الذكر في كتاب الله: ٣٥
١- القرآن المجيد: ٣٥
٢- التوجه القلبي والروحي: ٣٧
معنى الرضا: ٤١
الرضا هو ثمرة الحب الحقيقي: ٤٢
معنى الرضا في كلام مولوي: ٤٤
الرضا فب كلام الفيض الكاشاني: ٤٦
كلام عاشق في باب الرضا: ٤٦
الرضا في الروايات: ٤٨
الإشتغال بغير الله: ٥٣
المنشغلين بغير الله في التعبير القرآني: ٥٤
١- الأخسرين أعمالاً: ٥٤

٢- أصحاب الأعمال الباطلة:.. ٥٤
٣- أصحاب القلوب المريضة:.. ٥٥
٤- كاتمي الشهادة:.. ٥٦
٥- أهل النار:.. ٥٦
٦- أصحاب القلوب القاسية:.. ٥٧
٧- أصحاب القلوب المقفلة:.. ٥٧
٨- أصحاب القلوب المرتابة:.. ٥٨
وجه المناسبة بين الوقف والغفلة:.. ٥٩
كلام العلامة المجلسي حول حالات القلب:.. ٥٩
صلاح القلب وفساده في الروايات الإسلامية:.. ٦١
حفظ القلب من المخاطر:.. ٦٣
في كلام الغزالي:.. ٦٥
علم الله سبحانه بالقلب:.. ٦٥
القلب موضع نظر رب العالمين:.. ٦٦
القلب سيد البدن:.. ٦٧
القلب خزانة الجواهر:.. ٦٧
أحوال القلب الخمسة:.. ٦٧
آفات القلب:.. ٧٠
الآفة الأولى: طول الأمل:.. ٧١
الآفة الثانية: الحسد:.. ٧٥
الآفة الثالثة: الإستعجال:.. ٧٦
الآفة الرابعة: الكبر:.. ٧٨

حد الأمل وأقسامه: ٨٠
حد الحسد و حقيقته: ٨٢
حقيقة العجلة: ٨٣
معنى الكبر: ٨٤
مراحل الوصول إلى الحقيقة: ٨٥
١- المعرفة: ٨٦
٢- الهمة: ٨٦
٣- المحبة: ٨٧
طرق نفوذ الشيطان إلى القلب: ٨٨
١- الحرص والحسد: ٨٩
٢- الغضب والشهوة: ٩٠
٣- عشق ملذات الدنيا: ٩٢
٤- كثرة الأكل: ٩٣
٥- الطمع: ٩٣
٦- العجالة وترك الإستقامة: ٩٤
٧- مال الدنيا: ٩٥
٨- الخوف من الفقر: ٩٥
طريق كسب المعرفة الحقيقية: ٩٧
العلم بالفقر الذاتي: ٩٧
ظهور نور الإيمان: ٩٨
مشاهدة جمال المحبوب عند ارتفاع الحجب: ١٠٢
كلام العارف الحر النزيه: ١٠٣

القلب المحروم من نور الله علة لجميع المفاسد:........................ ١٠٨
علامات رفع القلوب:........................ ١١٩
علامات فتح القلوب:........................ ١٢٠
علامات خفض القلوب: ١٢١
علامات وقف القلوب: ١٢٢

الباب (٣) في بيان رعايه

الغفلة:........................ ١٢٧
الغفلة في القرآن الكريم:........................ ١٢٩
غفلة الأمم:........................ ١٣١
الإنسان أضل من الحيوان: ١٣٢
أصحاب الغفلة مأواهم النار:........................ ١٣٤
أكثر الناس غافلون: ١٣٦
عاقبة الغافلين:........................ ١٣٧
الغفلة في الروايات:........................ ١٣٩
الغافلون في كلام المرحوم النراقي:........................ ١٤٢
المراقبة: ١٤٣
معنى المراقبة في كلام العظماء:........................ ١٤٤
طريق الوصول لحالة المراقبة:........................ ١٤٧
المراقبة والمحاسبة: ١٤٩
وصية المراقب للنفس:........................ ١٥٠
توجه المراقب إلى أعضاء البدن:........................ ١٥٢

المراقبة أفضل وسيلة للحصول على السعادة: ١٥٥
الأمر الأول: الدقة قبل العمل: ١٥٥
الأمر الثاني: التوجه لأصل العمل: ١٥٧
محاكمة النفس: ١٥٨
طرق علاج الغفلة: ١٦١
وصفة للشفاء: ١٦٢
المراقبون والمحاسبون من وجهة نظر الروايات: ١٦٨
نبذة مختصرة من حياة المراقبين والمحاسبين: ١٦٩
حقيقة النفس: ١٨١
آراء ملا صدرا حول النفس: ١٨٤
الجهل بالنفس من أكبر المخاطر: ١٨٧
أفضل العبادة مخالفة هوى النفس: ١٩٥
اللذة وألم النفس: ٢٠١
النفس في الروايات: ٢٠٧
النفس ومقاماتها الأربعة: ٢١٤
حقيقة العقل: ٢١٩
منزلة العقل في وجود الإنسان: ٢٢٠
كلام العلامة المجلسي حول العقل: ٢٢٤
العقل والفكر في القرآن: ٢٢٦
العقل والفكر في الروايات: ٢٣٢
مكانة العلم في حياة الإنسان: ٢٣٩
خطر العلماء غير العاملين: ٢٤٠

علماء هوى النفس:.. ٢٤٢
القرآن وعلماء السوء:.. ٢٤٢
علماء السوء والفساد:.. ٢٤٦
مؤسسوا الحروب الصهيونية:.. ٢٥٢
محاكم التفتيش العقائدي:.. ٢٥٥
علماء عبدة الهوى أساس حكم بني أمية:.. ٢٥٩
وضع الأحاديث.. ٢٦٦
نماذج من الأحاديث الموضوعة:.. ٢٦٧
علماء عبدة الهوى في القرن العشرين:.. ٢٦٩
صفات العلماء الربانيين:.. ٢٧٠
خبر المعصية كان سبباً لموت عالم:.. ٢٧١
غض النظر عن المرجعية:.. ٢٧٣
مخالفة النفس للهوى أساس الطهارة:.. ٢٧٤
منزلة الدين في حياة البشر:.. ٢٧٩
١- ميل الإنسان الغريزي للدين:.. ٢٧٩
٢- يمنع الترديد والإضطراب:.. ٢٨١
٣- الدين أفضل ملجئ في الحوادث:.. ٢٨٢
صبر المتدينين في المصائب:.. ٢٨٤
٤- تطبيق الدين مع الإخلاص في النية:.. ٢٨٦
٥- عدم الرياء عند أهل الدين:.. ٢٨٦
٦- التدين يلبي حاجيات الباطن:.. ٢٨٧
٧- التدين موجب لشكر النعمة:.. ٢٨٧

٨- التدين يدفع الضرر: ٢٨٧
حاجة المجتمع للدين وقوانينه: ٢٨٨
حقيقة الدين: ٢٩٧
المعنى العرفاني للدين: ٣٠٢
حقيقة الدين وروحه: ٣٠٩
الدين هو الإسلام: ٣٢١
خصوصيات الإسلام: ٣٢٥
التوحيد النظري: ٣٢٥
التوحيد العملي: ٣٢٧
المعاد في الإسلام: ٣٢٧
تشريع القوانين في الإسلام: ٣٣٠
الأصول الأمنية في الحياة: ٣٣٤
الدين في الآيات القرآنية: ٣٤٣
الله هو خالق العالم: ٣٤٥
وحدانية الله: ٣٤٦
النبوة: ٣٤٧
الإمامة: ٣٤٩
مضمون الوحي الإلهي: ٣٥١
مضمون الوحي الإلهي في الروايات: ٣٥٤
البدعة في الدين: ٣٥٨
موقع المال الحلال في الإسلام: ٣٦٢
القرآن وموضوع المال: ٣٦٤

المال الحرام في القرآن والسنة:.. ٣٦٨
المال الحلال في القرآن والسنة:.. ٣٧١
الآثار المعنوية للمال الحلال:.. ٣٨٠
تجلي القرآن في القلب:.. ٣٨٣
الآثار الخطيرة للمال الحرام:.. ٣٨٦
طلب العلم:.. ٣٩٢
معنى التوفيق:.. ٤٠٠
معنى العصمة:.. ٤٠١
أقسام النعم الإلهية:.. ٤٠٢
مفتاح حفظ الإنسان من الأعداء:.. ٤٠٤
طريق الوصول إلى مقام الإنابة:.. ٤٠٥
أضرار طول الأمل:.. ٤٠٦
الدنيا دار مفر:.. ٤٠٦
علاج الأمراض النفسية:.. ٤٠٩
طريق الوصول إلى الكمالات:.. ٤١٣
القناعة:.. ٤١٤
المحتويات:.. ٤٢٠